وإني وإشرافي عليك بهمتي لكالمبتغي زبدا من الماء بالمخض.

وقال آخر:

فقل في مكرع عذب وقد وافاه عطشان!

وقال آخر:

وكيف الصبر عنك، وأي صبر لظمآن عن الماء الزلال؟

وقال آخر:

وإن الماء في العيدان يجري، وربتما تغير في الحلوق!

وقال آخر:

إذا أنت عاتبت الملول فإنما أخط بأقلام على الماء أحرفا!

وقال آخر:

والماء ليس عجيباً أن أعذبه يفنى، ويمتد عمر الآجن الأسن.

وقال آخر:

المال يكسب أهله، مل لم يفض في الراغبين إليه، سوء ثناء.

كالماء تأسن بئره إلا إذا خبط السقاة جمامه بدلاء.

في وصف الماء وتشبهه

فأما ما اختص به نهر النيل من الوصف.

فمن ذلك قول ابن النقيب:

كأن النيل ذو فهم ولب لما يبدو لعين الناس منه.

فيأتي حين حاجتهم إليه، ويمضي حين يستغنون عنه!

وقال تميم بن المعز العبيدي:

يوم لنا بالنيل مختصر ولكل يوم مسرة قصر.

والسفن تجري كالخيول بنا صعدا، وجيش الماء منحدر.

فكأنما أمواجه عكن وكأنما داراته سرر.

ومن رسالة للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني قال: وأما النيل فقد ملأ البقاع، وانتقل من الإصبع إلى الذراع. فكأنما غار على الأرض فغطاها، وعار عليها فاستقعدها وما تخطاها.فما يوجد بمصر قاطع طريق سواه، ولا مرغوب مرهوب إلا إياه.

وأما ما اختصت به دجلة من الوصف.

قال التنوخي:

وكأن دجلة إذ تغمض موجها ملك يعظم، خيفة ويبجل.

عذبت، فما أدري أماء ماؤها عند المذاقة أم رحيق سلسل؟

وكأنها ياقوتة أو أعين زرق يلاءم بينها ويوصل.

ولها بمد بعد جزر ذاهب جيشان: يدبرذا، وهذا يقبل.

وقال محمد بن عبد الله السلامي، شاعر اليتيمة:

وميدان تجول به خيول تقود الدارعين ولا تقاد.

ركبت به إلى اللذات طرفاً له جسم وليس له فؤاد.

جرى فظننت أن الأرض وجه ودجلة ناظر وهو السواد.

وقال الصنوبري:

فلما تعالى البدر واشتد ضوءه بدجلة في تشرين بالطول والعرض

وقد قابل الماء المفضض نوره وبعض نجوم الليل يطفي سنا بعض،
توهم ذو العين البصيرة أنه يرى ظاهر الأفلاك في باطن الأرض.

ومما وصفتبه الأنهار
قال الصنوبري:

والعوجان الذي كلفت به قد سوى الحسن فيه مذ عوج.
ما أخطأ الأيم في تعوجه شيئاً إذا مااستقام أو عرج.
تدرج الريح متنه فترى جوشن ماء عليه قد درج.
إن أعنقت بالجنوب أعنق في لطف، وإن هملجت به هملج.
من أين طافت شمس النهار به حسبت شمسا من جوفه تخرج.

وقال أبو فراس:

والماء يفصل بين زهر الروض في الشطين فصلا.
كبساط وشى جردت أيدي القيان عليه نصلا.

وقال الناجم:

انظر إلى الروض الذك ي فحسنه للعين قرة!
فكأن خضرته السما ء، ونهره فيه المجرة.

وقال عبد الله بن المعتز:

وترى الرياح إذا مسحنا غديره وصفينه ونقينا كل قذاة،
ما أن يزال عليه ظبي كارع كتطلع الحسناء في المرآة.

ومثله قول الآخر:

وغدير رقت حواشيه حتى بان في قعره الذي كان ساخا.
وكأن الطيور إذا وردته من صفاء به، تزق فراخا.

وقال آخر:

والنهر مكسو غلالة فضة؛ فإذا جرى سيل، فثوب نضار.
وإذا استقام، رأيت صفحة منصل؛ وإذا استدار، رأيت عطف سوار.

وقال أبو مروان بن أبي الخصال:

النهر قد رقت غلالة خصره وعليه من صبغ الأصيل طراز.
تترقرق الأمواج فيه كأنها عكن الخصور تهزها الأعجاز.

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي:

لله نهر سال في بطحاء أشهى ورواداً من لمى الحسناء!
وغدت تحف به الغصون كأنها هدب تحف بمقلة زرقاء.
والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء!

وقال أبو القاسم بن العطار:

مررنا بشاطئ النهر بين حدائق بها حدق الأزهار تستوقف الحدق.
وقد نسجت كف النسيم مفاضة عليه، وما غير الحباب لها حلق!

وقال محمد بن سهل البلخي، شاعر "الذخيرة":

راقنا النهر صفاءً بعد تكدير صفائه.
كان مثل السيف مدمى فجلوم من دمائه.
أو كمثل الورد غضا فهو اليوم كمائه.

وقال القاضي التنوخي، شاعر "اليتيمة":

أحبب إلي بنهر معقل الذي فيه لقلبي من همومي معقل!
عذب إذا ما عب فيه ناهل فكأنه من ريق حب ينهل.
متسلسل فكأنه لصفائه دمع بخدي كاعب يتسلسل.
فإذا الرياح جرين فوق متونه فكأنها درع جلاه الصيقل!

وقال مؤيد الدين الطغرائي في الغدير:

عجنا إلى الجزع الذي مد في أرجائه الغيم بساط الزهر.
حول غذير ماؤه المنتمي إلى بنات المزن يشكو الخصر.
لولاذه الريح سموماً به لانقلبت وهي نسيم السحر.
حصباؤه در ورضراضه سحالة العسجد حول الدرر.
وقد كسته الريح من نسجها درعاً به يلقى نبال المطر.
وألبسته الشمس من صبغها نواراً به يخطف نور البصر.
كأنها المرآة مجلوة على بساط أخضر قد نشر.

وقال أيضاً:

ملنا إلى النشر الذي ترتقي إليه أنفاس الصبا عاطره.
حول غدير ماؤه دراع والأرض من رقته حاسرة.
والشمس إن حاذته رأد الضحى حسناء في مرآتها ناظرة.
والهب إن حاذته جنح الدجى تسبح في لجته الزاخرة.
قد ركب الخضراء فيه فمن حصبائه أنجمها زاهرة.
يخضر إن مرت بأرجائه لفح سموم في لظى هاجره.
أنموذج الماء الذي جاءنا الوعد بأن نسقاه في الآخرة!

ومما وصفت به البرك

قال البحيري عفا الله عنه:

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والآنسات التي لاحت مغانيها!
ما بال دجلة كالغيري تنافسها في الحسن طورا ، وأطوارا تباهيها؟
كأن جن سليمان الذين ولوا إبداعها فأدقوا في معانيها.
فلو تمر بها بلقيس عن عرض ، قالت: هي الصرح تمثيلاً وتشبيها.
تنصب فيها وفود الماء معجلة كالخيل خارجة من حبل مجريها .
كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجري في مجاريها.
إذا علتها الصبا أبدت لها حبكاً مثل الجواشن مصقولاً حواشيها.
إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلاً، حسبت سماء ركبت فيها.
لا يبلغ السمك المحصور غايتها لبعد ما بين قاصيها ودانيها.
يعمن فيها بأوساط مجنحة كالطير تنقض في جو خوافيها.
كأنها حين لجت في تدفقها يد الخليفة لما سال واديها!

وقال ابن طباطبا:

كم ليلة ساهرت أنجمها لدى عرصات أرض ماؤها كسمائها.
قد سيرت فيها النجوم كأنما فلك السماء يدور في أرجائها.
أحسن بها بحراً إذا التبس الدجى، كانت نجوم الليل من حصبائها!
ترنو إلى الجوزاء وهي غريقة تبغي النجاء، ولات حين نجائها!
تطفو وترسب في اصطفاق مياهها لا مستعان لها سوى أسمائها.
والبدر يخفق وسطها فكأنه قلب لها قد ريع في أحشائها.

وقال عبد الجبار بن حمديس، يصف بركة يجري إليها الماء من شاذروان من أفواه طيور وزرافات وأسود، من أبيات:

والماء منه سبائك من فضة ذابت على دولاب شاذروان!
فكأنما سيف هناك مشطب ألقته يوم الروع كف جبان!
كم شاخص فيه يطيل تعجبا من دوحة نبتت من العقيان!
عجبا لها تسقي هناك ينائعاً ينعت من الثمرات والأغصان!
خصت بطائرة على فنن لها حسنت، فأفرد حسنها من ثاني!
قس الطيور الساجعات بلاغة وفصاحة من منطق وبيان.
فإذا أتيح لها الكلام تكلمت بخرير ماء دائم الهملان.
وكأن صانعها استبد بصنعة فجر الجماد بها على الحيوان!
أوفت على حوض لها فكأنها منها إلى العجب العجاب روان.
وكأنها ظنت حلاوة مائها شهداً، فذاقته بكل لسان.
وزرافة في الجو من أنبوبها ماء يريك الجري في الطيران.
مركوزة كالرمح حيث ترى له من طعنه الحلق انعطاف سنان.
وكأنما ترمي السماء ببندق مستنبط من لؤلؤ وجمان!
لو عاد ذاك الماء نفطا، أحرقت في الجو منه قميص كل عنان.
في بركة قامت على حافاتها أسد تذل لعزة السلطان!
نزعت إلى ظلم النفوس نفوسها، فلذلك انتزعت من الأبدان.
وكأنما الحيات من أفواهها يطرحن أنفسهن في غدران.
وكأنما الحيتان إذ لم تخشها أخذت من المنصور عهد أمان!

وقال آخر:

ولقد رأيت، وما رأيت كبركة في الحسن ذات تدفق وخرير!
عقدت لها أيدي المياه قناطرا من جوهر فيلجة من نور!

وقال علي بن الجهم، يصف فوارة:

وفوارة ثارها في السماء، فليست تقصر عن ثارها!
تراها إذا صعدت في السماء تعود إلينا بأخبارها
ترد على المزن ما أنزلت على الأرض من صوب مدرارها!

وقال ابن حجاج فيها:

علمت في دارك فوارة غرقت الأفق بها الأنجما!

فاض على نجم السما ماؤها، فأصبحت أرضك تسقي السما!
وقال تميم بن المعز العبيدي:
وقاذفة بالماء في وسط بركة قد التحفت ظلا من الأيك سجسجا.
إذا أينعت بالماء سلته منصلا وعاد عليها ذلك النصل هودجا.
تحاول إدراك النجوم بقذفها، كأن لها قلباً على الجو محرجا!
ومما وصفت به الدواليب والنواعير
قال أبو حفص بن وضاح:
لله دولاب يطوف بسلسل في روضة قد أينعت أفنانا!
قد طارحت فيه الحمائم شجوها بنحيبها، وترجع الألحانا.
فكأنه دنف يطوف بمعهد، يبكي ويسأل فيه عمن بانا.
ضاقت مجاري طرفه عن دمعه، فتفتحت أضلاعه أجفانا!
وقال الموفقي، رحمه الله:
ناعورة تحسب من صوتها متيما يشكو إلى زائر.
كأنما كيزانها عصبة رموا بصرف الزمن الواتر.
قد منعوا أن يلتقوا فاغتدوا أولهم يبكي على الآخر!
وقال آخر:
وناعورة قد ضاعفت بنواحها نواحي، وأجرت مقلتي دموعها!
وقد ضعفت مما تئن، وقد غدت من الضعف والشكوى تعد ضلوعها!
وقال ابن منير الطرابلسي:
لنواعيرها على الماء ألحا ن تهيج الشجا لقلب المشوق.
فهي مثل الأفلاك شكلاً وفعلاً قسمت قسم جاهل بالحقوق:
بين عال، هام، ينكسه الخط ويعلو بسافل مرزوق.
وقال أبو الفرج الوأواء:
وكريمة سقت الرياض بدرها فغدت تنوب عن السحاب الهامع.
بلباس محزون، ودمعة عاشق، وحنين مشتاق، وأنه جازع.
فكأ،ها فلك يدور، وعلوه يرمي القرار بكل نجم طالع.
وقال الصنوبري:
فلك من الدولاب فيه كواكب من مائة تنقض ساعة تطلع.
متلون الأصوات: يخفض صوته بغنائه، طورا وطورا يرفع.
ومما وصف به نثرا
من رسالة للشيخ ضياء الدين القرطبي إلى بعض إخوانه يستدعى منه ثلاثة أسهم ومليات. جاء منها:
والحاجة داعية إلى ثلاثة أسهم، كأنها هقعة الأنجم؛ ممتدة امتداد الرمح، مقومة تقويم القدح؛ غير مشعثة الأطراف، ولا معقدة الأعطاف؛ ولا مسوسة الأجواف؛ تحاسن الغصون بقوامها، والقدود بتمامها؛ وتخالف هيفها لامتلاء خصورها وتساوي "بين"

هواديها وصدورها؛ معتدلة القدود، ناعمة الحدود؛ مع مليات أخذت النار منها مأخذها فاسودت وتطاولت عليها مدة الجفاف فاشتدت؛ وترامت بها مدة القدم، كأنها في حيز العدم؛ صلاب المكاسر، غلاظ المآزر؛ تشبه أخلاقه في هيجاء السلم، وتحكي صلابة آرائه في نفاذ الرأي ومضاء العزم؛ تكظم على الماء بغيظها، فتجود على الأرض بفيضها؛ تمد يد أيدها في اقتضاء إرادتها، وتطلع طلوع الأنجم في فلك إدارتها؛ وتعانق أخواتها معانقة التشييع، فآخر التسليم أول التوديع، على أنها بحقائق الاعتبار، وتجري جري الفلك المدار في قناة الأعمار:

تمر كأنفاس الفتى في حياته وتسعى كسعي المرء أثناء عمره.

يفارق خل خله، وهو سائر على مثل حال الخل في إثر سيره.

ويعلمه التداور، لو يعقل الفتى بأن مرور العمر فيه كمره.

فمن أدركت أفكاره سر أمرها فقد أدركت أفكاره سر أمره.

ومن فاته، الإدراك أدركه الردى: إذا جزعت أنفاسه كأس مره.

ومما وصفت به الجداول

قال ابن المعتز، عفا الله عنه:

على جدول ريان، لا يقبل القذى: كأن سواقيه متون المبارد.

وقال الناجم:

أحاطت أزاهير الربيع سوية سماطين مصطفين، تستنبت المرعى.

على جدول ريان كالسهم مرسلا، أو الصارم المسلول، أو حية تسعى.

وقال المفجع:

على جدول ريان ينساب متنه صقيلا، كمتن السيف وافى مجردا.

إذا الريح ناغته، تحلق وجهه دروعا وضاء، أو تحزز مبردا.

وقال ابن الرومي:

على خفاقي جدول مسجور أبيض مثل المهرق المنشور.

أو مثل متن المنصل المشهور ينساب مثل الحية المذعور.

وقال ذو الرمة:

فما انشق ضوء الصبح حتى تبينت جداول أمثال السيوف القواطع.

وحيث انتهينا من ذكر المياه إلى هذه الغاية فلنذكر عباد الماء.

ذكر عباد الماء

وعباد الماء طائفة من الهند يسمون الجلهكية، يزعم أن الماء ملك، ومعه ملائكة، وأنه أصل كل شيء، وبه كل ولادة ونمو ونشوء وبقاء وطهارة وعمارة، وما من عمل في الدنيا إلا ويحتاج إلى الماء.

فإذا أراد الرجل منهم عبادته، تجرد وستر عورته. ثم دخل الماء حتى يصل إلى وشطه، فيقيم ساعتين وأكثر، ويأخذ ما أمكنه من الرياحين فيقطعها صغارا ويلقي في الماء بعضها بعد بعض، وهو يسبح ويقرأ، وإذا أراد الانصراف، حرك الماء بيده. ثم أخذ منه فنقط على رأسه ووجهه وسائر جسده. ثم يسجد وينصرف."

القسم الخامس من الفن الأول:

في طبائع البلاد،

في طبائع البلاد، وأخلاق سكانها، وخصائصها، والمباني القديمة، والمعاقل، وما وصفت به القصور والمنازل

وفيه خمسة أبواب

الباب الأول

"في طبائع البلاد، وأخلاق سكانها"

روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل كعب الأحبار عن طبائع البلاد وأخلاق سكانها، فقال : إن الله تعالى لما خلق الأشياء، جعل كل شيء لشيء. فقال العقل: أنا لا حق بالشأم، فقالت الفتنة: وأنا معك. وقال الخصب: أنا لاحق بمصر، فقال الذل: وأنا معك. وقال الشقاء :أنا لاحق بالبادية،فقالت الصحة: وأنا معك.

وقال محمد بن حبيب: لما خلق الله تعالى الخلق، خلق معهم عشرة أخلاق: الإيمان، والحياء، والنجدة، والفتنة ، والكبر، والنفاق، والغنى، والفقر، والذل، والشقاء.فقال الإيمان: أنا لاحق باليمن، فقال الحياء: وأنا معك. وقالت النجدة: أنا لاحقة بالشأم، فقالت الفتنة: وأنا معك. وقال الكبر: أنا لاحق بالعراق، فقال النفاق: وأنا معك. وقال الغنى: أنا لاحق بمصر، وقال الذل: وأنا معك. وقال الفقر: أنا لاحق بالبادية، فقال الشقاء: وأنا معك.

وحكي عن الحجاج أنه قال: لما تبوأت الأشياء منازلها، قال الطاعون: أنا نازل بالشأم، فقالت الطاعة: وأنا معك. وقال النفاق: أنا نازل بالعراق، فقالت النعمة: وأنا معك. وقال الشقاء: أنا نازل بالبادية، فقال الصبر: وأنا معك.

نوع آخر منه

روي عن عبد بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن الله تعالى خلق البركة عشرة أجزاء: فتسعة منها في قريش، وواحد في سائر الناس. وجعل الكرم عشرة أجزاء: وتسعة منها في العرب، وواحد في سائر الناس. وجعل الغيرة عشرة أجزاء: فتسعة منها في الأكراد، وواحد في سائر الناس. وجعل المكر عشرة أجزاء: فتسعة منها في القبط،

وواحد في سائر الناس. وجعل الشفاء عشرة أجزاء: فتسعة منها البربر، وواحد في سائر الناس.وجعل النجابة عشرة أجزاء: فتسعة منها في الروم، وواحد في سائر الناس.وجعل الصناعة عشرة أجزاء: فتسعة منها في الصين، وواحد في سائر الناس.وجعل الشهوة عشرة أجزاء: فتسعة منها في النساء، وواحد في سائر الناس.وجعل العمل عشرة أجزاء: فتسعة منها في الأنبياء، وواحد في سائر الناس.وجعل الحسد عشرة أجزاء: فتسعة منها في اليهود، وواحد في سائر الناس.

ويقال: قسم الحقد عشرة أجزاء: فتسعة منها في العرب، وواحد في سائر الناس. وقسم البخل عشرة أجزاء: فتسعة منها في الفرس، وواحد في سائر الناس. وقسم الكبر عشرة أجزاء: فتسعة منها في الروم، وواحد في سائر الناس. وقسم الطرب عشرة أجزاء: فتسعة منها في السودان، وواحد في سائر الناس. وقسم الشبق عشرة أجزاء: فتسعة منها في اليهود، وواحد في سائر الناس.

ويقال: أربعة لا تعرف في أربعة: السخاء في الروم، والوفاء في الترك، والشجاعة في القبط، والغم الزنج.

نوع آخر منه

حكي عن الحجاج أنه سأل أيوب بن القرية عن طبائع أهل البلاد، فقال: أهل الحجاز أسرع الناس إلى فتنة وأعجزهم عنها؛ رجالها جفاة، ونساؤها كساة عراة. وأهل اليمن أهل سمع وطاعة، ولزوم الجماعة. وأهل عمان عرب استنبطوا. وأهل البحرين نبط استعربوا.

وأهل اليمامة أهل جفاة، واختلاف آراء. وأهل فارس أهل بئس شديد، وعز عتيد. وأهل العراق أبحث الناس عن صغيره، وأضيعهم لكبيرة. وأهل الجزيرة أشجع فرسان، وأقتل للأقران. وأهل الشام أطوعهم لمخلوق وأعصاهم لخالق. وأهل مصر عبيد لمن غلب؛ أكيس الناس صغارا، واجهلهم كبارا.

وحكي عن أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أنه قال: كنا نعلم في المكتب كما نعلم القرآن: احذروا حماقة أهل بخاري، وغل أهل مرو، وشغب أهل نيسابور، وحسد أهل هراة، وحقد أهل سجستان.

وقال أبو حامد القاضي: أعياني أن أرى خراسانياً ذكياً، وطبريا رزينا، وهمذانياً لبيباً، وبصريا ركيكا، وكوفيا رئيسا، وبغداديا سخياً، وموصلياً لطيفاً، وشامياً خفيفاً، وحجازياً منافقاً، وبدوياً ظريفاً.

وقال بختيشوع: تسعة لا تخلو من تسعة: قميا من رعونة، ويماني من جنون، وواسطي من غفلة، وبصري من جدل، وكوفي من كذب، وسوداني من جهل، وبغدادي من مخرقة، وخوزي من لؤم، وطبري من زرق.

وقيل: جاور أهل الشام الروم، فأخذوا عنهم اللؤم وقلة الغيرة. وجاور أهل الكوفة أهل السواد، فأخذوا عنهم السخاء والغيرة. وجاور أهل البصرة الخوز، فأخذوا عنهم الزنا وقلة الوفاء.
ويقال: إن القدماء اعتبروا البلاد وما امتاز به بعضها عن بعض من الطبائع، فوجدوا أخصب بقاع الدنيا ثمانية مواضع: أرمينية، وأذربيجان، وماه دينور، وماه نهاوند، وكرمان، وأصبهان، وقومس، وطبرستان.
ووجدوا أخف بقاع الدنيا ماء، ماء ثمانية مواضع: دجلة، والفرات، وزندرود أصبهان، وماء سوران، وماء هفيجان، وماء جنديسابور، وماء بلخ، وماء سمرقند. "وغفلوا عن نيل مصر، ولعله أحقها بهذه الخصوصية من سائر المياه".
ووجدوا أوبأ بقاع الدنيا ستة مواضع: النوبندجان، وسابور خواست، وجرجان، وحلوان، وبرذعة، وزنجان. "وغفلوا عن شيزر."
ووجدوا أعقل أهل البلاد تسعة: أهل أصبهان، والحيرة، والمداين، وماه دينور، وإصطخر، ونيسابور، والري، وطبرستان، ونشوى"وهي نقجوان".
ووجدوا أسرى أهل بقاع الدنيا أهل سبعة مواضع: طوسفون "وهي المداين"، وبلاشون "وهي حلوان"، وماسبذان، ونهاوند، والري، واصبهان، ونيسابور.
ووجدوا أهل بقاع الدنيا أهل عشرة مواضع: ماسبذان، ومهرجانقذق، وسورستان، والري، والرويان، وأذربيجان، والموصل، وأرمينية، وشهرزور، والصامغان.
ووجدوا البخل في أهل ثمان بقاع: مرو، وإصطخر، ودارابجرد، وخوزستان، وماسبذان، ودبيل، وماه دينور، وحلوان.
ووجدوا أسفل أرض بقاع الأرض أربعة: أهل السدجان، وبادرايا، وماكسايا، وخوذستان.
ووجدوا أقل أهل الأرض نظراً في العواقب أهل سبعة مواضع: طبرستان، وأرمينية، وقومس، وكرمان، وكوسان، ومكران، وشهرزور.
ويقال: إنه وفد رجل من عجم خراسان على كسرى، فقال له: اخبرني من أحسن أهل خراسان لقاءً؟ قال: أهل بخاري. قال: فمن أوسعهم بذلا للخبز والملح؟ قال: أهل جوزجان. قال: فمن أحسنهم ضيافة؟ قال: أهل سمرقند. قال: فمن أدقهم نظرا وتقديرا؟ قال: أهل مرو. قال: فمن أسوأهم طاعة؟ قال: أهل خوارزم. قال: فمن أخبثهم طوية؟ قال: أهل مرو الروذ، إن رضي بذلك أهل أبيورد. قال: فمن اسقطهم عقلا؟ قال: أهل طوس، إن رضي بذلك أهل نسا. قال: فمن أكثرهم شغبا وجدلا: قال: أهل سرخس، إن رضي بذلك أهل قوهستان. قال فمن أضعفهم وأخبثهم؟ قال: أهل نيسابور. قال: فمن أقلهم غيرة على النساء؟ قال: أهل هراة.

الباب الثاني
في خصائص البلاد
من القسم الخامس من الفن الأول

ولنبدأ من ذلك بمكة ويثرب، وأعرب عما أنقله من فضلهما ولا أغرب؛ وأصله بذكر البيت المقدس والمسجد الأقصى، ولا أشترط الاستيعاب لأن فضائلها لا تحصى.

فأما مكة "شرفها الله تعالى وعظمها" ففضائلها مشهورة بينة. قال الله تعالى: "وإن أول بيت وضع للناس للذي بمكة مباركاً وهدىً للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً". وقال الله تعالى: "وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً". قال بعض المفسرين: أمنا من النار. وقيل: كان يأمن من الطلب من أحدث حدثا ولجأ إليه في الجاهلية.

وحكى القاضي عياض في كتاب الشفا أنه حدث أن قوما أتوا سعدون الخولاني بالمنستير، وأعلموه أ، كتامة قتلوا رجلا وأضرموا عليه النار طول الليل، فلم تعمل فيه وبقي أبيض البدن، فقال: لعله حج ثلاث حجج؟ قالوا: نعم. قال: حدثت أن من حج حجة أدى فرضه، ومن حج ثانية داين ربه، ومن حج ثلاث حجج حرم الله شعره وبشره على النار.

ولما نطر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة قال: مرحبا بك من بيت، ما أعظمك وأعظم حرمتك!. وجاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: ما من أحد يدعو الله عند الركن الأسود إلا استجاب له. وكذلك عند الركن.

وعنه صلى الله عليه وسلم: من صلى خلف المقام ركعتين، غفر له ما تقدم من ذبنه وما تأخر وحشر يوم القيامة مع الآمنين.

ما كانت الكعبة عليه فوق الماء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض

قال أبو الوليد الأزرقي بسند يرفعه إلى كعب الأحبار أنه قال: كانت الكعبة غثاء على الماء قبل أن يخلق الله عز وجل السماوات والأرضين بأربعين سنة. ومنها دحيت الأرض. وقال يرفعه إلى مجاهد: خلق الله تعالى هذا البيت قبل أن يخلق شيئا من الأرضين. وعنه يرفعه إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بعث الله ريحا فصفقت الماء فأبرزت عن حشفة في موضع البيت كأنها قبة. فدحا الله عز وجل الأرض من تحتها فمادت ثم مادت. فأوتدها الله تعالى بالجبال، فكان أول جبل وضع فيها أبو قبيس، فلذلك سميت مكة أم القرى وعنه يرفعه إلى مجاهد أنه قال: لقد خلق الله عز وجل موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرض بألفي سنة، وإن قواعده لفي الأرض السابعة السفلى.

بناء الملائكة الكعبة قبل خلق آدم عليه السلام، ومبدأ الطواف

وقال أبو الوليد الأزرقي، يرفعه إلى على بن الحسين رضي الله عنهما إنه أتاه سائل يسأله، فقال له: عم تسأل؟ فقال: أسألك عن بدء الطواف بهذا البيت لم كان؟ وأني كان؟ وحيث كان؟ وكيف كان بالحجر؟ فقال له: نعم، ومن أين أنت؟ فقال: من أهل الشام. فقال: أين مسكنك؟ قال: في بيت المقدس. فهل قرأت الكتابين؟ "يعني التوراة والإنجيل". قال له الرجل: نعم. فقال له: يا أخا أهل الشام احفظ، ولا ترويني عني إلا حقا: أما بدء هذا الطواب بهذا البيت، فإن اله تعالى قال للملائكة: "إني جاعل في الأرض خليفةً"، قالت الملائكة: أي رب، أخليقة من غيرنا: ممن يفسد فيها ويسفك الدماء ويتحاسدون، ويتباغضون، ويتنازعون؟ أي رب، اجعل ذلك الخليفة منا، فنحن لا نفسد فيها، ولا نسفك الدماء، ولا نتباغض، ولا نتحاسد، ولا نتباغى؛ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، ونطيعك ولا نعصيك. قال الله تبارك وتعالى: "إني أعلم ما لا تعلمون". قال: فظنت الملائكة أن ما قالوه رد على ربهم عز وجل وأنه قد غضب من قولهم، فلاذوا بالعرش، ورفعوا رءوسهم، وأشاروا بالأصابع يتضرعون ويبكون إشفافا لغضبه. فطافوا بالعرش ثلاث ساعات فنظر الله عز وجل إليهم، فنزلت الرحمة عليهم، فوضع الله سبحانه تحت العرش بيتا على أربع أساطين من زبرجد، وغشاة بياقوتة حمراء وسمي البيت الضراح. ثم قال للملائكة: طوفوا بهذا البيت، ودعوا العرش، فطافت الملائكة بالبيت وتركوا العرش، وصار أهون عليهم، وهو البيت، وهو البيت المعمور الذي ذكره الله عز وجل: يدخله كل يوم وليلة سبعون ألف ملك لا يعودون فيه أبداً. ثم إن الله سبحانه بعث ملائكة فقال: ابنوا لي بيتا في الأرض بمثاله وقدره. فأمر الله سبحانه من في الأرض من خلقه أن طوفوا بهذا البيت، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور. فقال الرجل: صدقت يا ابن بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، هكذا كان.

زيارة الملائكة البيت الحرام

قال الأزرقي، يرفعه إلى ابن عباس رضي الله عنهما: إن جبريل عليه السلام وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه عصابة حمراء قد علاها الغبار، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ما هذا الغبار الذي أرى على عصابتك، أيها الروح الأمين؟ قال: إني زرت البيت فازدحمت الملائكة على الركن، وهذا الغبار الذي ترى مما تثير بأجنحتها.

وقال، ورفعه إلى ليث بن معاذ رضي الله عنه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: هذا البيت خامس خمسة عشر بيتا، سبعة منها في السماء إلى العرش، وسبغة منها إلى تخوم الأرض السفلى، وأعلاها الذي يلي العرش: البيت المعمور. لكل بيت منها حرم كحرم هذا البيت. لو سقط منها بيت، لسقط بعضها على بعض إلى تخوم الأرض السفلى، ولكل بيت من أهل السماء ومن أهل الأرض من يعمره، كما يعمر هذا البيت.

هبوط آدم إلى الأرض، وبنيانه الكعبة المشرفة وحجه وطوافه بالبيت قال الأزرقي، يرفعه إلي ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما أهبط الله عز وجل آدم عليه السلام إلى الأرض من الجنة، كان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض. وهو مثل الفلك من رعدته. قال: فطأطأ الله عز وجل منه إلى الأرض ستين ذراعا، فقال: مالي لا أسمع أصوات الملائكة ولا حسهم؟ قال: خطيئتك يا آدم، ولكن اذهب فابن لي بيتاً تطف به واذكرني حوله كنحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي، قال: فأقبل آدم عليه السلام يتخطى، فطويت له الأرض وقبضت له المفاوز، فصارت كل مفازة يمر بها خطوة، وقبض له ما كان فيها من مخاض أو بحر فجعله خطوة، ولم يقع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عمرانا وبركة حتى انتهى إلى مكة. فبنى البيت الحرام. وإن جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض فأبرز عن أس ثابت في الأرض السفلي فقذفت الملائكة فيه الصخر، ما يطيق الصخرة منها ثلاثون رجلاً. وإنه بناه من خمسة أجبل: من لبنان، وطورزيتا، وطورسينا، والجودى، وحراء، حتى استوى على وجه الأرض.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فكان أول من أسس البيت وصلى فيه وطاف به، آدم عليه السلام. حتى بعث الله سبحانه الطوفان، فدرس موضع البيت في الطوفان. حتى بعث الله تبارك وتعالى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فرفعا قواعده وأعلامه. ثم بنته قريش بعد ذلك. وهو بحذاء البيت المعمور، لو سقط، ما سقط إلا عليه.

وقال أبو الوليد أيضا، ورفعه إلى وهب بن منبه: إن الله تبارك وتعالى لما تاب على آدم عليه السلام، أمره أن يسير إلى مكة. فطوى له الأرض وقبض له المفاوز، فصارة كل مفازة يمر بها خطوة، وقبض له ما كان فيها من مخاض ماء أو بحر فجعله له خطوة. فلم يضع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عمرانا وبركة حتى انتهى إلى مكة. وكان قبل ذلك قد اشتد بكاؤه وحزنه لما كان فيه من عظم المصيبة، حتى إن كانت الملائكة لتحزن لحزنه

ولتبكي لبكائه. فعزاه الله عز وجل بخيمة من خيام الجنة، ووضعها له بمكة في موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة. وتلك الخيمة ياقوتة حمراء من ياقوت الجنة: فيها ثلاث قناديل من ذهب من تبر الجنة، فيها نور يتلهب من نور الحنة. ونزل معها الركن، وهو يومئذ ياقوتة بيضاء من ربض الجنة. وكان كرسيا لآدم عليه السلام، يجلس عليه. فلما صار آدم بمكة، حرسها الله تعالى، حرسه الله تعالى وحرس تلك الخيمة بالملائكة كانوا يحرسونها ويذودون عنها ساكن الأرض، وساكنوها يومئذ الجن والشياطين، فلا ينبغي لهم أن ينظروا إلى شيء من الجنة، لأنه من نظر إلى شيء من الجنة وجبت له. والأرض يومئذ طاهرة نقية لم تنجس ولم يسفك فيها الدم، ولم تعمل فيها الخطايا.

فلذلك جعلها الله عز وجل مسكن الملائكة، وجعلهم فيها كما كانوا في السماء يسبحون الليل والنهار، لا يفترون. وكان وقوفهم على أعلام الحرم صفاً واحداً مستديرين بالحرم كله: الحل من خلفهم، والحرم كله من أمامهم. ولا يجوزهم جني ولا شيطان. ومن أجل مقام الملائكة حرم الحرم حتى اليوم.
ووضعت أعلام حيث كان مقام الملائكة. وحرم الله على حواء دخول الحرم والنظر إلى خيمة آدم من أجل خطيئتها التي أخطأت في الجنة. فلم تنظر إلى شيء من ذلك حتى قبضت.
وإن آدم عليه السلام كان إذا أراد لقاءها ليلم بها للولد، خرج من الحرم كله حتى يلقاها، فلم تزل خيمة آدم مكانها حتى قبض الله آدم عليه السلام ورفعها الله. وبنى بنو آدم بها من بعدها مكانا: بيتا بالطين والحجارة. فلم يزل معمورا، يعمرونه ومن بعدهم حتى كان زمن نوح عليه السلام. فنسفه الغرق وخفي مكانه.
فلما بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام طلب الأساس، فلما وصل إليه ظلل الله مكان البيت بغمامة. فكانت حفاف البيت الأول، ثم لم تزل راكزة على حفافه تظل إبراهيم عليه السلام وتهديه مكان القواعد حتى رفع الله القواعد قامة. ثم انكشفت الغمامة، فذلك قوله تعالى: "وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت" أي الغمامة التي ركزت على الحفاف لتهديه مكان القواعد.
وعن وهب بن منبه أنه قال: قرأت في كتاب من الكتب الأول، ذكر فيه أمر الكعبة، فوجدت فيه أن ليس من الملائكة بعثه الله تعالى إلى الأرض إلى أمره بزيارة البيت. فينقض من عند العرش محرماً ملبياً، حتى يستلم الحجر. ثم يطوف في البيت سبعا ويركع في جوفه ركعتين، ثم يصعد.
وقال الأزرقي، يرفعه إلأى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما أهبط الله آدم إلى الأرض، أهبطه إلى موضع البيت الحرام. وهو مثل الفلك من رعدته. ثم أنزل عليه الحجر الأسود يعني الركن، وهو يتلألأ من شدة بياضه. فأخذه آدم صلى الله عليه وسلم فضمه إليه أنساً به. ثم أنزلت عليه العصى فقيل له: تخط يا آدم، فتخطى، فإذا هو بأرض الهند والسند. فمكث هناك ما شاء الله، ثم استوحش إلى الركن فقيل له: احجج، قال فحج فلقيته الملائكة فقالوا: بر حجك يا آدم، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألف عام.
قال: وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه كعب الأحبار فقال: أخبرني عن البيت الحرام. فقال كعب: أنزله الله من السماء ياقوتة مجوفة مع آدم، فقال له: يا آدم إن هذا بيتي أنزلته معك، يطاف حوله كما يطاف حول عرشي، ويصلى حوله كما يصلى حول عرشي.
ونزلت معه الملائكة فرفعوا قواعده من حجارة ثم وضعوا البيت عليه. فكان آدم يطوف حوله كما يطاف حول العرش، ويصلي عنده كما يصلى عند العرش. فلما أغرق الله تعالى قوم نوح، رفعه إلى السماء وبقيت قواعده.

وقال وهب بن منبه: كان البيت الذي بوأه الله تعالى لآدم عليه السلام يومئذ من ياقوت الجنة. وكان من ياقوتة حمراء تلتهب، لها بابان: أحدهما شرقي والآخر غربي. وكان فيه قناديل من نور آنيتها ذهب من تبر الجنة. وهو منظوم بنجوم من ياقوت أبيض. والركن يومئذ نجم من نجومه وهو يومئذ ياقوتة بيضاء. والله أعلم

فضل البيت الحرام

قال أبو الوليد، برفعه عن وهب بن منبه أنه قال: إن آدم لما أهبط إلى الأرض استوحش فيهاما رأى من سعتها ولم ير فيه أحداً غيره، فقال: يا رب، أما لأرضك هذه من عامر يسبحك فيه ويقدس لك غيري؟ قال: إني سأجعل فيها من ذريتك من يسبح بحمدي ويقدس لي، وسأجعل فيها بيوتاً ترفع لذكري ويسبحني فيها خلقي، وسأبوئك فيها بيتاً أختاره لنفسي، وأخصه بكرامتي، وأوثره على بيوت الأرض كلها باسمي، فأسميه بيتي، وأنطعه بعظمتي، وأخوزه بحرماتي، وأجعله أحق بيوت الأرض كلها وأولاها بذكرى، وأضعه في البقعة التي اخترت لنفسي، فأني اخترت مكانه يوم خلقت السماوات والأرض؛ وقبل ذلك قد كان بعيني: فهو صفوتي من البيوت، ولست أسكنه، وليس ينبغي لي أن أسكن البيوت؛ ولا ينبغي أن تسعني، ولكن على كرسي الكبرياء والجبروت؛ وهو الذي استقل بعزتي، وعليه وضعت عظمتي وجلالي، وهناك استقر قراري؛ ثم هو بعد ضعيف عني لولا قوتي؛ ثم أنا بعد ذلك ملء كل شيء، وفوق كل شيء، ومحيط بكل شيء، وأمام كل شيء، وخلف كل شيء، وليس ينبغي لشيء أن يعلم علمي ولا يقدر قدرتي، ولا يبلغ كنه شاني. أجعل ذلك البيت لك ولمن بعدك حرماً وأمناً، أحرم بحرماته ما فوقه وما تحته وما حوله. فمن حرمه بحرمتي فقد عظم حرماتي، ومن أحله فقد أباح حرماتي، ومن أمن أهله فقد استوجب بذلك أماني، ومن أخافهم أخفرني في ذمتي، ومن عظم شأنه عظم في عيني، ومن تهاون به صغر في عيني؛ ولكل ملك حيازة ما حواليه مما حواليه، وبطن مكة خيرتي وحيازتي؛ وجيران بيتي وعمارها وزوارها، وفدي وأضيافي، في كنفي وأفنيتي، ضامنون على ذمتي وجواري؛ فأجعله أول بيت وضع للناس، وأعمره بأهل السماء وأهل الأرض: يأتونه أفواجا شعثا غبرا على كل ضامر يأتين من كل فج عميق، يعجون بالتكبير عجيجا، ويرجون بالتلبية رجيجا، وينتحبون بالبكاء نحيبا، فمن اعتمره لا يريد غيره، فقد زارني ووفد إلي ونزل بي؛ ومن نزل بي، فحقيق علي أن أتحفه بكرامتي؛ وحق على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه، وأن يسعف كل واحد منهم بحاجته. تعمره يا آدم ما كنت حيا، ثم تعمره من بعدك الأمم والقرون والأنبياء: أمة بعد أمة، وقرن بعد قرن، ونبي بعد نبي، حتى ينتهي ذلك إلى نبي من ولدك وهو خاتم النبين، فأجعله من عماره وسكانه وحماته، وولاته وسقاته. يكون أميني عليه ما كان حيا. فإذا

انقلب إلي، وجدني قد ذخرت له من أجره وفضيلته ما يتمكن به القربة مني والوسيلة إلي، وأفضل المنازل في دار المقام. وأجعل اسم ذلك البيت وذكره وشرفه ومجده وثناءه ومكرمته لنبي من ولدك يكون قبل هذا النبي وهو أبوه يقال له إبراهيم، أرفع له قواعده، وأقضي على يديه عمارته، وأنبط له سقايته، وأريه حله وحرمه ومواقفه، وأعلمه مشاعره ومناسكه، وأجعله أمة واحدة قانتا لي، قائما بأمري، داعيا إلى سبيلي؛ أجتبيه وأهديه إلى صراط مستقيم؛ أبتليه فيصبر، وأعافيه فيشكر؛ وينذر لي فيفي؛ ويعدني فينجز؛ أستجيب له في ولده وذريته من بعده وأشفعه فيهم وأجعلهم أهل ذلك البيت وولاته وحماته وسقاته وخدامه وخزانه وحجابه حتى يبتدعوا ويغيروا؛ فإذا فعلوا ذلك فأنا الله أقدر القادرين على أن أستبدل من أشاء بمن أشاء. أجعل إبراهيم إمام أهل ذلك البيت وأهل تلك الشريعة، يأتم به من حضر تلك المواطن من جميع الأنس والجن؛ يطئون فيها أثاره، ويتبعون فيها سنته، ويقتدرون فيها بهديه. فمن فعل ذلك منهم أوفى نذره ، واستكمل نسكه؛ ومن لم يفعل ذلك منهم ضيع نسكه، وأخطأ بغيته. فمن سأل عني يومئذ في تلك المواطن: أين أنا؟ فأنا مع الشعث الغبر الموفين بنذورهم المستكملين مناسكهم، المبتهلين إلى ربهم الذي يعلم ما يبدون وما يكتمون. وليس هذا الخلق ولا هذا الأرمر الذي قصصت عليك شأنه؛ يا آدم، بزائدي في ملكي ولا عظمتي ولا سلطاني ولا شيء مما عندي إلا كما زادت قطرة من رشاش وقعت في سبعة أبحر تمدها من بعدها سبعة أبحر لا تحصى، بل القطرة أزيد في البحر من هذا الأمر في شيء مما عندي. ولو لم أخلقه لم ينتقص شيء من ملكي ولا عظمتي ولا مما عندي من الغناء والسعة، إلا كما نقصت الأرض ذرة وقعت من جميع ترابها وجبالها وحصاها ورمالها وأشجارها، بل الذرة أنقص للأرض من هذا الأمر لو لم أخلقه. ليس مما عندي ويعد هذا مثل للعزيز الحكيم.

طواف سفينة نوح (ع) بالبيت

قال أبو الوليد الأزرقي، ورفعه إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان مع نوح عليه السلام في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم، وإنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يوما، وإن الله جل ثناءه وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً، ثم وجهها إلى الجودي فاستقرت عليه.

وقال عن مجاهد: كان موضع الكعبة قد خفي ودرس الزمن الغرق فيما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام. فكان موضعه أكمة حمراء مدورة، لا تعلوها السيول. غير أن الناس يعلمون أن موضع البيت فيما هنالك ولا يثبت موضعه. وكان يأتيه المظلوم والمبعود من أقطار الأرض، ويدعو عنده المكروب. فقل من دعا هنالك، إلا أستجيب له. وكان الناس يحجون إلى مكة، إلى موضع البيت، حتى بوأ الله تعالى مكانه لإبراهيم عليه السلام. فلم يزل

منذ أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض معظما محرما تتناسخه الأمم والملل أمة بعد أمة، وملة بعد ملة. قال: وكانت الملائكة تحجه قبل آدم عليه السلام.

تخير إبراهيم عليه السلام موضع البيت

قال عثمان بن ساج: بلغنا "والله أعلم" أن إبراهيم خليل الله عليه السلام عرج به إلى السماء فنظر إلى الأرض، مشارقها ومغاربها، فاختار موضع الكعبة. فقالت له الملائكة: يا خليل الرحمن اخترت حرم الله في الأرض، قال: فبناه من حجارة سبعة أجبل "ويقولون خمسة". وكانت الملائكة تأتي بالحجارة إلى إبراهيم عليه السلام من تلك الجبال.

حج إبراهيم عليه السلام واذانه بالحج

وحج الأنبياء بعده وطوافهم

قال أبو الوليد عن محمد بن إسحاق: لما فرغ إبراهيم خليل الرحمن من بناء البيت الحرام، جاءه جبريل عليه السلام فقال: طف به سبعاً، فطاف به سبعا، هو وإسماعيل. يستلمان الأركان كلها في كل طواف، فلما أكملا سبعا صليا خلف المقام ركعتين. قال: فقام معه جبريل فأراه المناسك كلها: الصفا والمروة ومنى ومزدلفة وعرفة. فلما دخل منى وهبط من العقبة، مثل له إبليس عند جمرة، فقال له جبريل: ارمه، فرماه إبراهيم بسبع حصيات،

فغاب عنه؛ ثم برز له عند الجمرة السفلى، فقال له جبريل: ارمه، فرماه بسبع حصيات مثل حصى الخذف، فغاب عنه ابليس؛ ثم مضى إبراهيم في حجه وجبريل يوقفه على المواقف ويعلمه المناسك حتى انتهى إلى عرفة . فلما انتهى إليها، قال له جبريل: أعرفت مناسكك؟ قال: نعم، قال: فسميت عرفات بذلك.قال: ثم أمر إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج، فقال إبراهيم: يا رب وما يبلغ صوتي؟ قال الله جل ثناؤه: أذن، وعلي البلاغ، قال: فعلا إبراهيم على المقام فأشرف به حتى صار أرفع الجبال وأطولها فجمعت له الأرض يومئذ: سهلها، وجبلها، وبرها، وبحرها، وإنسها، وجنها حتى أسمعهم جميعاً، فأدخل إصبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا وبدأ بشق اليمين فقال: أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق، فأجيبوا ربكم فأجابوه من تحت التخوم السبعة، ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب من أقطار الأرض كلها: " لبيك،

اللهم لبيك" . قال: وكانت الحجارة على ما هي اليوم،إلا أن الله عز وجل أراد أن يجعل المقام آية. فكان أثر قدميه في المقام آية إلى اليوم. قال: أفلا تراهم اليوم يقولون: "لبيك، اللهم لبيك". فكل من حج إلى اليوم فهو ممن أجاب إبراهيم. وأثر قدمي إبراهيم في المقام آية.

وذلك قوله تعالى: "فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا". قال ابن إسحاق: وبلغني أن آدم عليه السلام كان استلم

الأركان كلها قبل إبراهيم، حجه وإسحاق وسارة من الشام.
قال: وكان إبراهيم يحجه كل سنة على البراق. قال: وحجت بعد ذلك الأنبياء والأمم.
وعن مجاهد، قال: حج إبراهيم وإسماعيل، ماشيين. وعن عبد الله بن ضمرة السلولي: ما بين الركن إلى المقام إلى زمزم قبر تسعة وتسعين نبياً جاءوا حجاجا فقبروا هنالك.
وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان النبي من الأنبياء إذا هلكت أمته لحق بمكة فتعبد بها النبي ومن معه حتى يموت. فمات بها: نوح، وهود، وصالح، وشعيب. وقبورهم بين زمزم والحجر. وعن مجاهد: حج موسى النبي عليه السلام على جمل. فمر بالروحاء عليه عباءتان وقطوانيتان متزر بإحداهما، مرتد بالأخرى. فطاف في البيت ثم سعى بين الصفا والمروة. فبينما هو يلبي بين الصفا والمروة، إذ سمع صوتا من السماء يقول: "لبيك عبدي، أنا معك" قال: فخر موسى ساجداً.
وعن عروة بن الزبير رضي عنهما قال: بلغني أن البيت وضع لآدم يطوف به ويعبد الله عنده وأن نوحاً قد حجه وجاءه وعظمه قبل الغرق. فلما أصاب البيت ما أصاب الأرض من الغرق فكان ربوة حمراء معروفاً مكانه؛ فبعث الله هوداً إلى عاد، فتشاغل بأمر قومه حتى هلك ولم يحجه. ثم بوأه الله تعالى لإبراهيم عليه السلام فحجه وأعلم مناسكه ودعا إلى زيارته. ثم لم يبعث الله نبياً بعد إبراهيم، إلا حجه.
وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لقد سلك فج الروحاء سبعون نبياً، حجاجاً: عليهم لباس الصوف، مخطمي إبلهم بحبال الليف. ولقد صلى في مسجد الخيف سبعون نبياً.
وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لقد مر بفج الروحاء :" أو لقد مر بهذا الفج" سبعون نبياً على نوق حمر خطمها الليف، لبوسهم الغباء وتلبيتهم شتى. فمنهم يونس بن متى. فكان يونس يقول: " لبيك فراج الكرب، لبيك"؛ وكان موسى يقول: " لبيك، أنا عبدك لديك،لبيك" قال : وتلبية عيسى: " لبيك، أنا عبدك ابن أمتك بنت عبديك، لبيك".
وعن عطاء بن إبراهيم رأى رجلاً يطوف بالبيت فأنكره، فسأله: ممن أنت؟ فقال: من أصحاب ذي القرنين، قال: وأين هو؟ قال: هو بالأبطح.فتلقاه إبراهيم عليه السلام فاعتنقه، فقال لذي القرنين: ألا تركب؟ قال: ما كنت لأركب، وهذا يمشي، فحج ماشياً.
مسألة إبراهيم عليه السلام الأمن والرزق لأهل مكة والكتب التي وجد فيها تعظيم الحرم
قال أبو الوليد الأزرقي: يرفعه إلى محمد بن كعب القرظي أنه قال: دع إبراهيم عليه السلام للمؤمنين، وترك الكفار لم يدع لهم بشيء، فقال الله تعالى: "ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى النار وبئس المصير".

وقال عثمان بن ساج: وأخبرني محمد بن السائب الكلبي قال: قال إبراهيم عليه السلام "ورب اجعل هذا البلد آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر". فاستجاب الله عز وجل له فجعله بلدا آمنا وآمن في الخائف ورزق أهله من الثمرات، تحمل إليهم من الآفاق.
وقال مجاهد: جعل الله هذا البلد آمنا، لا يخاف فيه من دخله.
وقال سعيد بن السائب بن يسار: لما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة أن يرزق أهلها من الثمرات، نقل الله أرض الطائف من الشام فوضعها هنالك: رزقا لحرم. وروي عن محمد بن المنكدر، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لما وضع الله الحرم نقل له الطائف من الشام. وعن الزهري أن الله نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف، لدعوة إبراهيم خليل الله: "وارزق أهله من الثمرات".
وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: جاء إبراهيم يطالع إسماعيل عليهما السلام فوجده غائبا، ووجد امرأته الآخرة، وهي السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي. فوقف وسلم فردت السلام واستنزلته وعرضت عليه الطعام والشراب، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم والماء، قال: هل من حب أو غيره من الطعام؟ قالت: لا، قال: بارك الله لكم في اللحم والماء.
قال ابن عباس رضي اله عنهما: يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو وجد عندها يومئذ حبا لدعا لهم بالبركةفيه، فكانت تكون أرضا ذات زرع. وعن سعيد بن جبير مثله، وزاد فيه: ولا يخلو أحد من اللحم والماء في غير مكة إلا وجع بطنه؛ وإن خلا عليهما بمكة لم يجد لذلك أذى.
وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وجد في المقام كتاب فيههذا بيت الله الحرام بمكة، توكل الله برزق أهله من ثلاث سبل، مبارك لأهله في اللحم واللبن ووجد في حجر في الحجر كتاب من خلقة الحجر أنا الله ذو بكة الحرم صغتها يوم صغت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها مبارك لأهلها في اللحم والماء.
وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما هدموا البيت وبلغوا أساس إبراهيم عليه السلام وجدوا في حجر من الأساس كتاباً، فدعوا له رجلا من أهل اليمن، وآخر من الرهبان، فإذا فيه: أنا الله ذو بكة حرمتها يوم خلقت السماوات والأرض والشمس والقمر ويوم صغت هذين الجبلين وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها مبارك لأهلها في الماء واللبن.
وعن مجاهد رضي الله عنه قال: وجد في بعض الزبور أما الله ذو بكة جعلتها بين هذين الجبلين وصغتها يوم صغت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء وجعلت رزق أهلها من ثلاث سبل فليس يوتا أهل مكة إلا من ثلاثة طرق أعلى الوادي وأسفله وكدى وباركت لأهلها في اللحم والماء.

أسماء الكعبة ومكة
عن ابن أبي نجيح قال: إنما سميت الكعبة لأنها مكعبة على خلقة الكعب. قال:وكان الناس يبنون بيوتهم مدورة تعظيم للكعبة. فأول من بنى بيتاً مربعاً حميد بن زهير، فقالت قريش: ربع حميد بن زهير بيتاً، إما حياتاً إما موتاً.
وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: إنما سميت بكة لأنه يجتمع فيها الرجال والنساء جميعاً. وقالوا: بكة موضع البيت، ومكة القرية.
وقال ابن أبي أنيسة: بكة موضع البيت، ومكة هو الحرم كله.
وكان ابن جريج يقول: إنما سميت بكة لتباك الناس بأقدامهم قدام الكعبة. ويقال: إنما سميت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة.
وعن الزهري: أنه بلغه إنما سمي البيت العتيق من أن الله تعالى أعتقه من الجبابرة. وعن مجاهد والسدي: إنما سمي البيت العتيق الكعبة، أعتقها الله من اجبابرة؛ فلا يتجبرون فيه إذا طافوا. وكان البيت يدعى قادسا ويدعى بادرا ويدعى القرية القديمة ويدعى البيت العتيق.
وعن مجاهد قال: من أسمائها مكة وبكة وأم رحم وأم القرى وصلاح وكوثى والباسة. وعن ابن أبي نجيح قال: بلغني أن أسماء مكة مكة؛ وبكة؛ وأم رحم؛ وأم القرى؛ والباسة؛ والبيت العتيق؛ والحاطمة: "تحطم من يستخف بها"؛ والناسة "تنسهم، أي تخرجهم إخراجا إذا غشموا وظلموا".د
في فضل الركن الأسود
عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ليس في الأرض من الجنة إلا الركن الأسود والمقام، فإنهما جوهرتان من جواهر الجنة؛ ولولا ما مسهما من أهل الشرك ما مسهما ذو عاهة إلا شفاه الله عز وجل. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال في الركن الأسود: لولا ما مسه من أنجاس الجاهلية وأرجاسهم، ما مسه ذو عاهة إلا برأ، وقال: نزل الركن، وإنه لأشد بياضا من الفضة.
وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضي الله عنها، وهي تطوف معه بالكعبة حين استلم الركن: لولا ما طبع على هذا الحجر، ياعائشة،من أرجاس الجاهلية وأنجاسها، إذن لا ستشفي به من كل عاهة، وإذن لألفي كهيئته يوم أنزله الله، وليعيدنه الله إلى ما خلقه أول مرة، وإنه لياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة، ولكن الله غيره بمعصية العاصين، وستر زينته عن الظلمة والأثمة لأنهم لا ينبغي لهم أن ينظروا إلى شيء كان بدؤه من الجنة.
وعنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الله يبعث الركن الأسود، وله عينان يبصر بهما، ولسان ينطق به: يشهد لمن استلمه بحق. وعنه رضي الله عنه: الركن يمين الله في الأرض: يصافح بها عباده كما يصافح أحدكم أخاه.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرجنا مع عمر بن الحطاب رضي الله عنه إلى مكة. فلما دخلنا الطواف، قام عند الحجر وقال: والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك. ثم قبله ومضى في الطواف فقال له علي رضي الله عنه: بل يا أمير المؤمنين هو يضر وينفع، قال: وبم قلت ذلك؟ قال: بكتاب الله، قال: وأين ذلك من كتاب الله؟ قال: قال الله عز وجل: "وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا". فلما خلق الله تعالى آدم مسح ظهره وأخرج ذريته من صلبه فقررهم أنه الرب وهم العبيد، ثم كتب ميثاقهم في رق، وكان هذا الحجر له عينان ولسان، فقال له: افتح فاك، فألقمه ذلك الرق وجعله في هذا الموضع، وقال: تشهد لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة، فقال عمر: أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم، يا أبا الحسن.
وعن عكرمة: أن الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن لم يدرك بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح الركن فقد بايع الله ورسوله.
وعن مجاهد: يأتي الركن والمقام يوم القيامة، وكل واحد منهما مثل أبو قبيس: يشهدان لمن وافاهما بالموافاة.
والله أعلم.
فضل استلام الركن الأسود، واليماني
عن عطاء بن السائب أن عبيد بن عمير قال لابن عمر رضي الله عنهما: إني أراك تزاحم على هذين الركنين، فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن استلامهما يحط الخطايا حطا.
وسئل رضي الله عنه، فقيل له: إنا نراك تفعل خصالا أربعا لا يفعلها الناس: نراك لا تستلم من الأركان إلا الحجر والركن اليماني، ونراك لا تلبس من النعال إلا السبتية، ونراك تصفر شعرك وقد يصبغ الناس بالحناء، ونراك لا تحرم حتى تستوي بك راحلتك وتوجه. فقال عبد الله: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك. وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يدع الركن الأسود واليماني أن يستلمهما في كل طواف أتى عليهما. قال: كان لا يدعهما في كل طواف طاف بهما حتى يستلمهما، لقد زاحم على الركن مرة في شدة الزحام حتى رعف، فخرج فغسل عنه ثم رجع. فعاد يزاحم فلم يصل إليه حتى رعف الثانية، فخرج فغسل عنه ثم رجع. فما تركه حتى استلم.
وعن نافع قال: لقد رأيت ابن عمر رضي الله عنهما، زاحم مرة على الركن اليماني حتى انبهر فتنحى فجلس في ناحية الطواف حتى استراح، ثم عاد فلم يدعه حتى استلمه. قالوا: وليس هذا واجبا على الناس، ولكنه كان يحب أن يصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فضل الطواف بالكعبة
عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من طاف بالبيت، كتب الله له بكل خطوة حسنة ومحا عنه سيئة. وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنهم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا خرج المرء يريد الطواف بالبيت، أقبل يريد الرحمة. فإذا دخله غمرته. ثم لا يرفع قدما ولا يضع قدما إلا كتب الله له بكل قدم خمسمائة حسنة، وحط عنه خمسمائة سيئة "أو قال خطيئة"، ورفعت له خمسمائة درجة. فإذا فرغ من طوافه فصلى ركعتين دبر المقام، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وكتب له أجر عتق عشر رقاب من ولد إسماعيل، واستقبله ملك على الركن فقال له: استأنف العمل فيما بقي فقد كفيت ما مضى، وشفع في سبعين من أهل بيته.
وعن حسان بن عطية: أن الله خلق لهذا البيت عشرين ومائة رحمة ينزلها في كل يوم، فستون منها للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين. قال حسان: فنظرنا فإذا هي كلها للطائفين هو يطوف ويصلي وينظر.
ما جاء في فضل زمزم
عن وهب بن منبه أنه قال في زمزم: والذي نفسي بيده، إنها لفي كتاب الله مضنونة، وإنها لفي كتاب الله برة، وإنها لفي كتاب الله شراب الأبرار، وإنها لفي كتاب الله طعام طعم وشفاء سقم.
وعن ابن خثيم قال: قدم علينا وهب بن منبه مكة فاشتكى، فجئناه نعوده، فإذا عنده من ماء زمزم. قال: فقلنا له. لو استعذبت، فإن هذا الماء فيه غلظ؟ قال: ما أريد أن أشرب حتى أخرج منها غيره، والذي نفس وهب بيده، إنها لفي كتاب الله زمزم لا تنزف ولا تذم، وإنها لفي كتاب الله برة شراب الأبرار، وإنها لفي كتاب الله مضنونة، وإنها لفي كتاب الله طعام من طعم وشفاء من سقم، والذي نفس وهب بيده لا يعمد أحد إليها فيشرب منها حتى يتضلع إلا نزعت منه داء أو أحدثت له شفاء.
وعن كعب أنه قال لزمزم:إنا نجدها مضنونة ضن بها لكم، وإن أول من سقي ماءها إسماعيل عليه السلام، طعام من طعم، وشفاء من سقم.
وعن مجاهد قال: ماء زمزم لما شرب له، إن شربته تريد به شفاءً شفاك الله، وإن شربته للظمأ أرواك الله، وإن شربته لجوع أشبعك الله، وهي هزمة جبريل عليه السلام بعقبه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق.
وعن الضحاك بن مزاحم أنه قال: بلغني أن التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق، وأن ماءها يذهب بالصداع، وأن التطلع فيها يجلو البصر، وأنه سيأتي عليها زمان تكون أعذب من النيل والفرات. قال: قال لنا الخزاعي: وقد رأينا ذلك في سنة إحدى

أو اثنتين وثمانين ومائتين، وذلك أنه أصاب مكة أمطار كثيرة وسال واديها في سنة تسع وسبعين، وسنة ثمانين ومائتين، فكثر ماء زمزم وارتفع حتى قارب رأسها، فلم يكن بينه وبين شفتها العليا إلا سبع أذرع أو نحوها. وعذبت حتى كان ماؤها أعذب مياه مكة التي يشربها أهلها. وإنا رأيناها أعذب من مياه العيون.

وعن الضحاك بن مزاحم أيضا أن الله عز وجل يرفع المياه العذاب قبل يوم القيامة غير زمزم، وتغور المياه العذبة غير زمزم.

اتساع منىً أيام الحج

ولم سميت منىً

عن أبي الطفيل، قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يسأل عن منى، ويقال له: عجباً لضيقه في غير أيام الحج! فقال ابن عباس: إن منى يتسع بأهله كما يتسع الرحم للولد.

وعن ابن عباس، قال: إنما سميت منى منىً لأن جبريل حين أراد أن يفارق آدم، قال له. تمن، قال: أتمنى الجنة، فسميت منى لتمني آدم. وقيل إنما سميت منى لمنى الدماء بها.

في فضائل مقبرة مكة

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: نعم المقبرة هذه! "لمقبرة أهل مكة".

وعن محمد بن عبد الله بن صيفي أنه قال: من قبر في هذه المقبرة، بعث آمنا يوم القيامة "يعني مقبرة مكة".

من خصائص مكة

من خصائصها أن الذئب فيها يروع الظبي ويعارضه ويصيده. فإذا دخل الحرم، كف عنه. ومنها أنه لا يسقط على الكعبة حمام إلا إن كان عليلا؛ وأن عادة الطير إذا حاذت الكعبة أن تفترق فرقتين ولا تعلوها. والله أعلم.

وأما المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ففضائلها أوسع من أحصرها، وأعظم من أن أسبرها، ناهيك بها من بلد اختاره الله تعالى لرسوله، ونص على فضله في محكم تنزيله، قال الله عز وجل: " لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه".

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل: أي مسجد هو؟ فقال: مسجدي هذا، وهو قول ابن المسيب وزيد بن ثابت وابن عمر رضي الله تعالى عنهم، وبه أخذ مالك رحمه الله. وقال ابن عباس: هو مسجد قباء.

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام. قال القاضي عياض رحمه الله: إختلف الناس في معنى هذا الاستثناء على اختلافهم في المفاضلة بين مكة والمدينة. فذهب مالك أن الصلاة في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم أفضل من الصلاة في سائر

المساجد بألف صلاة إلا المسجد الحرام، فإن الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من الصلاة فيه بدون الألف. واحتج مالك وأشهب وابن نافع وجماعة أصحابه بما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه صلاة في المسجد الحرام خير من مائة صلاة فيما سواه فتأتي فضيلة مسجد الرسول عليه بتسعمائة وعلى غيره بألف. وهذا مبنى على تفضيل المدينة على مكة، وهو قول عمر بن الخطاب ومالك وأكثر المدنيين. وذهب أهل مكة والكوفة إلى تفضيل مكة. وهو قول عطاء وابن وهب وابن حبيب، من أصحاب مالك. وحكاه الباجي عن الشافعي. قال القاضي أبو الوليد الباجي: الذي يقتضيه الحديث محالفة حكم مكة لسائر المساجد،ولا يعلم منه حكمها مع المدينة. قال القاضي عياض: ولا خلاف أن موضع قبر النبي صلى الله عليه وسلم أفضل بقاع الأرض.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة. قالوا: هذا يحتمل معنيين، "أحدهما". أنه موجب لذلك وأن الدعاء والصلاة فيه تستحق ذلك من الثواب كما قيل: الجنة تحت ظلال السيوف. "والثاني" أن تلك البقعة قد ينقلها الله فتكون في الجنة بعينها. قاله الداوديز.

وروي ابن عمرو جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في المدينة:لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد، إلا كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة. وقال صلى الله عليه وسلم فيمن تحمل عن المدينة: والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون. وقال: إنما المدينة كالكير: تنفي خبثها وتنصع طيبها. وقال: لا يخرج أحد من المدينة رغبة إلا أبدلها الله خيراً منه.

وعنه صلى عليه وسلم: من مات في أحد الحرمين حاجا أو معتمرا، بعثه الله يوم القيامة لا حساب عليه ولا عذاب. وفي طريق آخر: بعث من الآمنين يوم القيامة. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: من استطاع أن يموت بالمدينة، فليمت بها فإني أشفع لمن يموت بها.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه صلى الله عليه وسلم طلع له أحد فقال: هذا جبل يحبنا ونحبه. اللهم إن إبراهيم حرم ما بين لابتيها. وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد، وانقل حماها إلى الجحفة، اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا. ودعا النبي صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة فقال: اللهم بارك لهم في ميكالهم، وبارك لهم في صاعهم ومدهم،،.

وقال صلى الله عليه وسلم: من زار قبري، وجبت له شفاعتي. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من زارني في المدينة محتسبا، كان في جواري وكنت له شفيعا يوم القيامة.

وكان مالك رحمه الله لا يركب في المدينة دابة، ويقول: أستحي من الله أن أطأ تربة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة. وروي أنه وهب للشافعي كراعا كثيرا، فقال له الشافعي: أمسك منها دابة. فأجابه بمثل هذا الجواب.
وحكى القاضي عياض في كتاب الشفاء قال: حدث أن أبا الفضل الجوهري لما ورد المدينة زائرا وقرب منها، ترجل ومشى باكيا منشدا:

ولما رأينا رسم من لم يدع لنا فؤاداً لعرفان الرسوم ولا لبا،
نزلنا عن الأكوار نمشي، كرامة لمن بان عنه أن يلم به ركبا.

قال: وحكي بعض المريدين أنه لما أشرف على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنشأ يقول متمثلا:

رفع الحجاب لنا فلاح لناظر قمر تقطع دونه الأوهام.
وإذا المطي بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام.
قربننا من خير من وطئ الثرى، فلها علينا حرمة وذمام.

وأفتى مالك رحمه الله فيمن قال تربة المدينة ردية بضرب ثلاثين درة، وأمر بحبسه؛ وكان له قدر. وقال: ما أحوجه إلى ضرب عنقه، تربة دفن فيها النبي صلى الله عليه وسلم، يزعم أنها غير طيبة!.
وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في المدينة: من أحدث فيها حدثا أو آوى محدثا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا.

خصائص المدينة المشرفة وأسمائها
على صحابها أفضل الصلاة والسلام

من خصائصها، أن العطر والبخور يوجد لهما فيها من الضوع والرائحة الطيبة أضعاف ما يوجد في سائر البلاد؛ ولها في قصبتها فغمة طيبة ورائحة عطرة، وإن لم يكن فيها شيء من الطيب البته. ولهذا سميت طيبة و طابة قال الشاعر:

ماذا على من شم تربة أحمد أن لا يشم مدى الزمان غواليا؟

وهذا البيت ينسب لفاطمة الزهراء رضي الله عنها.
ومن أسمائها طيبةوطابة ويثرب والمدينة والدار.
قال القاضي غياض رحمه الله: وجدير بمواطن عمرت بالوحي والتنزيل، وتردد بها جبريل وميكائيل، عرجت منها الملائكة والروح، وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح؛ وأشملت تربتها على جسد سيد البشر، وانتشر عنها من دين الله وسنة رسوله ما انتشر؛ مدارس آيات، ومساجد جماعات وصلوات، ومشاهد الفضل والخيرات، ومعاهد البراهين والمعجزات، ومناسك الدين، ومشاعر المسلمين؛ ومواقف سيد المرسلين، ومتبوأ خاتم النبيين؛ حيث انفجرت النبوة، وأين فاض عابها، ومواطن مهبط الرسالة، وأول أرض مس جلد المصطفى ترابها: أن تعظم عرصاتها، وتتسم نفحاتها، وتقبل ربوعها وجدراتها.

وقال: يا دار خير المرسلين ومن به هدى الأنام وخص بالآيات.

عندي لأجلك لوعة وصبابة وتشوق متوقد الجمرات.
وعلى عهد إن ملأت محاجري من تلكم الجدارات والعرصات،
لأغفرن مصون شيبي بينها من كثرة التقبيل والرشفات.
لولا العوادي والأعادي، زرتها أبداً ولو سحباً على الوجنات.
لكن سأهدي من حفيل تحيتي لقطين تلك الدار والحجرات.
أذكى من المسك المفتق نفحة تغشاه بالأصال والبكرات.
وتخصه بزواكي الصلوات ونوامي التسليم والبركات.

وأما البيت المقدس، والمسجد الأقصى

فالبيت المقدس أحد القبلتين، والمسجد الأقصى ثالث الحرمين. إليه تشد الرجال، ويكثر النزول والارتحال؛ وفي الأرض المقدسة تحشر الخلائق يوم العرض، ويبسط الله تعالى الصخرة الشريفة حتى تكون كعرض السماء والأرض؛ وتجتمع الناس هناك لفصل الحساب، ويضرب بينهم بسور له باب، باطنة فيه الرحمة وظاهرة من قبله العذاب.

ولنبدأ بذكر الأرض المقدسة

قال الله عز وجل إخبارا عن موسى عليه السلام: "يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم". قال الزجاج: والمقدسة المطهرة.

وقيل للسطل القدس لأنه يتطهر منه. وسمي بيت المقدس لأنه يتطهر فيه من الذنوب. وقيل: سماها مقدسة لأنها طهرت من الشرك وجعلت مسكنا للأنبياء والمؤمنين.

وقد اختلف في الأرض المقدسة ما هي؟ فذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أنها أريحا. وقال السدي: أريحا هي أرض بيت المقدس. وقال مجاهد: هي الطور وما حوله. وقال الضحاك: هي إيلياء وبيت المقدس. وقال الكلبي: دمشق وفلسطين وبعض الأردن. وقال قتادة: هي الشام كلها.

وقال عبد الله بن عمر: والحرم محرم مقداره من السماوات والأرض، وبيت المقدس مقدس مقداره من السماوات والأرض. وقال ابن قتيبة. وقرأت في مناجاة موسى عليه السلام أنه قال: اللهم إنك اخترت من الأنعام الضائنة، ومن الطير الحمامة، ومن البيوت مكة وإيلياء، ومن إيلياء بيت المقدس.

وقال الله تعالى: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله".

والمسجد الأقصى بيت المقدس سمي أقصى لأنه أبعد المساجد التي تزار. وقيل: لبعد المسافة بين المسجدين. وقوله عز وجل" الذي باركنا حوله" قيل: بالماء والأنهار والأشجار والثمار. وقال مجاهد: سماه مباركا لأنه مقر الأنبياء، وفيه مهبط الملائكة والوحي، وهو الصخرة، ومنه يحشر الناس يوم القيامة.

وقال تعالى: "والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين". قال الثعلبي في تفسيره: قال كعب الأحبار وقتادة وابن زيد

وعبد الرحمن بن غنم: "التين مسجد دمشق، والزيتون بيت المقدس". وقال الضحاك: هما مسجدان بالشام". وقال محمد بن كعب: "التين مسجد أصحاب الكهف، والزيتون مسجد إيلياء". ومجازه على هذا التأويل: منابت التين والزيتون.
وروى عطية عن ابن عباس: "التين مسجد نوح عليه السلام الذي بني على الجودي، والزيتون بيت المقدس".
وروى نهشل عن الضحاك: "التين المسجد الحرام، والزيتون المسجد الأقصى" قال: "وطور سينين، يعني جبل موسى عليه السلام". قال عكرمة: "السينين الحسن بلغة الحبشة". وعنه : كل جبل ينبت فهو سينين . وقال مجاهد: "الطور الجبل، وسينين المبارك". وقال قتادة: "المبارك الحسن".
وقال مقاتل: "كل جبل فيه شجر، وسيناء وهو بلغة النبط".
وقال الكلبي: "يعني الجبل المشجر". وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "أربعة أجبال مقدسة بين يدي الله تعالى: طور تينة، وطور زيتا، وطور سينا، وطور تيمانا. فأما طور تينة: فدمشق. وأما طور زيتا: فبيت المقدس. وأما طور سينا: فهو الذي كان عليه موسى عليه السلام. وأما طور تيمانا: فمكة. "والبلد الأمين مكة بلا خلاف".
ومسجد بيت المقدس أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما ورد في الصحيح: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى". وفي الصحيح أيضاً "أن موسى عليه السلام، لما حضرته الوفاة سأل الله تعالى أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر". وكانت عمارة مسجد البيت المقدس بأمر الله عز وجل لنبيه داود عليه السلام أن يعمره ثم لم يقدر له عمارته وقدر الله تعالى ذلك على يدي سليمان بن داود عليهما السلام، فهو الذي عمره. وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى مبينا في الفن الخامس في التاريخ.
وقد وردت آثار وأحاديث في فضل بيت المقدس، وفضل زيارته، وثواب الصلاة فيه، ومضاعفة الحسنات والسيئات فيه،وفضل السكنى فيه، والإقامة به، والوفاة فيه، وما به من قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومحراب داود، وعين سلوان، وما ورد في أن الحشر منه، وما ورد في فضل الصخرة والصلاة إلى جانبها، وما ورد من أن الله عز وجل عرج بنبيه من بيت المقدس إلى السماء،وثواب الإهلال من بيت المقدس، وما ورد من أن الكعبة تزور الصخرة يوم القيامة.
وسنذكر من ذلك طرفا تقف عليه إن شاء الله تعالى ونحذف أسانيد الأحاديث الواردة فيه رغبة في الاختصار فنقول، وبالله التوفيق:
أما فضل بيت المقدس
فقد ورد عن الزهري أنه قال: لم يبعث الله عز وجل نبيا، إلا جعل قبلته صخرة بيت المقدس. وقد صلى إليه رسول الله صلى

الله عليه وسلم بعد هجرته سبعة عشر شهرا، كما روي في الصحيحين، حتى أنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلمك "قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شكره".
وتحويل القبلة أول ما نسخ من أمور الشرع. وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يصلون بمكة إلى الكعبة. فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، أمره الله تعالى أن يصلي نحو صخرة بيت المقدس ليكون أقرب إلى تصديق اليهود إياه إذا صلى إلى قبلتهم مع ما يجدون من تعيينه في التوراة. هذا قول عامة المفسرين، على ما حكاه الثعلبي عنهم.
وقال عبد الرحمن بن زيد: قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: "فأينما تولوا فثم وجه الله"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هؤلاء يهود يستقبلون بيتا من بيوت الله. فاستقبله النبي صلى الله عليه وسلم. قالوا جميعا: فصلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه نحو بيت المقدس سبعة عشر شهرا، وكانت الأنصار قد صلت قبل بيت المقدس ستين يوما، قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم.
وكانت الكعبة أحب القبلتين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. واختلفوا في السبب الذي كان عليه الصلاة والسلام من أجله يكره قبلة بيت المقدس ويهوى قبلة الكعبة.
فقال ابن عباس رضي الله عنهما: لأنها كانت قبلة أبيه إبراهيم عليهما السلام. وقال مجاهد: من أجل أن اليهود قالوا: يخالفنا محمد في ديننا، ويتبع قبلتنا وقال مقاتل بن حيان: لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي نحو بيت المقدس، قالت اليهود: يزعم محمد أنه نبي، وما نراه أحدث في نبوته شيئا أليس يصلي إلى قبلتنا ويستسن بسننا؟ فإن كانت هذه نبوة. فنحن أقدم وأوفر نصيبا. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشق عليه وزاده شوقا إلى الكعبة. وقال ابن زيد: لما استقبل النبي صلى الله عليه وسلم نحوالبيت المقدس، بلغه أن اليهود تقول: والله ما درى محمد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم، قالوا جميعا: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل: وددت أن الله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها، فإني أبغضهم وأبغض مواقفهم، فقال جبريل: إنما أنا عبد مثلك، ليس لي من الأمر شيء، فسل ربك، فعرج جبريل. وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم النظر إلى السماء رجاء أن ينزل جبريل بما يحب من أمر القبلة. فأنزل الله عز وجل: "قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك" الآية.
فلما صرفت القبلة إلى الكعبة قال مشركو مكة: قد تردد على محمد أمره، واشتاق إلى مولده ومولد آبائه، وقد توجه نحو قبلتهم وهو راجع إلى دينكم عاجلا، وتكلم اليهود والمنفقون

في تحويلها. فأنزل الله تعالى: "سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم". وروي عن كعب أنه قال: إن الله عز وجل ينظر إلى بيت المقدس كل يوم مرتين.
وأما فضل زيارته، وفضل الصلاة فيه
فقد روي عن مكحول أنه قال: من زار بيت المقدس شوقا إليه، دخل الجنة وزاره جميع الأنبياء في الجنة وغبطوه بمنزلته من الله تعالى؛ وأيما رفقة خرجوا يريدون بيت المقدس، شيعهم آلاف من الملائكة: يستغفرون لهم ويصلونن عليهم، ولهم مثل أعمالهم إذا انتهو إلى بيت المقدس، ولهم بكل يرم يقيمون فيه صلاة سبعين ملكا؛ ومن دخل بيت المقدس طاهرا من الكبائر، تلقاه الله بمائة رحمة إلا ولو قسمت على جميع الخلائق لوسعتهم؛ ومن صلى في بيت المقدس ركعتين يقرأ فيهما بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وكان له بكل شعرة على جسده حسنة؛ ومن صلى في بيت المقدس أربع ركعات، مر على الصراط كالبرق وأعطى أمانا من الفزع الأكبر يوم القيامة؛ ومن صلى في بيت المقدس ست ركعات، أعطى مائة دعوة مستجابة، أدهانا براءة من النار، وجبت له الجنة؛ ومن صلى في بيت المقدس ثمان ركعات، كان رفيق إبراهيم خليل الرحمن؛ ومن صلى في بيت المقدس عشر ركعات، كان رفيق داود وسليمان في الجنة؛ ومن استغفر للمؤمنين والمؤمنات في بيت المقدس ثلاث مرات، كان له مثل حسناتهم، ودخل على كل مؤمن ومؤمنة من دعائه سبعون مغفرة، وغفر له ذنوبه كلها.
وروي عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صلى ببيت المقدس خمس صلوات نافلة، كل صلاة أربع ركعات يقرأ في الخمس صلوات عشرة آلاف مرة "قل هو الله أحد"، فقد اشترى نفسه من الله عز وجل؛ ليس للنار عليه سلطان.
وعنه أيضا، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صلاة الرجل في بيته بصلاة واحدة، وصلاته في مسجد القبائل بست وعشرين، وصلاته في المسجد الذي يجمع فيه بخمسمائة صلاة، وصلاته في المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة وصلاته في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة.
وعن مكحول أن ميمونة رضي الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيت المقدس قال: نعم المسكن بيت المقدس ومن صلى فيه بألف صلاة فيما سواه. قالت: فمن لم يطق ذلك؟ قال يهدي له زيتا وعن مكجول عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: لا يسمع أهل السماء من كلام بني آدم شيئا غير أذان مؤذن بيت المقدس.
وأما ما ورد في بيت المقدس من مضاعفة الحسنات والسيئات فيه فقد روي عن نافع، قال: قال ابن عمر رضي الله عنهما،

ونحن في بيت المقدس: يا نافع، اخرج بنا من هذا البيت، فإن السيئات تضاعف فيه كما تضاعف الحسنات. وقال جرير بن عثمان وصفوان بن عمرو: الحسنة في بيت المقدس بألف والسيئة بألف.
وأما فضل السكني فيه والإقامة والوفاة به فقد روي عن ذي الأصابع أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أرأيت يا رسول الله إن ابتلينا بالبقاء بعدك، فأين تأمرنا؟ قال: عليك ببيت المقدس لعل الله يرزقك ذرية تغدو إليه وتروح.
وعن أبي أمامة الباهلي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لغدوهم قاهرين، لايضرهم من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله عز وجل وهم كذلك. قالوا: يا رسول الله، وأين هم؟ قال: ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس.
وعن عطاء، قال: لا تقوم الساعة حتى يسوق الله عز وجل خيار عباده إلى بيت المقدس وإلى الأرض المقدسة، فيسكنهم إياها.
وعن كعب، قال: قال الله عز وجل لبيت المقدس أنت حنتي وقدسي وصفوتي من بلادي، ومن سكنك فبرحمة مني، ومن خرج منك فبسخط مني عليه. وعن وهب بن منبه، قال: أهل بيت المقدس جيران الله، وحق على الله عز وجل أن لايعذب جيرانه؛ ومن دفن في بيت المقدس نجا من فتنة القبر وضيقه.
وعن كعب قال : اليوم في بيت المقدس كألف يوم، والشهر في كألف شهر، والسنة كألف سنة، ومن مات فيه فكأنما مات في السماء ومن مات حوله فكأنما مات فيه. وعن خالد بن معدان قال: سمعت كعبا يقول: مقبور بيت المقدس لا يعذب. وأما ما به من قبور الأنبياء ومحراب داود وعين سلوان
ففي الأرض المقدسة قبر إبراهيم الخليل،وإسحاق، ويعقوب، ويوسف عليهم السلام. وفي الصحيح أن موسى عليه السلام لما حضرته الوفاة سأل الله عز وجل أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية حجر.
وروى الحافظ أبو بكر الخطيب بسنده عن بشر بن بكر عن أم عبد الله عن ابنها أنه قال: من أتى بيت المقدس، فليأت محراب داود، فليصل فيه، ويسبح في عين سوان فإنها من الجنة.
وبسنده إلى سعيد بن عبد العزيز، قال: كان في زمان بني إسرائيل في بيت المقدس عند عين سلوان عين. وكانت المرأة إذا قذفت، أتوا بها فشربت منها فإن كانت بريئة لم تضرها، وإن كانت نطفة ماتت. فلما حملت مريم حملوها، فشربت منها فلم تزدد إلا خيرا. فدعت الله أن لا يفضح بها امرأة مؤنة. فغارت العين.
وأما ما ورد في أن الحشر من البيت المقدس فقد روي عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: قلت يا رسول الله أخبرنا عن بيت المقدس قال: أرض المحشر والمنشر اتيوه فصلوا فيه وليأتين على بيت المقدس . ولبسطق قوس أو

مسحة قوس في بيت المقدس أو من حيث يرى بيت المقدس خير من كذا وكذا.
وعن كعب قال: العرض والحساب من بيت المقدس. وعن قتادة في قوله تعالى "يوم ينادي المناد من مكان قريب" قال: من صخرة بيت المقدس. وعن يزيد بن جابر يوم ينادي المناد من مكان قريب قال: يقف إسرافيل على صخرة بيت المقدس فينفخ في الصور فيقول: أيتها العظام النخرة، والجلود المتمزقة، والأشعار المتقطعة؛ إن
الله تعالى أمرك أن تجتمعي للحساب. وقال المفسرون في قوله تعالى "واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب" هو أن إسرافيل يقف على صخرة بيت المقدس فينادي: يا أيها الناس، هلموا إلى الحساب، إن الله يأمركم أن
تجتمعوا لفصل القضاء، وهذه هي النفخة الأخيرة.
والمكان القريب صخرة بيت المقدس. قال كعب ومقاتل: هي أقرب إلى السماء بثمانية عشر ميلا. وقال ابن السائب: باثني عشر ميلا.
وعن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالى "فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب" قال: هو حائط بيت المقدس الشرقي الذي من ورائه واد يقال له وادي جهنم، ومن دونه باب يقال له باب الرحمة.
وأما ورد في فضل الصخرة، والصلاة إلى جانبها فقد روي عن أنس بن مالك، قال: إن الجنة لتحن شوقاً إلى بيت المقدس، وإن بيت المقدس من جنة الفردوس، وهي سرة الأرض. وعن أبي إدريس الخولاني: قال: يحول الله صخرة بيت المقدس مرجانة بيضاء كعرض السماء والأرض، ثم ينصب عليها عرشه، ثم يقضي بين عباده: يصيرون منها إلى الجنة وإلى النار.
وعن أبي العالية في قوله تعالى "إلى الأرض التي باركنا فيها" قال: من بركتها أن كل ماء عذب يخرج من أصل صخرة بيت المقدس. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: الأنهار كلها والسحاب والبحار والرياح من تحت صخرة بيت المقدس. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: صخرة بيت المقدس من صخور الجنة. قال الزجاج: يقال إنها في وسط الأرض.
وعن كعب قال: من أتى بيت المقدس فصلى عن يمين الصخرة وشمالها، ودعا عند موضع السلسلة، وتصدق بما قل أو كثر، استجيب دعاؤه، وكشف الله حزنه، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه؛ وإن سأل الله الزيادة أعطاه إياها.
وأما ما ورد في أن الله عز وجل عرج من بيت المقدس إلى السماء فقد روى الشيخ الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد الواسطي الخطيب رحمه الله بسنده إلى سوادة بن عطاء الحضرمي، قال: نجد في الكتاب مكتوبا أن الله عز وجل لما أن خلق الأرض وشاء أن يعرج إلى السماء وهي دخان، استشرف

لذلك الجبال أيها يكون ذلك عليه؟ وخشعت صخرة بيت المقدس تواضعا لله عز وجل، فشكر الله لها ذلك وجعل المعراج عنها. وكان عليها ما شاء الله أن يكون. قال: فمد الجبار يديه حتى كانتا حيث يشاء أن تكونا، ثم قال: "هذه جنتي غرباً، وهذه ناري شرقا، وهذا موضع ميزاني طرف الجبل، وأنا الله ديان يوم الدين" وكان معراجه إلى السماء عن الصخرة.
وروي أيضا بسنده إلى هانئ بن عبد الرحمن، ورديح بن عطية عن إبراهيم ابن أبي عبلة أحسبه كذا قال: وسئل عبادة بن الصامت ورافع بن خديج وكانا عقبيين بدريين، فقيل لهما: أرأيتما ما يقول الناس في هذه الصخرة أحقاً هو فنأخذ به، أم هو شيء أصله من أهل الكتاب فندعه؟ فقال كلاهما: سبحان الله! ومن يشك في أمرها، إن الله عز وجل لما استوى إلى السماء، قال لصخرة بيت المقدس: "هذا مقامي وموضع عرشي يوم القيامة، ومحشر عبادي، وهذا موضع ناري عن يسارها وفيه وأنصب ميزاني أمامها، وأنا الله ديان يوم الدين" ثم استوى إلى عليين.
وروي أيضا بسنده عن كعب، قال: إن في التوراة أنه يقول لصخرة بيت المقدس "أنت عرشي الأدنى ومنك ارتفعت إلى السماء، ومن تحتك بسطت الأرض وكل ما يسيل من ذروة الجبال من تحتك؛ من مات فيك فكأنما مات في السماء، ومن مات حولك فكأنما مات فيك، لا تنقضي الأيام والليالي حتى أرسل عليك نارا من السماء فتأكل آثارا أكف بني آدم وأقدامهم منك، وأرسل عليك ماء من تحت العرش فأغسلك حتى أتركك كالمرآة، وأضرب عليك سورا من غمام غلظه اثنا عشر ميلا، وسياجا من نار؛ وأجعل عليك قبة جبلتها بيدي، وأنزل فيك روحي وملائكتي يسبحون لي فيك؛ لا يدخلك أحد من ولد لآدم إلى يوم القيامة؛ فمن بر ضوء تلك القبة من بعيد، يقول: طوبى لوجه يخر فيك لله ساجدا، وأضرب عليك حائطا من نار وسياجا من الغمام،وخمسة حيطان من ياقوت ودرر وزبر جد؛أنت البيدر،وإليك المحشر،ومنك المنشر" وروى أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي رحمه الله في ذلك حديثين، ثم تكلم عليهما وضعف رواتهما.
أما أحدهما، فقال: أخبرنا المبارك بن أحمد، قال: أخبرنا أبو الحسين محمد بن محمد، قال: أنبأنا أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن عمر النصيبي، قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن صالح بن عمر المقري، قال: حدثنا عيسى بن عبيد الله، قال: حدثنا على ابن جعفر الرازي، قال: حدثنا العباس بن أحمد بن عبد الله، قال: حدثنا عبد الله ابن عمر المقدسي، قال: حدثنا بكر بن زياد الباهلي، عن عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن زرارة بن أوفي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما أسري بي إلى بيت المقدس مر بي جبريل عليه السلام إلى قبر إبراهيم، فقال:

انزل، فصل هاهنا ركعتين، هاهنا قبر أبيك إبراهيم. ثم مر بي ببيت لحم، فقال: انزل، صل هاهنا ركعتين، فإن هاهنا ولد أخيك عيسى. ثم أتي بي إلى الصخرة فقال: من هاهنا عرج ربك إلى السماء.
قال الحافظ أبو حاتم بن حيان: هذا حديث لا يشك عوام أصحاب الحديث أنه موضوع. وكان بكر بن زياد يضع الحديث على الثقات.
وأما الحديث الثاني، فرواه بسند إلى إبراهيم بن أعين عن رديح بن عطية بن النعمان، عن عبد الله بن بشر الحمصي، عن كعب الأحبار، قال: يقول الله عز وجل لبيت المقدس: أنت عرشي الذي منك رتفعت إلى السماء، ومنك بسطت الأرض، ومن تحتك جعلت كل ماء عذب يطلع في رؤوس الجبال. قال أبو حاتم الرازي: إبراهيم بن أعين منكر الحديث. هذا ما ورد في هذا الفصل وقد نبهنا على ما فيه من المآخذ والله أعلم.
وأما ثواب الإهلال من بيت المقدس فقد روي عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من أهل من بيت المقدس، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال سالم: وأهل ابن عمر رضي الله عنهما من بيت المقدس بعمرة.
وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحرم من بيت المقدس، قدم مكة مغفوراً له. وأما ما ورد من أن الكعبة تزور الصخرة يوم القيامة فقد روي عن كعب الأحبار قال: لا تقوم الساعة حتى يزور الحرام بيت المقدس، فينقادان جميعاً إلى الجنة وفيهما أهلوهما.
وروي عن خالد بن معدان قال: يحشر الله الكعبة إلى الصخرة زفاً إليها زفاً، متعلقين بجميع من حج إليهما، تقول الصخرة مرحبا: بالزائرة والمزور إليها. هذا ما اتفق إيراده في فضائل البيت المقدس، وسنذكر إن شاء الله تعالى من أخباره طرفا آخر وهو الباب الثاني، من القسم الثالث من الفن الخامس في التاريخ عند ذكرنا لأخبار
سليمان بن داود عليهما السلام. فلنذكر خلاف ذلك.
وأما اليمن وما يختص به فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: الإيمان يمان، والحكمة يمانية.
وقال الجاحظ: من خصائص اليمن السيوف، والبرود، والقرود.
ويقال: إن السيف متى قلع بالهند وطبع باليمن، فناهيك به!
وقال الأصمعي: أربعة ملأت الدنيا ولا تكون إلا باليمن، وهي الورس، والكندر، والخضض، والعقيق.
وأما الشام وما يختص به فمن ذلك أن الشام موطن الأنبياء عليهم السلام، ومعدن الزهاد والعباد. وحكي أن الأبدال السبعين بأرض الشام، بجبل لكام وجبل لبنان. ومن خصائص الشام:
مسجد دمشق الذي ما عمر على وجه الأرض مثله وكانت عمارته في سنة ست وثمانين، عمره الوليد بن عبد الملك. ووقع الحريق

فيه سنة إحدى وستين وأربعمائة، فدثرت محاسنه وزال ما كان فيه من الأعمال النفيسة.
وعن قتادة، قال: أقسم الله تعالى بمساجد أربعة، والتين وهو مسجد دمشق، والزيتون وهو بيت المقدس، وطور سينين وهو حيث كلم الله موسى، وهذا البلد الأمين وهو مكة. وقال محمد بن شعيب: سمعت غير واحد من قدمائنا يذكرون أن التين مسجد دمشق، وأنهم قد أدركوا فيه شجرا من تين قبل أن يبنيه الوليد.
وعن هشام بن عبد الملك قال: لما أمر الوليد ببناء مسجد دمشق، وجدوا في الحائط القبلي من المسجد لوحا فيه نقش فأتوا به إلى الوليد، فبعث إلى الروم والعبرانيين وغيرهم، فلم يستخرجوه. فدل على وهب بن منبه فبعث إليه، فلما قدم أخبره بموضع اللوح فإذا الحائط الذي وجد فيه بناء هود عليه السلام.
وعن زيد بن واقد قال: وكني الوليد على العمال في بناء جامع دمشق، فوجدنا فيه مغارة فعرفنا الوليد ذلك. فلما كان الليل وافي، وبين يديه الشمع، فنزل فإذا هي كنيسة لطيفة: ثلاثة أرع في ثلاثة أذرع، وإذا فيها صندوق، ففتح فإذا فيه سفط، وفي السفط رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام، مكتوب عليه هذا رأ س يحيى بن زكريا فأمر الوليد، فرد إلى مكانه، وقال: اجعلوا العمود الذي فوقه مغيرا من الأعمدة، فجعلوا عليه عمودا مسفط الرأس. وكانت البشرة والشعر على رأسه لم يتغير.
وقال أبو زرعة: مسجد دمشق خطه أبو عبيد بن الجراح، وكذلك مسجد حمص. وقيل: لما قدم المهدي يريد بيت المقدس، دخل مسجد دمشق ومعه أبو عبد الله الأشعري كاتبه، فقال: يا أبا عبد الله سبقنا بنو أمية بثلاث، قال: وما هن يا أمير المؤمنين؟ قال: بهذا البيت "يعني المسجد" لا أعلم على وجه الأرض مثله، وبنبل الموالي فإن ليس لنا مثلهم، وبعمر بن عبد العزيز، لا يكون فينا مثله أبدت! ثم أتى بيت المقدس فدخل الصخرة، فقال: يا أبا عبد الله وهذه رابعة.
وحكى عمرو بن مهاجر الأنصاري قال: حسبوا ما أنفق على الكرمة التي في قبلة مسجد دمشق، فإذا هو سبعون ألف دينار.
وقال أبو قصي: أنفق في عمارة مسجد دمشق أربعمائة صندوق، وكل صندوق أربعة عشر ألف دينار.
وقال بعض الشعراء المحدثين في وصفه:

دمشق قد شاع ذكر جامعها وما حوته ربى مرابعها.
بديعة المدن في الكمال لما يدركه الطرف من بدائعها.
طيبة أرضها مباركة باليمن والسعد أخذ طالعها.
جامعها جامع المحاسن قد فاقت به المدن في جوامعها.
تذكر في فضله ورفعته أخبار صدق راقت لسامعها.
قد كان قبل الحريق مدهشة فغيرته نار بلاقعها.
فأذهبت بالحريق بهجته فليس يرجى إياب راجعها.
إذا تفكرت في الفصوص وما فيها، تيقنت حذق واضعها.
أشجارها لا تزال مثمرة لا ترهب الريح في مدافعها.

كأنها من زمرد غرست في أرض تبر يغشى بفاقعها.
فيها ثمار تخالها ينعت وليس يخشى فساد يانعها.
تقطف باللحظ لا بجارحة الأيدي ولا تجتني لبائعها.
وتحتها من رخامه قطع لا قطع الله كف قاطعها.
أحكم ترخيمها المرخم بان عليها إحكام صانعها.
وإن تفكرت في قناطره وسقفه، بان حذق رافعها.
وإن تبينت حسن قبته تحير اللب في أضالعها.
تخترق الريح في مخارمها عصفا فتقوى على زعازعها.
وأرضه بالرخام قد فرشت ينفسح الطرف في مواضعها.
مجالس العلم فيه مونفة ينشرح الصدر في مجامعها.
وكل باب عليه مطهرة قد أمن الناس دفع مانعها.
يرتفق الخلق من مرافقها ولا يصدون عن منافعها.
ولا تزال المياه جارية فيها لما شق من مشارعها.
وسوقها لا تزال آهلة يزدحم الناس في شوارعها.
لما يشاءون من فواكهها وما يريدون من بضائعها.
كأنها جنة معجلة في الأرض، لولا سري فجائعها.
دامت برغم العدا مسلمة وحاطها الله من قوارعها.

وقال عبد الله بن سلام: بالشام من قبور الأنبياء ألفا قبر وسبعمائة قبر؛ وقبر موسى بدمشق؛ ودمشق معقل الناس الناس في آخر الزمان.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: من أراد أن ينظر إلى الموضع الذي قال الله عز وجل فيه "وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين" فليأت النيرب الأعلى بدمشق بين النهرين، وليصعد الغار في جبل قاسيون، فليصل فيه فإنه بيت عيسى وأمه. ومن رأراد أن ينظر إلى إرم، فليأت نهرا في دمشق يقال له بردى. ومن أراد أن ينظر إلى المقبرة التي فيها مريم بنت عمران والحواريون. فليأت مقبرة الفراديس.

ومن خصائصها التفاح الذي يضرب به المثل في الحسن والطيب.وكان يحمل منه إلى الخلفاء في كل سنة ثلاثون ألف تفاحة. وبها الغوطة، وهي أحد منتزهات الدنيا الأربعه وهي أجلها. وسنذكر وصفها في باب الرياض إن شاء الله تعالى.

وأما مصر وما يختص بها من الفضائل فمن فضلها أن الله عز وجل ذكرها في كتابه العزيز في أربعة وعشرين موضعا. منها ما هو بصريح اللفظ. ومنها ما دلت عليه القرائن والتفاسير.

فأما صريح اللفظ، فقوله تعالى: "إهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم". وقوله تعالى مخبرا عن فرعون: "أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي". وقوله عز وجل مخبراً عن يوسف عليه السلام: "ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين". وقوله تعالى: "وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة".

وأما ما دلت عليه القرائن، فمنه قوله تعالى: "ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق". وقوله عز وجل: "وآويناهما إلى ربوة ذات

قرار ومعين". قال ابن عباس، وسعيد المسيب، ووهب بن منبه وغيرهم: هي مصر. وقوله تعالى: "فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم". وقوله تعالى: "وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها". يعني مصر.
وقوله تعالى: "كم تركوا من جنات وعيون و زروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين". يعني قوم فرعون، وأن بني إسرائيل ورثوا أرض مصر. وقوله عز وجل: "ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون". وقوله تعالى مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام: "يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين".
وقوله عز وجل مخبرا عن فرعون: "يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض". وقوله تعالى: "وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون". وقوله تعالى مخبرا عن قوم فرعون: "أتذر موسى وقومه ليفسدون في الأرض" يعني أرض مصر.
وقوله عز وجل مخبرا عن نبيه يوسف عليه السلام: "إجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم". وقوله تعالى: "وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء" وقوله عز وجل مخبرا عن بني إسرائيل: "ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا".
وقوله تعالى مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام: "عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض". وقوله تعالى: "أو أن يظهر في الأرض الفساد". يعني أرض مصر. وقوله تعالى: "وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى". وقوله عز وجل: "إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا". وقوله تعالى مخبرا عن ابن يعقوب: "فلن أبرح الأرض". يعني أرض مصر. وقوله تعالى: "إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض". وذكر ابن عباس مصر، فقال: سميت مصر بالأرض كلها في عشرة مواضع من القرآن. والله أعلم.
وأما ما ورد فيها من الحديث النبوي صلوات الله وسلامه على قائله فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ستفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لهم ذمة ورحما وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا بها جندا كثيفا، فذلك الجند خير أجناد الأرض فقال أبو بكر رضي الله عنه: ولم يا رسول الله؟ فقال: لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة

وعنه صلى الله عليه وسلم، وذكر مصر: ما كادهم أحد إلا كفاهم الله مؤونته. وتكررت الأحاديث في فضلها.
وقال عبد الله بن عمرو: وأهل مصر أكرم الأعاجم كلها، وأسمحهم يدا، وأفضلهم عنصرا، وأقربهم رحماً بالعرب عامة وبقريش خاصة. وقال أيضا: لما خلق الله عز وجل آدم، مثل له الدنيا: شرقها، وغربها، وسهلها، وجبلها، وأنهارها، وبحارها، وبناءها، وخرابها، ومن يسكنها من الأمم، ومن يملكها من الملوك. فلما رأى مصر، رآها أرضاً سهلةً ذات نهر جار، مادته من الجنة، تنحدر فيه البركة، ورأى جبلا من جبالها مكسوا نورا لا يخلو من نظر الرب عز وجل إليه بالرحمة. في سفحه أشجار مثمرة، فروعها في الجنة تسقي بماء الرحمة. فدعا آدم في النيل بالبركة، ودعا في أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى، وبارك على نيلها وجبلها سبع مرات. ثم قال: "يا أيها الجبل المرحوم، سفح جنة وتربتك مسكة تدفن فيها عرائس الجنة، أرض حافظة مطبقة رحيمة، لا خلتك يا مصر بركة، ولا زال بك حفظ، ولا زال منك ملك وعز، يا أرض مصر فيك الخباء والكنوز، ولك البر والثروة، سال نهرك عسلا. كثر الله زرعك، ودر ضرعك، وزكا نباتك، وعظمت بركتك وخصبت، ولا زال فيك يا مصر خير ما لم تتجبري وتتكبري أو تخوني، فإذا فعلت ذلك عراك شر، ثم تغور خيرك". فكان آدم أول من دعا لها بالخصب والرحمة والرأفة والبركة.
وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: دعا نوح عليه السلام لبن ابنه بيصر ابن حام وهو أبو مصر، فقال: اللهم إنه قد أجاب دعوتي، فبارك فيه وفي ذريته وأسكنه الأرض الطيبة المباركة التي هي أم البلاد. قال عبد الله بن عمرو: لما قسم نوح عليه السلام الأرض بين ولده، جعل لحام مصر وسواحلها والمغرب وشاطئ النيل. فلما دخل بيصر بن حام وبلغ العريش، قال: "اللهم إن كانت هذه الأرض التي وعدتنا على لسان نبيك نوح عليه السلام وجعلتها لنا منزلا فاصرف عنا وباها، وطيب لنا ثراها، واجمع ماها، وأنبت كلاها، وبارك لنا فيها، وتمم لنا وعدك، إنك على كل شيء قدير، وإنك لا تخلف الميعاد" وجعلها بيصر لابنه مصر وسماها به. والقبط ولد مصر بن بيصر بن حام بن نوح.
وسنذكر إن شاء الله أخبار مصر وبنيه عند ذكرنا لملوك مصر، وهو في الفن الخامس من التاريخ.
وعن كعب الأحبار: لولا رغبتي في بيت المقدس لما سكنت إلا مصر، فقيل له: ولم؟ فقال: لأنها معافاة من الفتن ومن أرادها بسوء كبه الله على وجهه، وهو بلد مبارك لأهله فيه. وقال أبو بصرة الغفاري: سلطان مصر سلطان الأرض كلها. قال: وفي التوراة مكتوب: مصر خزائن الأرض كلها، فمن أرادها بسوء قصمه الله تعالى.
وقال عمرو بن العاص: ولاية مصر جامعة، تعدل الخلافة.

وقال أبو حازم عبد الحميد بن عبد العزيز، قاضي العراق: سألت أحمد بن المدبر عن مصر فقال: كشفتها فوجدت غامرها أضعاف عامرها. ولو عمرها السلطان، لوفت له بخراج الدنيا.
ذكر من ولد بمصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن كان بها منهم ولد بمصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جماعة، منهم: موسى، وهارون، ويوشع بن نون، ودانيال، وارميا، ولقمان، وعيسى بن مريم، ولدته أمه بأهناس، وبها النخلة التي ذكرها الله تعالى لمريم على أحد الأقوال.
ولما سار عيسى إلى الشأم أخذ على سفح المقطم ماشيا، عليه جبة صوف مربوط الوسط بشريط، وأمه تمشي خلفه، فالتفت إليها وقال: يا أماه، هذه مقبرة أمة محمد صلى الله عليه وسلم.
وأما من كان بها منهم، فكان إبراهيم الخليل، وإسماعيل، ويعقوب، ويوسف عليهم السلام، واثنا عشر سبطا.
ذكر من كان من الصديقين والصديقات رضي الله عنهم كان بها من الصديقين مؤمن آل فرعون الذي ذكره الله عز وجل في القرآن. وقيل: إنه ابن لفرعون لصلبه. آمن بموسى ولحق به وجعله نبياً وآيةً.
وكان بها وزراء فرعون الذين وصفهم الله تعالى وفضلهم على قوم نمرود حين قالوا: أرجئه وأخاه وقال وزراء النمرود: اقتلوه أو حرّقوه. وأخرجت مصر السحرة الذين أحضرهم فرعون لموسى،وكانت عدتهم مائتي ألف واثنتين وثلاثين ألفا وقيل أكثر من ذلك، آمنوا كلهم في ساعة واحدة. ولم نعلم ممن آمن في ساعة واحدة مثل هذا العدد.
ومن فضائل مصر ونبل أهلها أنهم لم يفتنوا بعبادة العجل.
وكان بها من الصديقات آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وأم إسحاق، ومريم بنت عمران،وماشطة بنت فرعون، التي مشطها فرعون بأمشاط الكتان لما آمنت بموسى. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: شممت ليلة أسرى بي في الجنة رائحة ما شممت أطيب منها، فقلت: يا جبريل ما هذا؟ فقال: هذا رائحة ماشطة بنت فرعون ذكر من صاهر أهل مصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام
منهم: إبراهيم الخليل عليه السلام، تزوج بهاجر أم إسماعيل.
ويوسف الصديق، تزوج بنت صاحب عين شمس، وتزوج زليخا بعد أن عجزت وعميت. دعا الله فردها إلى حالتها الأولى ورزق منها الولد. وتسري سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمارية القبطية التي أهداها له المقوقس، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في السيرة النبوية.
ذكر من أظهرته مصر من الحكماء
"الذين عمروا الدنيا بكلامهم وحكمهم وتدبيرهم، وأظهروا ما خفي من العلوم" قال الحسن بن إبراهيم، صاحب تاريخ مصر:

منهم: ذو القرنين، وهوالإسكندر من قرية يقال لها لوبية. وهو الذي قتل دارا بن دارا. وسيأتي خبره إن شاء الله تعالى في التاريخ في ذكر ملوك اليونان.
ومنهم: هرمس، وهو المثلث بالنعمة: نبي، وحكيم، وملك: وهو الذي صير الرصاص ذهبا، وبني الهرمين الكبيرين على أحد الأقوال. وقيل: هو إدريس عليه السلام.
ومنهم تلميذاه: أغاثا ذيمون وفيثاغورس، ولهما من العلوم الموروثة صناعة الكيمياء، والنجوم، والسحر، وعلم النارنجيات، والطلسمات، والبرابي، وأسرار الطبيعة.
ومنهم أوسلا وسيزوارس وبندقليس، أصحاب الكهانة والزجر.
ومنهم سقراط، صاحب الحكمة، والكلام على البارئ جل ذكره، وهو صاحب البلاغة.
ومنهم أفلاطون، صاحب السياسة، والنواميس، والكلام على المدن والملوك.
ومنهم بطليموس، صاحب الرصد، والمساحة، والحساب؛ وهو صاحب كتاب المجسطي من كتب الأفلاك، وحركة الشمس، والقمر والمواكب المتحيرة والثابتة، وصورة فلك البروج. وله صفة الأمم الذين يعمرون الأرض، وكتاب الثمرة على علم النجوم وتسطيح الكرة.
ومنهم أرسطاطاليس، صاحب المنطق، والآثار العلوية، والحسن والمحسوس، والكون والفساد، والسماء والعالم، وسمع الكيان والسمع الطبيعي، ورسالة نبت الذهب، قالوا: وليعقوب بن إسحاق الكندي نحو ألف كتاب مستخرجة من كتب أرسطاطاليس.
ومنهم أراطس، صاحب البيضة ذات الثمانية والأربعين صورة في تشكيل صورة الفلك، والألف كوكب، اثنان وعشرون كوكبا من الكواكب الثابتة، والزيج.
ومنهم أنطوليوس، صاحب الفلاحة.
ومنهم إبرخس، صاحب الرصد والآلة المعروفة بذات الحلق.
ومنهم ثاون، صاحب الزيج المنسوب إليه.
ومنهم اسطنس، ودروثيوس، والنس، أصحاب كتب أحكام النجوم، وعنهم انتشر ذلك.
ومنهم إيران، صاحب الهندسة والمقادير، وكتاب جر الأثقال، والحيل الروحانية، وعمل البناكيم والآلات لقياس الساعات.
ومنهم فيلون البرنطي، وله عمل الدواليب والأرحية والحركات بالحيل اللطيفة.
ومنهم أرشميدس، صاحب الحيل والهندسة والمرايا المحرقة وعمل المجانيق ورمي الحصون، والحيل على الجيوش والعساكر براً وبحراً.
ومنهم ماريه وقلبطره، أصحاب الطلمسات، والخواص للطبائع.
ومنهم أبلونيوس، وله كتاب المخروطات وقطع الخطوط.
ومنهم ثيودوسيس، وهو صاحب كتاب الأكر.

ومنهم ذيوفنطس، وله كتاب الحساب.
ومنهم أوطوقيس، وله كتاب الكرة والأسطوانة.
ومنهم المشاءون أصحاب الرواق.
وبمصر من العلوم التي عمرت بها الدنيا علم الطب اليوناني، وعلم النجوم، وعلم المساحة، وعلم الهندسة، وعلم الكيمياء، وغير ذلك وبها الطلسمات العشرة.
وبادي الإسكندري صاحب الزيج.
والذين نشروا الطب وشرحوه جالينوس، صاحب الطب، تعلمه بمصر، ومن كتبها أخذ.
ومنهم ديسقريد: صاحب الحشائش، وديوجانس، واركاغانس، وارباسيوس، وفريقونوس، وروفس، هؤلاء أصحاب الطب اليوناني.
فهؤلاء حكماء الأرض وعلماؤهم الذين ورثوا الحكمة، من مصر خرجوا، وبها ولدوا؛ ومنها انتشرت علومهم في الأرض.
قال الحسن بن إبراهيم: وكانت مصر يسير إليها في الزمن الأول طلبة العلم وأصحاب العلم الدقيق لتكون أذهانهم على الزيادة وقوة الذكاء ودقة الفطنة. والله تعالى أعلم.
ومن فضائل مصر
أنها تمير الحرمين الشريفين، ولولا مصر لما أمكن أهل الحرمين وأعمالهما المقام بهما، ولما توصل إليهما من يرد من أقطار الأرض. ومنها أنها فرضة الدنيا، ويحمل من خيرها إلى سواحلها، وذلك أن من ساحلها بالقلزم ينقل إلى الحرمين، وإلى جدة، وإلى عمان، وإلى الهند، وإلى الصين، وصنعاء، وعدن، والشحر، والسند، وجزائر البحر.
ومن جهة تنيس، ودمياط، والفرما فرضة بلد الروم، وأقاصي الأفرنجه، وقبرس، وسائر سواحل الشام، والثغور إلى حدود العراق. ومن جهة الإسكندرية فرضة أقريطش، وصقلية، بلد الروم، والمغرب كله إلى طنجة، ومغرب الشمس.
ومن جهة الصعيد فرضة بلد النوبة، والبجة، والحبشة، والحجاز، واليمن. وفيها من ثغور الرباط: البرلس، ورشيد، والإسكندرية، ورباط ذات الحمام، ورباط الحيرة، ورباط إخنا، ورباط دمياط، وشطا، وتنيس، والأشتوم، والفرما، والوارد، والعريش، والشجرتين، ورباط الحرس، وجهة الحبشة، والبجة، ورباط أسوان على النوبة. ورباط الواحات على البر والسودان. ورباط قوص.
وبها من المساجد والمشاهد والآثار الصالحة، وما لم يكن في غيرها. ولو استقصينا ذلك لطال به الشرح وانبسط القول.
وقال سعيد بن عقبة: كنت بحضرة المأمون حتى قال، وهو في قبة الهواء: لعن الله فرعون حين يقول" أليس لي ملك مصر" فلو رأى العراق!. فقلت: يا أمير المؤمنين لا تقل هذا فإن الله عز وجل قال "ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا

يعرشون". فما ظنك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله، هذا بقيته؟.
قال: ثم قلت لقد بلغني أن أرضاً لم تكن أعظم من مصر، وجميع أهل الأرض يحتاجون إليها. وكانت الأنهار بقناطر وجسور وتقدير حتى أن الماء يجري تحت منازلهم وأفنيتهم: يحسبونه متى شاءوا ويرسلونه متى شاءوا. وكانت البساتين بحافتي النيل من أوله إلى آخره، ما بين أسوان إلى رشيد إلى الشام متصلة لا تنقطع. ولقد كانت الأمة تضع المكتل على رأسها فيمتلئ مما يسقط من الشجر. وكانت المرأة تخرج حاسرة لا تحتاج إلى خمار لكثرة الشجر. ومن فضائلها النيل، وقد تقدم ذكره في باب الأنهار.
ومن عجائبها الهرمان وسيأتي ذكرها في باب المباني القديمة إن شاء الله تعالى. ومن عجائبها أن أهلها مستغنون عن كل بلد، حتى لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور، استغنى أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا. وفيها ما ليس في غيرها، وهو حيوان السقنقور، والنمس. ولولاه لأكلت الثعابين أهلها؛ وهو لها كقنافذ سجستان لأهلها. وفيها سمك يسمى الرعاد. وهو سمك إذا أمسكه إنسان أو أمسك ما يتصل به من خيط الصَّنارة أو الشبكة التي يقع فيها، ارتعدت يده.
والحطب السنط الذي لو وقد منه يوما وجمع ما وجد من رماده كان ملء كف. وهو صلب العود، سريع الوقود، بطيء الخمود.
ويقال: إنه الأبنوس، وإنما البقعة قصرت عن الكيان فجاء أحمر شديد الحمرة ودهن البلسان. والأفيون، وهو عصارة الخشخاش. وكان بها اللبلخ، وهو ثمر في قدر اللوز الأخضر إلا أن المأكول منه الظاهر. ورأيته أنا بنا وأكلت منه سنة ثلاث وتسعين وستمائة.
وبها الأترج الأبلق وبها من المعادن: معدن الزمرذ، ومعدن النفط، والشب، والبرام، والرخام.
وقيل: إن بها سائر المعادن كلها. وأهلها يأكلون صيد بحر الروم وبحر فارس طريا. وفي كل شهر من شهور القبط صنف من المأكول والمشروب والمشموم، يوجد فيه دون غيره. فيقال: رطب توت ورمان بابه، وموز هاتور، وسمك كهيك، وماء طوبة، وخروف أمشير، ولبن برمهات، وورد برمودة، ونبق بشنس، وتين بؤنة، وعسل أبيب، وعنب مسرى. ومنها أن صيفها خريف، وشتاءها ربيع؛ وما يقطعه الحر والبرد في سائر البلاد من الفواكه يوجد فيها في الحر والبرد: لأنها في الإقليم الثالث والرابع، فسلمت من حر الأول والثاني، وبرد السادس والسابع.
ويقال: ولو لم يكن من فضل مصر إلا أنه تَغني في الصيف عن الخيش والثلج وبطون الأرض، وفي الشتاء عن الوقود والفراء.
ومما وصفت به أن صعيدها حجازي. حجره كحجر الحجاز ينبت النخل والدوم "وهو شجر المقل"، والعشر، والقرظ، والإهليلج، والفلفل، والخيار شنبر. وأسفل أرضها شامي: يمطر كمطر

الشام، وتقع فيه الثلوج،وينبت التين والزيتون والعنب والجوز واللوز والفستق وسائر الفواكه، والبقول والرياحين وهي ما بين أربع صفات: فضة بيضاء، أو مسكة سوداء، أو زبرجدة خضراء، أو ذهبة صفراء. وذلك أن النيل يعم أرضها فتصير كالفضة البيضاء، ثم ينصب عنها فتصير مسكة سوداء، ثم تزرع فتصير برجدة خضراء، ثم تستحصد فتصير ذهبة صفراء.
وحكى ابن زولاق في فضائل مصر إن أميرها موسى بن عيسى "الهاشمي" وقف بالميدان عند بركة الحبش فالتفت يمينا وشمالا، وقال لمن كان معه: أترون ما أرى؟ قالوا: وما يرى الأمير؟ قال: أرى عجبا ما في الدنيا مثله؟ فقالوا: يقول الأمير فقال: أرى ميدان رهان، وحيطان نخل، وبستان شجر، ومنازل سكنى، وذروة جبل، وجبانة أموات، ونهر عجاجا، وأرض زرعٍ، ومراعي ماشية، ومراتع خيل، وساحل بحر. "وصائد نهر" وقانص وحش، وصائد سمك، وملاح سفينة، وحادي ابل، ومفازة رمل، وسهلا، وجبلا .فهذه ثمانية عشر منتزها في أقل من ميل في ميل.
وأين هذه الأوصاف من وصف الواصف لقصر أنس بالبصرة حيث يقول:

زر وادي القصر نعم القصر والوادي! لا بد من زورةٍ من غير مِيعاد.

زره فليس له شيء يشاكله من منزل حاضرٍ إن شئت أو بادي.

ترى به السفن والظُّلمان حاضرة والضب والنون والملاح والحادي.

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي، يصف جبل الرصد مثل ما وصف به قصر أنس.

يا نزهة الرصد المصري قد جمعت من كل شيء حلا في جانب الوادي.

فذا غدير، وذا روض، ذا جبل: فالاضب والنون والملاح والحادي.

فهذه نبذة من فضائل مصر. ولولا الرغبة في الاختصار، لكانت فضائلها تكون كتابا مفردا.
وأما جزيرة الأندلس
فقد اقتصرت في وصفها على رسالة وصفها ابن حزم فيها، فقال: أرضها شامية في طيبها، تهامية في اعتدالها واستوائها، أهوازية في عظم خراجها وجبايتها، عدنية في منافع سواحلها، صينية في معادنها، هندية في عطرها وطيبها وذكائها. وأهلها عرب في الأنساب والعزة والأنفة، وفصاحة الألسن، وطيب النفوس وإباء الضيم، وقلة احتمال الذل والإهانة، والنزاهة عن الخضوع؛ هنديون في فرط عنايتهم بالعلوم وحبهم لها؛ بغداديون في ظرفهم ونظافتهم، ورقة أخلاقهم ونباهتهم، ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم؛ نبطيون في استنباط المياه،

معاناتهم للغراسة وتركيب الشجر والفلاحة؛ صينيون في إتقان الصنائع العلمية، وإحكام المهن الصورية؛ تركيون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها، والنظر في مهماتها.
قال إبراهيم بن خفاجة، يصفها:

إن للجنة بالأندلس مجتلى عين وريا نفس!
فسنا صبحتها من شنبٍ ودجى ليلتها من لعس.

وقد أظهرت الأندلس جماعة من الفضلاء والأعيان والأكابر؛ ذكرهم ابن بسام في كتابة المترجم بالذخيرة، في محاسن أهل الجزيرة وذكرهم الفتح بن خاقان في كتابة المطمح وقلائد العقيان وغيرهما.
وسنذكر إن شاء الله تعالى حال الأندلس وابتداء عمارتها وملوكها عند ذكرنا فتحها، وهو في الباب الخامس من القسم الأول من الفن الخامس في التاريخ من أخبار الدولة الأموية في التاريخ من أخبار الدولة الأموية في خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان في سنة اثنان وتسعون من الهجرة.
وأما البصرة وما اختصت به
فمن خصائصها أن للغربان بها ضربا من العجب. وذلك أنها تقع إليها بالخريف حتى تكون الأرض بها سوداء، وتقع على كل نخلة أصرم ثمرها، ولا تقع على ما لم تصرم، ولو بقي عليها عذق واحد.
ومن عجائبها، أن التمر يكون مصبوباً في بيادره فلا يقع عليه شيء من الذباب ولا في الليل ولا في النهار.
وأهل البصرة يتخذون المظلات على التمر والعجوة خوفا عليها من الخفاش. ومن عادة الذباب الفرار من الشمس إلى الظل، فلا يوجد في تلك الظلال شيء منه البتة. فيتوهم المتوهم أن هاتين الحالتين من طلسم، له من الخاصية ما يمنع الغربان والذباب. وليس كذلك، وإنما هو من حماية الله ووقايته
ووصف خالد بن صفوان البصرة، فقال: منابتها قصب، وأنهارها عجب، وسماؤها رطب، وأرضها ذهب. وفي الكوفة عدم الوفاء
وأما بغداد وما اختصت به فإنه يقال إنها جنة الأرض، ومجتمع الوافدين: دجلة والفرات، وواسطة الدنيا، ومدينة السلام، وقبة الإسلام، لأنها غرة البلاد، ودار السلام والخلافة، ومجمع الطرائف والطيبات، ومعدن المحاسن واللطائف، وبها أرباب النهايات في كل فن، وآحاد الدهر في كل نوع.
وكان أبو إسحاق الزجاج يقول: بغداد حاضرة الدنيا، وما عداها بادية. وكان أبو الفضل بن العميد إذا طرأ عليه أحد وأراد امتحان عقله سأله عن بغداد. فإن فطن لفضائلها وخواصها، جعل ذلك مقدمة فضله وعنوان عقله. وقال ابن زريق الكوفي، الكاتب:

سافرت أبغى لبغدادٍ وساكنها مثلا، فحاولت شيئا دونه اليأس
هيهات! بغداد الدنيا بأجمعها عند وسكان بغدادٍ هم الناس.

وقال آخر:

سقى الله بغداد من جنة غدت للورى نُزهة الأُنفس.
على أنها منية الموسرين ولكنها حسرة المفلس.

وأما الأهواز وما اختصت به

فقال أبو العثمان عمرو بن بحر الجاحظ: إن قصبة الأهواز مخصوصة بالحمى الدائمة اللازمة، حتى أنها ليست إلى الغريب بأسرع منها إلى القريب.

وقال إبراهيم بن العباس عن مشيخة من أهلها عن القوابل بها: أنهن ربما قبلن الطفل المولود بها فيجدنه محموما؛ ولا تكاد توجد بها وجنة حمراء لصبي ولا صبية، ولا دم ظاهر.

ومن عجائب خصائصها: أن جميع أصناف الطيب تستحيل رائحته فيها جدا، حتى لا تكاد توجد له رائحة. وذلك من كثرة الرطوبات، وغلظ الهواء، والأبخرة الفاسدة. "وهذا موجود بأنطاكية والقسطنطينية" ويقال: أن الخيل لا تنزو بها ولا تصهل، وإنها تعتلف الحشيش دون التبن؛ لما يلحقها من الربو، لنداوة البلد وعفونته.

وأما فارس وما اختصت به

فمن خصائصها: ماء الورد الذي لا يوجد مثله في سائر البلاد طيباً والجوري. الموصوف من أحد بلادها يُجلب إلى أقاصي البلاد، ويضرب به المثل. ولشيراز من بلاد فارس فغمة طيبة ليست فيما عادها من بلاد فارس.

وأما أصفهان وما اختصت به فهي موصوفة بصحة الهواء، وجودة التربة، وعذوبة الماء.

وحكي أن الحجاج ولى بعض خواصه أصفهان، فقال له: قد وليتك بلدة حجرها الكحل، وذبابها النحل، وحشيشها الزعفران.

ومن خصائص الرَّي: برودها موصوفة كبرود اليمن، وتسمى العدنيات تشبيهاً لها ببرود عدن. وفيها الثياب المنيرة. قالوا: واللص الحاذق ينسب إلى الرَّي.

وأما جرجان وما اختصت به

فهي سهلية جبلية، برية بحرية. وأهلها يعدون زيادة على مائة نوع من أنواع الرياحين، والبقول، والحشائش الصحراوية، والثمار والحبوب السهلية التي هي مبذولة بها للفقراء والغرباء.

ومن خصائصها: العناب الذي لا يكون في سائر البلاد مثله، ويقال: هي بغداد الصغرى، إلا أنها وبية، مختلفة الهواء في اليوم الواحد، قتالة للغرباء، كثيرة النداء. ويقال: جرجان مقبرة أهل خراسان.

وفي بعض الكتب القديمة أن بخراسان بلدة يقال لها جرجان، يساق إلى قصار الأعمار من الناس. وكان أبو تراب النيسابوري يقول: لما قُسمت البلادُ بين الملائكة، وقعت جرجان في قسم أبي يحيى "يعني ملك الموت".

وأما نيسابور وما اختصت به

فحكي عن عمرو بن الليث الصفار أنه كان يقول: كيف لا أقاتل عن بلدة حشيشها الريباس، وترابها النقل، وحجرها الفيروزج.

أراد بقوله: ترابها النقل طين الأكل الذي لا يوجد مثله في الأرض، ويحمل منها إلى أقاصي البلاد وأدانيها، ويتحف به الملوك. قالوا: وربما بيع الرطل منه بدينار. قال المأمون يصفه:

جد لي من النقل، فذاك الذي منه خلقنا وإليه نصير.
ذاك الذي يحسب في مثله أحجار كافور عليها عبير.

قالوا: والفيروزج لا يكون إلا في نيسابور، وربما بلغت قيمة الفص منه - الذي إذا أربى وزنه على مثقال، وجمع الخضرة والاستدارة، وصبر على النار، وامتنع على المبرد، ولم يتغير بالماء الحار - مائتي دينار. ويقال إن له خاصية في تقوية القلب بالنظر إليه، كما أن للياقوت خاصية في مسرة النفس.

ولما دخلها إسماعيل بن أحمد الساماني، ملك ما وراء النهر وخراسان، استحسنها واستطابها، وقال: يا لها من بلدة جليلة، لو لم يكن لها عيبان! كان ينبغي أن تكون مياهها التي في باطن الأرض على ظاهرها، وأن تكون مسالحها التي على ظهرها في بطنها. ومن خصائصها الثياب النيسابورية الرقاق. وأهلها لا يكرمون الغريب. قال المرادي:

لا تنزلنَّ بنيسابور مغترباً إلا وحبلك موصولٌ بسلطانِ.
أولا، فلا أدبٌ يغني ولا حسبٌ يجدي ولا حرمةٌ ترعى لإنسانِ.

وقال أيضاً فيها:

قال المرادي قولاً غير متهم، والنصح ما كان من ذي اللب مقبولُ:
لا تنزلن بنيسابور مغتربَاً، إن الغريب بنيسابور مخذولُ.

وأما طوس وما اختصت به

فمن خصائصها السبج الذي لا يكون إلا بها، ومنها ينقل إلى الآفاق، والحجر الأبيض الذي تتخذ منه القدور.

ويقال: إن الله عز وجل ألان لأهلها الحجارة كما ألان لداود الحديد، حتى إنهم يتخذون منها ما يتخذ غيرهم من الزجاج من سائر الأواني.

وأما بلخ وما اختصت به

فيقال: هي من أقدم البلاد وأخصها بالملوك، وهي شبيهة بالعراق، وخراسان، والهند. وإليها ينسب جيحون، فيقال: نهر بلخ. وكان سعيد بن الحسن يقول: العيش في الصيف ببلخ كتصحيفها. ومن خصائصها البخاتي والنيلوفر.

وأما بست وما اختصت به

فيقال: إن هواءها كهواء العراق، وماءها كماء الفرات؛ ومن خصائصها الإجاص الذي لا يوجد مثله في غيرها. ويقال: إن من مات ببست مغفوراً له فقد انتقل من جنة إلى جنة.

وأما غزنة وما اختصت به

فهي موصوفة بصحة الهواء،وجودة التربة، وعذوبة الماء، وهي جبلية شمالية؛ ومن خصائصها أن الأعمار بها طويلة، والأمراض قليلة. قالوا: وهي أرض تنبت الذهب، ولا تولد الحيات والعقارب

والحشرات المؤذية. ومنها خرج الأجلاء الأنجاد من الرجال.
وقال أبو سعيد منصور زعيم جرجان: لم أر بلدة في الصيف أطيب، وفي الربيع أشبه، ومن الحشرات أنظف من غزنة. ثم قال: إن قلة ثمارها من منافعها، لأن كثرة الثمار مقترنةٌ بكثرة الأمراض. وقد وصفها صاحب كتاب لطائف المعارف فقال:

واهاً لغزنة إذ غدت للملك والإسلام دارَاَ.
من كعبةٍ قد أصبحت للمجد والعليا مدارَاَ.
في صدرها الملك الذي قطب السعود عليه دارَاَ

وقال أيضا فيها:

يا دار ملك نرى كل الجمال بها وأسعد الدهر تبدو من جوانبها.
كأنما جنة الفردوس قد نزلت بأرض غزنة تعجيلاً لصاحبها.

وأما سجستان وما اختصت به
فيقال فيها: ماؤها وشل، وثمرها دقل، ولصها بطل. وما تختص به الطاسات وجلاجل البزاة، والطبول الموكبية، والفرش الديباج. وأما الهند وما اختصت به فيقال: الهند بحرها در، وجبلها ياقوت، وشجرها عود، وورقها عطر. وعود الهند يذكر مع أمهات الطيب. وفي الهند الفيل، والكركدن، والبير، والطاووس، والببغاء. وفيه الياقوت الأحمر، والصندل الأبيض والعاج، وأصناف العطر، والثياب المخملة وغيرها، واللنس، والأقمشة.
وأما الصين وما اختص به
فإن العرب تقول لكل طرفة من الأواني: صينية كائنةً ما كانت: لاختصاص الصين بالطرائف. وأهل الصين خصوا بصناعة الطرف، والملح، وخرط التماثيل، والإبداع في عمل النقوش والتصاوير، حتى إن مصورهم يصور الإنسان فلا يغادر شيئاً إلا الروح، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخجل، وبين المبتسم والمستغرب، وبين ضحك المسرور والهازئ، ويركب صورة في صورة.
وفيه مناديل الغمر التي إذا اتسخت وألقيت في النار، نقيت ولم تحترق. وفيه الحديد. وربما اشترى بأضعاف وزنه فضةً. وفيه السنجاب الفارحاني الذي هو من أنفس الأوبار. وفيه اللبود الجياد. قال الجاحظ في كتاب النظر في التجارة: إن خير اللبود الصينية، ثم المغربية الحمر، ثم الطالقانية البيض.
وأما سمرقند وما اختصت به
قال قتيبة بن مسلم، لما أشرف على سمرقند لأصحابه: شبهوها، فلم يأتوا فيها بشيء، فقال: كأنها السماء في الخضرة، وكأن قصورها النجوم الزاهرة، وكأن أنهارها المجرة. فاستحسنوا هذا التشبيه. ومن خصائصها: الكواغد التي عطلت قراطيس مصر، والجلود التي كان الأوائل يكتبون عليها، لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأرق. ولا تكون إلا بها وبالصين. ومن خصائصها الثياب الوذارية، والنشادر، والزئبق، والبندق. وأما بلاد

الترك وما اختصت به فإنه يقال. إنها توازن بلاد الهند في كثرة الخصائص. وفيها المسك والسنجاب والسمور والقاقم والفنك والثعالب السود والأرانب البيض وغير ذلك.
وفيها البزاة البيض والخيل. وتثبت من بلاد الترك خاصيةً : أنه من أقام بها اعتراه سرور لا يدري ما سببه، ولا يزال متبسماً ضاحكاً؛ وأن الميت إذا مات فيها لا يدخل على أهله كبير حزن كما يلحق غيرهم عند موت محبوب.
وأما خوارزم وما اختصت به
فأنها تقارب بلاد الترك، بل تنافسها في الخصائص والمتاجر.
ومن خصائصها البطيخ الذي يقال له النارنج يقال إنه أحلى البطاطيخ وأطيبها. وكان يحمل منها إلى المأمون وإلى الواثق في قوالب الرصاص. معبأة في الثلج. فكانت تقوم الواحدة منه - إذا سلمت ووصلت - بسبعمائة درهم. والله أعلم. ذكر
الخصائص التي تجري مجرى الطلسمات منها: مدينة خبيص من مدن كرمان. لا يمطر المطر فيها داخل السور أبداً حتى إن الرجل يخرج يده من سورها إلى خارجها، فتبتل يده ولا يبتل ساعده. وبقرية من قرى كرمان أيضاً حصن عادي ليس فيه فأر. وإذا دخل إليه فأر، مات. ومدينة حمص لا يوجد فيها عقرب. وإذا نثر ترابها على ظهر عقرب، ماتت.
وكذلك قلعة أعزاز من أعمال حلب. ويقال إنه لا يدخل مدينتها حية. ومتى نثر عليها من ترابها، ماتت لوقتها. ولا يوجد فيها بعوض البتة. وإن الرجل متى أخرج يده من السور، وقع عليها؛ فإذا أدخل يده، طار عنها.
وبمصر أن التماسيح إذا ساقها الماء إليها وحاذتها، انقلبت على ظهرها. فإذا بعدت عنها، لا تضر أحدا. بخلاف ما هي في بلاد الصعيد، فإنها تفترس جميع ما تظفر به من الحيوان حتى الخيل. ولا يقوى على قتالها إلا الجاموس.
ومدينة سجلماسة لا يوجد فيها ذباب البتة ذكر خصائص البلاد في أشياء مختلفة
"وهي العلم، والعمل، والجواهر، والملابس، والأوبار، والفرش، والمراكب، والحيوانات ذوات السموم، والحلوى، والثمار، والرياحين، والخلق، والأخلاق، والأمراض، والآثار العلوية." أما خصائصها العلمية والعملية، فيقال: حكماء اليونان، وأطباء جنديسابور، وصاغة حران، وحاكة اليمن، وكتاب السواد.
ومن خصائصها في الجواهر، يقال:فيروزج نيسابور، وياقوت سرنديب، ولؤلؤ عمان، وزبرجد مصر، وعقيق اليمن، وجزع ظفار، وبجادي بلخ، ومرجان إفريقية. ومن خصائصها في الملابس، يقال: برود اليمن، ووشي صنعاء، وريط الشام، وقصب مصر، وديباج الروم، وقز السوس، وحرير الصين، وأكسية فارس، وحلل أصبهان، وسقلاطون بغداد، وعمائم الأبلة، ومنير الري، وملحم مرو، وتكك أرمينية، ومناديل الدامغان، وجوارب قزوين.

ومن خصائصها في الأوبار، يقال: سنجاب خريز، وسمور بلغار، وثعالب الخزر، وفنك كاشغر، وحواصل هراة، وقاقم تغزغز.
ومن خصائصها في الفرش، يقال: بسط أرمينية، وزلالي قاليقلا،ومطارح ميسان وحصر بغداد. ومن خصائصها في المراكب، يقال: عتاق البادية، ونجائب الحجاز،- وبراذين طخارستان، وحمير مصر، وبغال برذعة. ومن خصائصها في الحيوانات ذوات السموم، يقال: أفاعي سجستان، وحيات أصفهان، وثعابين مصر، وعقارب شهرزور، وجرارات الأهواز، وبراغيث أرمينية، وفأر أرزن، ونمل ميافارقين، وذباب تل فافان، واقداح نلد. ومن خصائصها في الحلواء، يقال: سكر الأهواز، وعسل أصفهان، وفانيذ ماكسان ودبس أرجان.
ومن خصائصها في الثمار، يقال: رطب العراق، وتمر كرمان، عناب جرجان، وإجاص بست، وسفرجل نيسايور، وتفاح الشام، ومشمش طوس، وكمثرى نهاوند، وأترج طبرستان، ونارنج البصرة، وتين حلوان، وعنب بغداد، وقشمش هراة وموز اليمن، وجوز الهند، وبطيخ خوارزم، وباقلاء الكوفة. ومن خصائصها في الرياحين، يقال: نرجس جرجان، وورد جور، ونيلوفر السيروان، ومنثور بغداد، وزعفران قم، شاهسفرم سمرقند.
ومن خصائصها في الخلق والأخلاق، ويقال: شقرة الروم، وسواد الزنج، وغلظ الترك، وجفاء الجيل، ودمامة الصين، قصر يأجوج. ومن خصائصها في الأمراض، يقال: طواعين الشام، وطحال البحرين، ودماميل الجزيرة،
وجنون حمص، وعرق اليمن، ووباء مصر، وبرسام العراق، والنار الفارسية، وقروح بلخ. ومن خصائصها في الآثار العلوية، يقال: شتاء أرمينية، ومصيف عمان، وصواعق تهامة، وزلزال دبيل.
وقال الجاحظ في كتاب الأمصار: الصناعة بالبصرة، والفصاحة الكوفة، والتخنيث ببغداد، والطرمذة بسمرقند، والغي بالري، والجفاء بنيسابور، والحسن بهراة، والمروءة ببلخ، والعجائب بمصر.
وحكي عن عمر بن عامر مزيقياً، إنه قال لقومه لما تحقق كون سيل العرم: من كان ذا شاء وبعير وجمل غير شرود، فليلحق بالعشب من كوفان، فلحقت به همذان؛ ومن كان ذا سياسة وصبر على أزمات الدهر فليلحق ببطن مر، فلحقت به خزاعة. ومن كان يريد الراسخات في الوحل، المطعمات في المحل، فليلحق بيثرب ذات النخل، فلحقت بها بنو قيلة، وهم الأوس والخزرج؛ ومن كان يريد الخمر والخمير والأمر والتأمير فليلحق ببصرى وسدير "وهي من أرض الشام"، فلحقت به غسان؛ ومن كان يريد الثياب الرقاق، والخيول العتاق، والذهب والأوراق، فليلحق بالعراف، فلحقت به لخم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الباب الثالث

من القسم الخامس من الفن الأول

"في المباني القديمة"

والمباني القديمة كثيرة، فلنذكر منها ما عظم خطره، وشاع في الآفاق ذكره

ذكر أول بناء وضع على وجه الأرض

قيل: أول ما بني على وجه الأرض الصرح ويسمى المجدل بناه النمرود الأكبر ابن كوش بن حام بن نوح، بكوثي ربي من أرض بابل. قيل: وبها إلى هذا العصر من أثره كالجبال. وكان طوله في الهواء خمسة آلاف ذراع، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع. وكان مبينا بالحجارة والرصاص والكلس والشمع واللبان. بناه ليمنعه وقومه من بأس الله عز وجل. وكان قد كفر وطغى وادعى الألوهية، فأرسل الله تعالى إليه جبريل، فضربه بخافقة جناحه فهدمه، وهام من كان حوله على وجهه، وقد تبلبلت ألسنتهم من الدهش والذعر، فكانت عنه هذه اللغات التي يتكلم بها سائر الأمم، وهي اثنتان وسبعون لغة، وسميت تلك الأرض التي كان بها بابل.

ذكر خبر إرم ذات العماد

وهي التي ذكرها الله عز وجل في كتابه العزيز، فقال تعالى: "ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد". وكان سبب عمارتها أن شداد بن عاد بن إرم لما سمع وصف الجنة سولت له نفسه أن يبني مثلها. فبنى مدينة حضرموت وصنعاء، طولها اثنا عشر فرسخا، وعرضها مثل ذلك. وأحاط بها سوراً ارتفاعه خمسمائة ذراع، غشاه بصفائح الفضة المموهة بالذهب، فلا يدركه البصر إذا أشرقت عليه الشمس. وبنى داخلها مائة ألف قصر "بعدد رؤساء أهل مملكته" من الذهب والفضة، وكذلك جذوع سقوفها وأعمدتها. وأجرى في وسطها نهرا صفح أرضه بالذهب، وجعل على حافتيه أنواع الجواهر واليواقيت بدلاً من الحصباء وألقى فيه المسك والعنبر بدلا من الحمأة. وفرع منه جداول إلى تلك القصور والمنازل، وغرس على شطوطها من الأشجار ما كان لزهره عرفٌ طيبٌ ورائحةٌ ذكية.

زعموا أنه أقام في بنائها ثلاثمائة سنة، فلما تم بناؤها، زاد في طغيانه وخرج من حضرموت إليها ليسكنها. فلما أشرف عليها جاءته صيحة من السماء فأهلكته هو وجنوده.

ويروى أن عبد الله بن قلابة خرج في طلب إبل له ندت فوقع عليها، فحمل ما قدر عليه، فبلغ معاوية خبره، فاستحضره وسأله فقص عليه قصته. فبعث معاوية إلى كعب الأحبار، فقال: هي إرم ذات العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك: أحمر قصير، على حاجبه خال، وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل ندت. ثم التفت فرأى ابن قلابة فقال: هذا والله ذاك الرجل. وزعم الأخباريون أنه كان بها أربعمائة ألف وأربعون ألف عمود، ولهذا سميت ذات العماد. وقد ذهب قوم إلى أنها دمشق.

وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر إرم ذات العماد بما هو أبسط من هذا عند ذكرنا لخبر شديد وشداد، ابني عاد؛ وهو في الباب الخامس من القسم الأول، من الفن الخامس في التاريخ، وذلك في السفر الحادي عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا فتأمله هناك. والله تعالى أعلم.

ذكر خبر سد يأجوج ومأجوج

هو في الإقليم السادس في آخر الجزء التاسع من تجزئة عشرة أجزاء. قال صاحب كتاب نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق إن الواثق بالله لما رأى في المنام كأن السد الذي بناه ذو القرنين مفتوح، أحضر سلاما الترجمان وقال له: اذهب فانظر إلى هذا السد وجئني بخبره وحاله وما هو عليه، ثم أمر له بأصحاب يسيرون معه، عددهم خمسون رجلا، ووصله بخمسة آلاف دينار، وأعطاه ديته عشرة آلاف درهم، وأمر أن يعطي كل واحد من أصحابه الخمسين ألف درهم ورزق سنة، وأمر لهم بمائة بغل تحمل الماء والزاد. قال سلام الترجمان: فشخصنا من سامرا بكتاب الواثق إلى إسحاق بن إسماعيل صاحب أرمينية بالنظر إلى تنفيذنا من هناك؛ فكتب لنا كتابا إلى ملك السرير وأنفذنا إليه. فلما وردنا عليه، أشخصنا إلى ملك اللان. فلما وصلنا إليه، أشخصنا إلى صاحب فيلان شاه. فلما وردنا عليه "أرسلنا إلى ملك الخزر وهو" اختار لنا خمسة أدلاء يدلون على الطريق. فسرنا من عنده سبعة وعشرين يوما في تخوم بلاد بسجرت إلى أن وصلنا إلى أرض سوداء طويلة ممتدة كريهة الرائحة، فشققناها في عشرة أيام. وكنا قد تزودنا لقطعها أشياء نشمها خوفا من أذى روائحها الكريهة. ثم انفصلنا عنها فسرنا مدة شهر في بلاد خراب قد درست أبنيتها ولم يبق منها إلا رسوم يستدل بها عليها. فسألنا من معنا عن تلك المدن، فأخبرونا أنها المدن التي كان يأجوج ومأجوج يغزونها ويخربونها. ثم سرنا إلى حصون بالقرب من الجبل الذي في شعبة السد وذلك في ستة أيام. وفي تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية والفارسبة. وهناك مدينة يدعى ملكها خاقان بن أدكش، وأهلها مسلمون لهم مساجد ومكاتب، فسألونا من أين أقبلنا، فأخبرناهم أنا رسل أمير المؤمنين الواثق بالله، فعجبوا منا ومن قولنا أمير المؤمنين ثم سألونا عن أمير المؤمنين: أشيخ هو أم شاب؟ فقلنا: شاب، فعجبوا أيضا. ثم قالوا: وأين يكون؟ قلنا: هو بالعراق بمدينة سر من رأى. فعجبوا أيضا من ذلك، وقالوا: ما سمعنا هذا قط. فسألناهم عن إسلامهم من أين وصلهم ومن علمه لهم؟ فقالوا: وصل إلينا منذ أعوام كثيرة رجل راكب على دابة طويلة العنق طويلة اليدين والرجلين، لها في موضع صلبها حدبة، "فعلمنا أنهم يصفون الجمل "قالوا: فنزل بنا وكلمنا بكلام فهمناه، ثم علمنا شرائع الإسلام فقبلناها، وعلمنا أيضا القرآن ومعانيه فتعلمناه وحفظناه. قال سلام: ثم خرجنا بعد هذا إلى السد لنبصره، فسرنا عن المدينة نحوا من فرسخين،

فوصلنا إلى السد.فإذا جبل مقطوع بواد عرضه مائة وخمسون ذراعا، وله في وسط هذا الفناء باب من حديدطوله خمسون ذراعا قد اكتنفه عضادتان، عرض كل عضادة منهما خمسة وعشرون ذراعا. والظاهر من تحتها عشرة أذرع خارج الباب. وكله مبنى بلبن الحديد مغيب بالنحاس. وارتفاع العضادتين خمسون ذراعا، وعلى أعلى العضادتين درواند حديد، طوله مائة وعشرون ذراعا، والدروند للعتبة العليا، وقد ركب منها على كل واحدة من العضادتين مقدار عشرة أذرع. ومن فوق الدروند بنيان متصل بلبن الحديد المغيب بالنحاس إلى رأس الجبل، وارتفاعه مد البصر. وفوقه شرافات حديد، في طرف كل شرافة قرنتان تنثني أطراف كل واحدة منهما على الأخرى، وللباب مصراعان مغلقان، عرض كل مصراع خمسون ذراعا في ثخن خمسة أذرع؛ وقائمتاهما في دوارة على قدر الدروند. وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع في غلظ ذراع في الاستدارة؛ وارتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعا. وفوق القفل بخمسة أذرع غلق طوله أكثر من طول القفل وعلى الغلق مفتاح طوله ذراع ونصف، وله اثنتا عشرة دنداجة، كل دنداجة منها كأغلظ ما يكون من دساتخ الهواوين، معلق كل واحد منها بسلسلة على قدر حلقة المنجنيق. وعتبة الباب السفلى عشرة أذرع بسط مائة ذراع سوى ما تحت العضادتين الظاهر منها خمسة أذرع. وكلها مكتالة بالذراع السوادي. ورئيس ذلك الحصن يركب في كل جمعة مع عشرة فوارس، مع كل فارس إرزبة حديد، كل إرزبة خمسة أمنان فيضرب القفل بتلك الإرزبات في كل يوم ثلاثة مرات ليسمع من خلف الباب. فيعلم أن هناك حفظةً، وليعلم هؤلاء أن يأجوج ومأجوج لم يتحدثوا في الباب حدثا وإذا ضرب أصحاب الإرزبات القفل، وضعوا آذانهم ليسمعوا ما وراء الباب فيسمعون من ورائه دويا يدل على أن خلفه بشرا. وبالقرب من هذا الموضع حصن يكون عشرة "فراسخ"في عشرة "فراسخ". ومع الباب حصنان يكون كل واحد منهما مائتي ذراع في مائتي ذراع؛ وبين هذين الحصنين عين ماء عذبة، في أحد الحصنين آلة البناء التي بني بها السد من قدور الحديد ومغارف الحديد؛ والقدور فوق ديكدانات على كل ديكدان أربع قدور مثل قدور الصابون؛ وهناك أيضا بقايا من لبن الحديد التي بنى بها السد وقد التصق بعضها ببعض من الصدإ، وطول اللبنة ذراع ونصف في ارتفاع شبر. قال سلام الترجمان: وقد سألنا من خاطبناه من أهل تلك الجهات هل رأوا أحدا من يأجوج ومأجوج قط، فأخبرونا أنهم رأوا منهم" مرة" عددا فوق شرفات الردم، فهبت عليهم ريح عاصفة، فرمت منهم ثلاثة إلى ناحيتنا. وكان مقدار الرجل منهم شبرين ونصفا. قال سلام : فكتبت هذه الصفات كلها، ثم انصرفنا مع الأدلاء من تلك الحصون فأخذوا بنا على ناحية خراسان. فسرنا إلى مدينة بختان، إلى غريان، إلى مدينة برساخان، إلى انطرار، إلى

سمرقند، فوصلنا إلى عبد الله بن طاهر، ثم وصلنا إلى الري، ثم رجعنا إلى سر من رأى بعد خروجنا عنها. فكان مغيبنا في سفرنا ثمانية وعشرين شهرا. قال: فهذا جميع ما حدث به سلام.

وقال الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي في تفسيره: إن ارتفاع السد مائة ذراع وخمسون ذراعا. قال: وروي في طوله ما بين طرفي الجبلين مائة فرسخ، وفي عرضه خمسون ذراعا. نقله عن وهب بن وهب بن منبه.

وسنذكر إن شاء الله تعالى في أخبار السد وكيفية بنائه وطوله وعرضه، وغير ذلك مما هو متعلق به عند ذكرنا لأخبار ذي القرنين فتأمله هناك، وهو في الباب الأول من القسم الرابع من الفن الخامس في التاريخ، وهو في السفر الثاني عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا.

ذكر مباني الفرس المشهورة

ومباني الفرس كثيرة: قديمة وحديثة. فمن قديمها سد اللبن. بناه قباذ بن فيروز، وقيل إن الذي بناه ابنه كسرى ابن قباذ فيروز. كذا ورد في التاريخ. وهذا السد من أرض شروان إلى بلاد اللان، وبينهما مائة فرسخ، بين شعاب جبل القبق. وهو جبل عظيم قد اشتمل على اثنتين وسبعين أمة، لكل أمة لسان وملك، لا يعرف بعضهم بعضا لكثرة غياضه وأشجاره؛ وفيه عيون وأنهار؛ وتقدير مسافة طولا وعرضا نحو شهرين.

ومبدأ السور من جوف بحر الخزر على مقدار مسافة ميل مارا إلى البر، ثم يمر إلى أن يتصل بقلعة طبرشروان. وهو مبنى بالصخر والحديد والرصاص. بناه على زقاق البقر المنفوخة، فكان كلما ارتفع البناء نزلت تلك الزقاق إلى أن استقرت في قعر البحر، فغاصت الرجال بالخناجر فشقوها فتمكن البناء. وجعل بين كل ثلاثة أميال من السور وأقل وأكثر بابا من الحديد على حسب الطريق التي تجعل من أجله، وبنى عليه حصنا وأسكن فيه من يحفظ ذلك الباب ويحرسه.

وزعم المؤرخون أن سبب بناؤه لهذا السور أن الخزر كانت تغير على بلد فارس إلى أن تبلغ همذان والموصل، فحجزهم بهذا السور.

ومن مباني الفرس إيوان كسرى

زعم المسعودي أن سابور ذا الأكتاف بناه في نيف وعشرين سنة، وطوله مائة ذراع في عرض خمسين ذراعا في ارتفاع مائة ذراع، وطول كل شرفة منه خمسة عشر ذراعا. ولما ملك المسلمون المداين، أحرق ستر هذا الإيوان فأخرجوا منه مائة ألف دينار ذهبا.

ولما بنى المنصور بغداد أحب أن ينقضه ويبنيها به، فاستشار خالد بن برمك في ذلك فنهاه، وقال: هو آية للإسلام، ومن رآه علم أن الذي بناه لا يزيل ملكه إلا نبي والمؤون على نقضه اكثر من الارتفاق به. فقال له: أبيت إلا ميلا إلى العجم فهدمت منه

ثلمة . فبلغت النفق عليها مالا كثيرا، فأمسك المنصور عن هدمه، فقال له خالد: أنا الآن ، يا أمير المؤمنين، أشير بهدمه لئلا يتحدث الناس بعجزك عن هدم ما بناه غيرك فلم يفعل.
وحكي مثل هذه القصة أنها وقعت ليحيى بن خالد مع الرشيد، وهو إذ ذاك في اعتقاله. وكان الرشيد بلغه أن تحته كنزا فأراد هدمه واستشار يحيى فاشار عليه بمثل هذا. ومن عجيب ما يحكى من تقلب الأحوال أن بعض شرفاته هدمت وجعلت في أساس سور بغداد.
وقال ابن الأثير في تاريخه إن الإيوان باق إلى الآن. "وكان يوم ذاك في سنة خمس وعشرين وستمائة"، والله أعلم.
ومن المباني القديمة الحضر
وكان حصناً حصيناً مبنياً بالرخام، يسكنه ملوك الضيازن. وهو بين دجلة والفرات، بحيال تكريت.
ويقال إن بانيه الساطرون. وذكر أن قصر ملكه قائم إلى وقتنا هذا في وسط المدينة، وفي وسطه هيكل مربع مبني بالصخر، وفيه صور دقيقة المعاني. حكي أن سابور الجنود حاصره أربع سنين فلم يقدر عليه. واتفق أن بنت ملكه وهي النضرة بنت الضيزن حاضت ، فأخرجت من القصر إلى ربضة لأجل ذلك فرأت سابور، وكان جميل الصورة، فعشقته. فأرسلت إليه تقول: إن ملكتك الحصن فما تجعل لي؟ قال: حكمتك. قالت: تتزوج بي. فأجابها إلى ذلك، فقالت له: خذ حمامه ورقاء مطوقة، فأخضب رجليها بدم حيض جارية بكر زرقاء، وأرسلها. فإنها تقع على سور البلد فيقع لوقته. وكان ذلك حل طلسم له. ففعل ذلك، فوقع السور ودخل سابور الحصن وقتل ملكه وأصحابه واصطفى ابنته لنفسه فلما كانت ليلة دخولها عليه، لم تزل متململة قلق طول ليلتها، فالتمس سابور ما الذي قلقت من أجله، فإذا ورقة آس قد لصقت بعكنة من عكنها، فقال لها ما كان أبوك يغدوكِ؟ فقالت: الزبد والمخ وشهد أبكار النحل والخمر، فقال لها: أنا أحق منك بثار أبيك، ثم أمر رجلا أن يركب فرسا جموحا وأن يربط غدائرها في ذنبه ويركض به ففعل ذلك، فتقطعت.
وهذا الحصن قد اختلف في موضعه. فقيل: بحيال تكريت بين دجلة والفرات. وقيل: بالجزيرة. ويقال إنه كان حاجزا بين الروم والفرس، وملكته الزباء بنت مليح واسمه فارعة. وفيه يقول عدي بن زيد العبادي من قصيدة:

وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجل ة تجبي إله والخابور.
شاده مرمراً وكلله كل سا فللطير في ذراه وكُورُ.
لم يهبه ريب المنون فباد الم لك عنه فبابه مهجورُ.

ومن المباني القديمة القليس
وهي كنيسة كانت باليمن بناها أبرهة بن الصباح، ملك اليمن بصنعاء. ونقل إليها الرخام المجزع والملون، والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس. وكان أراد أن يرفع بناءها

حتى يشرف منها على بحر عدن، فلما أهلكه الله تعالى وفرق ملكه، أقفر ما حول هذه الكنيسة، وكثرت حولها السباع والحشرات. وبقيت إلى زمن السفاح فذكر له أمرها، فبعث إليها من خربها وأخذ ما كان فيها. حكى ذلك السهلي في الروض الأنف.

وحكى كيفية بناء هذه الكنيسة أنه كان لها باب من نحاس طوله عشرة أذرع وعرضه أربعة أذرع يدخل منه إلى بيت طوله ثمانون ذراعا وعرضه أربعون ذراعا، مسقف بالساج المنقوش، مسمر بمسامير الذهب والفضة. ثم يدخل من البيت إلى إيوان معقود طوله أربعون ذراعا، عن يمينه ويساره عقود مزخرفة ثم يدخل من الإيوان إلى قبة، ثلاثون ذراعا في ثلاثين ذراعا، جدرها مموهة بالذهب والفضة. وفي صدر القبة منبر من الأبنوس المرصع بالعاج، المصفح بالذهب والفضة. ولما تم بناؤها، خرج رجل من بني كنانة فقعد فيها ليلا "أي أحدث"، فأغضب أبرهة ذلك، فحلف ليهدمن الكعبة، فخرج بجيش كثيف من الحبشة، فكان من أمره ما قصه الله تعالى في كتابه العزيز في سورة النمل: "ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم إنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لمن يعلمون".

وذكر لي أن الذي خربها العباس بن الربيع بن عبد الله العامري، عامل المنصور على اليمن.

ومن المباني المشهورة قنطرة صنجة

وهي من مباني الروم على نهر عظيم يسمى بهذا الاسم، يصب في الفرات، لا يمكن خوضه: لأن قراره رمل سائل متى وطئه الإنسان برجله سال. وهو ما بين حصن منصور وكيسوم من ديار بكر. وهذه القنطرة طاق واحد، ما بين جدرانها مائة خطوة. وهي مبنية بحجارة مهندمة، طول الحجر منها عشرة أذرع في ارتفاع خمسة أذرع.

ومن المباني القديمة ملعبا بعلبك وهما كبير وصغير.

فالكبير، يحكى أنه من بناء سليمان بن داود عليهما السلام. وهو مبنى على عمد شاهقه،وحجارته منها ما هو عشرة أذرع وأكثر. والملعب الصغير تهدم أكثره وبقي منه حائط طوله عشرون ذراعا وارتفاعه كذلك. ليس فيه إلا سبعة أحجار: واحد من أسفله، وحجران فوقه، وأربعة أحجار فوقهما ويقال إنه البيت الذي كان فيه الصنم الذي كان يدعى بعلا.

ذكر مباني العرب المشهورة

وهي غمدان، وحصن تيما، والخورنق، والسدير، والغريان. قال الجاحظ: أحبت العرب أن تشارك الفرس في البناء وتنفرد بالشعر، فبنوا: غمدان، وكعبة نجران، وحصن مارد، والأبلق الفرد.

فأما غمدان

فكان بصنعاء. زعم بعض المؤرخين أن بانيه حام بن نوح. وزعم آخرون أن بيوراسب بناه على اسم الزهرة.
وقال ابن هشام إن الذي أسسه يعرب بن قحطان، وأكمله بعده وائل بن حمير ابن سبأ بن يعرب. وخربه عثمان بن عفان، رضي الله عنه. وقيل في صفته إنه كان مربعا، أحد أركانه مبنية بالرخام الأبيض، والثاني بالرخام الأصفر، والثالث بالرخام الأخضر، والرابع بالرخام الأحمر. وفيه سبعة سقوف طباقا، ما بين السقف والآخر خمسون ذراعا، وعلى كل ركن تمثال أسد من نحاس إذا هبت الريح دخلت من دبره وخرجت من فيه، فيسمع لها صوت كزئير الأسد. وقال ابن الكلبي: كان على كل ركن من أركان غمدان مكتوب أسلم غمدان، معاديك مقتول بسيف العدوان.
ويقال: إن سليمان بن داود عليهما السلام أمر الشياطين أن يبنوا لبلقيس أربعة قصور: غمدان، وصرواح، وبينين، وسلحين. وكلها باليمن.
ويروى أن عمر بت الخطاب رضي الله عنه قال: لا يستقيم أمر العرب ما دام فيها غمدانها. وهذا القول هو الذي حض عثمان على هدمه. ويقال إن آثاره باقية إلى عصرنا هذا، وإنه تل عال مطل على صنعاء.
وأما حصن تيماء
فهو الأبلق الفرد. سمي بالأبلق الفرد لأنه كان مبنيا بحجارة مختلفة الألوان وهو بأرض تيماء. بناه السموءل بن عاديا اليهودي. ويقال إنه من بناء سليمان داود عليه السلام. وبه تضرب العرب المثل في المنعة والحصانة. وفيه يقول الشاعر:
طلب الأبلق العقوق فلما لم ينله فرام بيض الأنوق.
وقصدت الزباء هذا الحصن وحصن ما ردٍ فلم تقدر عليهما، فقالت: تمرد ما رد وعز الأبلق. وما رد حصن كان بدومة الجندل مبني بحجارة سود. ويقال إنه أيضا من بناء السموءل بن عاديا اليهودي.
وأما الخورنق والسدير فكان الخورنق على ثلاثة أميال من الحيرة والسدير في تربة بالقرب منها: بناها النعمان بن امرئ القيس، وهو النعمان الأكبر. ويقال في سبب بنائه لهما: إن يزد جرد بن سابور كان لا يعيش له ولد، فسأل عن مكان صحيح الهواء، فذكر له ظهر الحيرة. فدفع ابنه بهرام جور إلى النعمان وأمره ببناء الخورنق. فبناه على نهر سنداد في عشرين سنة. بناه له رجل يسمى سنمار.
فلما فرغ من بنائه،عجب النعمان من حسن بنائه واتقانه، فأمر أن يلقي سنمار من اعلاه حتى لا يبني مثله لأحد. ويقال إنه إنما فعل ذلك به لأنه لما أعجبه، شكره على عمله ووصله، فقال: لو علمت أن الملك يحسن إلي هذا الإحسان، لبنيت له بناء يدور مع الشمس كيفما دارت، فقال له النعمان: وإنك لتقدر على أن تبني أفضل منه، ولم تبنه؟ فأمر به؛ فطرح من أعلاه.

وقيل: بل قال: أنا أعرف فيه حجرا متى أخذ من موضعه، تداعى البناء. فخاف النعمان إن هو لم ينصفه في أجرته فعل ذلك. فقتله. والعرب تضرب المثل بفعل النعمان مع سنمار في المكافأة على الفعل الحسن بالقبيح، فيقال:
جازاه مجازاة سنمار.
وفيه يقول بعض الشعراء:

جزاني جزاه الله شر جزائه جزاء سنمارٍ، وما كان ذا ذنب.
سوى رفعه البنيان عشرين حجةً يعليً عليه بالقراميد والسكب.

والخورنق تعريب خورنقاه، وهو الموضع الذي يؤكل فيه ويشرب. والسدير تعريب سادل أي قبة في ثلاث قباب متداخلة. وفي هذه الأبنية يقول الأسود ابن يعفر:

ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم، وبعد إياد؟
أهل الخورنق والسدير وبارقٍ والقصر ذي الشرفات من سنداد.

وقال عدي بن زيد العبادي:

وتفكر رب الخورنق إذ أشرف يوماً، وللهدى تفكير.
سره ملكه وكثرة ما يحويه والبحر معرضا والسدير.
فارعوى قلبه، فقال: فما غبطة حيً إلى الممات يصير؟

وأما الغرِيان
فهما أسطوانتان كانتا بظاهر الكوفة. بناهما النعمان بن المنذر بن ماء السماء، على جاريتين كانتا قينتين تغنيان بين يديه. فماتتا، فأمر بدفنهما وبنى عليهما الغريين. ويقال إن المنذر غزا الحارث بن أبي شمر الغساني، وكان بينهما وقعة على عين أباغ، وهي من أيام العرب المشهورة. فقتل للحارث ولدان، وقتل المنذر وانهزمت جيوشه. فأخذ الحارث ولديه وجعلهما عدلين على بعير، وجعل المنذر فوقهما، وقال: "ما العلاوة بدون العدلين! " فذهبت مثلا. ثم رحل إلى الحيرة فانتهبها وحرقها ودفن ابنيه بها، وبنى الغريين عليهما. حكاه ابن الأثير في تاريخه الكامل.
وأمر المنصور بهدم أحدهما، لكنز توهم أنه تحتهما. فلم يجد شيئا. وقيل في سبب بنائهما غير ذلك. والله أعلم ذكر الأبنية القديمة التي بالديار المصرية وهي الأهرام، وحائط العجوز، وملعب أنصنا، ومدينة عين شمس، والبرابي، وحنية اللازورد، ومنارة الإسكندرية، ورواق الإسكندرانيين.
فأما الأهرام
التي بأرض مصر فهي كثيرة. وأعظمها الهرمان اللذان بالجيزة غربي مصر. وقد اختلف في بانيهما. فقال قوم: بانيهما سوريد بن سهلوق بن سرناق. بناهما قبل الطوفان لرؤيا رآها، فقصها على الكهنة، فنظروا فيما تدل عليه الكواكب النيرة من أحداث تحدث في العالم، فأقاموا مراكزها في وقت المسألة. فدلت على أنها نازلة من السماء تحيط بوجه الأرض. فأمر حينئذ ببناء

البرابي والأهرام، وصور فيها صور الكواكب ودرجها وما لها من الأعمال وأسرار الطبائع والنواميس وعمل الصنعة.
ويقال إن هرمس المثلث بالحكمة "وهو الذي يسميه العبرانيون أخنخ، وهو إدريس عليه السلام" استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان. فأمر ببناء الأهرام وإيداعها الأموال وصحائف العلوم وما يخاف عليه الذهاب والدثور.
وكل هرم منها مربع القاعدة، مخروط الشكل، ارتفاع عموده ثلاثمائة ذراع وسبعة عشرة ذراعا، يحيط به أربعة سطوح متساويات الأضلاع، كل ضلع منها أربعمائة ذراع وستون ذراعا، ويرتفع إلى أن يكون سطحه مقدار ستة أذرع في مثلها. ويقال إنه كان عليه حجر شبه المكبة فرمته الرياح العواصف.
وهو مع هذا العظم من إحكام الصنعة وإتقان الهندسة وحسن التقدير بحيث أنه لم يتأثر إلى يومنا هذا بعصف الرياح وهطل الأمطار وزعزعة الزلازل؛ وطول الحجر منه خمسة أذرع في سمك ذراعين.
ويقال إن بانيهما جعل لهما أبوابا على آزاج مبنية بالحجارة في الأرض، طول كل أزج منها عشرون ذراعا. وكل باب من حجر واحد يدور بلولب، إذا أطبق لم يعلم أحد أنه باب. فأزج الشرقي منها في ناحية الجنوب، وأزج الغربي في ناحية الغرب. يدخل من كل باب منها إلى سبعة بيوت، كل بيت منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة؛ وكلها مقفلة بأقفال. وحذاء كل بيت منها صنم من ذهب مجوف، إحدى يديه على فيه، وفي جبهته كتابة بالمسند إذا قرئت انفتح فوه فتوجد فيه مفاتيح ذلك القفل فيفتح بها.
والقبط يزعمون أنها والهرم الصغير الملون قبور: فالهرم الشرقي فيه سوريد الملك، وفي الهرم الغربي أخوه هوحيت. والصابئة تزعم أن أحدها قبر أغاثديمون، والآخر قبر هرمس، والملون قبر صاب ابن هرمس؛ وإليه تنسب الصابئة على قول من زعم ذلك منهم؛ وهم يحجون إليها ويذبحون عندها الديكة والعجول السود، ويبخرون بدخن؛ ويزعمون أنهم يعرفون عند اضطراب ما يذبحون حالة الذبح ما يريدون عمله من الأمور الطبيعية.
وقصرت همم الملوك والخلفاء عن معرفة ما في هذين الهرمين، إلى أن ولي عبد الله المأمون الخلافة وورد مصر، أمر بفتح واحد منها. ففتح بعد عناء طويل، واتفق لسعادته أنه وقع النقب علة مكان يسلك منه إلى الغرض المطلوب، وهو زلاقة ضيقة من الحجر الصوان الماتع الذي لا يعمل فيه الحديد، بين حاجزين ملتصقين بالحائط قد نقر في الزلاقة حفر، يتمسك السالك بتلك الحفر، ويستعين بها على المشي في الزلاقة لئلا يزلق، وأسفل الزلاقة بئر عظيمة بعيدة القعر. ويقال إن أسفل البئر أبواب يدخل منها إلى مواضع كثيرة وبيوت ومخادع وعجائب.

وانتهت بهم الزلاقة إلى موضع مربع في وسطه حوض من حجر صلد مغطى. فلما كشف عنه غطاؤه، لم يوجد فيه إلا رمة بالية. فأمر المأمون بالكف عما سواه. وهذا الموضع يدخله الناس إلى وقتنا هذا.

وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر الأهرام عند ذكرنا لأخبار ملوك مصر الذين كانوا قبل الطوفان وبعده، وذلك في الباب الثاني من القسم الرابع من الفن الخامس، وهو في السفر الثاني عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا فتأمله هناك. وقال بعض أهل النظر، وقد عاين الأهرام: كل بناء يخاف عليه من الدهر، إلا هذا البناء فإني أخاف على الدهر منه. ونظم عمارة اليمني هذا القول، فقال:

خليلي، ما تحت السماء بنيةٌ تماثل في إتقانها هرمي مصر!
بناء يخاف الدهر منه، وكل ما على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر!
تنزه طرفي في بديع بنائها، ولم يتنزه في المراد بها فكري.

وقال بعض الشعراء:

حسرت عقول ذوي النهى الأهرام، واستصغرت لعظيمها الأعلام.
ملس منيفة البناء شواهقٌ، قصرت لعال دونهن سهام!
لم أدر حين كبا التفكر دونها واستبهمت لعجيبها الأوهام،
أقبور أملاك الأعاجم هن، أم طلسم رملٍ هن، أم أعلام؟

وقال أبو الطيب المتنبي:

أين الذي الهرمان من بنيانه؟ ما قومه؟ ما يومه؟ ما المصرع؟
تتخلف الآثار عن أصحابها حيناً، ويدركها الفناء فتتبع.

وقال أمية بن عبد العزيز الأندلسي:

بعيشك هل أبصرت أحسن منظراً على طول ما عاينت من هرمي مصر؟
أنافا بأعنان السماء وأشرفا على الجو إشراف السماك أو النسر.
وقد وافيا نشزا من الأرض عالياً كأنهما ثديان قاما على صدر.

وقال آخر:

انظر إلى الهرمين إذ برزا للعين في علو وفي صعد!
وكأنما الأرض العريضة إذ ظمئت لفرط الحر والومد.
حسرت عن الثديين بارزة تدعو الإله لفرقة الولد.
فأجابها: لبيك! يوسعها ريا ويشفيها من الكمد.

وقال ابن الساعاتي:

ومن العجائب، والعجائب جمة دقت عن الإكثار والإسهاب.
هرمان قد هرم الزمان وأدبرت أيامه، وتزيد حسن شباب.
لله! أي بنية أزليةٍ تبغي السماء بأطول الأسباب؟
ولربما وقفت وقوف تبلدٍ أسفاً على الأيام والأحقاب.

كتمت عن الأسماع فصل خطابها وغدت تشير به إلى الألباب.

وقال سيف الدين بن جبارة:

لله! أي غريبة وعجيبة في صنعة الأهرام للألباب؟
أخفت عن الأسماع قصة أهلها، ونضت عن الإبداع كل نقاب.
فكأنما هي كالخيام مقامة من غير ما عمد و لا أطناب.

ومن رسالة لضياء الدين بن الأثير الجزري في ذكر مصر ووصف الأهرام،جاء منها: بلد أشهد بفضله على البلاد، ووجدته هو المصر وما عداه فهو السواد. فما رآه راءٍ إلا ملأ عينه وصدره، ولا وصفه واصف إلا علم أنه لم يقدره قدره. وبه عجائب من الآثار، لا يضبطها العيان ولا الإخبار.فمن ذلك الهرمان، اللذان هرم الدهر وهما لا يهرمان، قد اختص كل منهما بعظم البناء، وسعة الفناء؛ وبلغ من الارتفاع غاية لا يبلغها الطير على بعد تحليقه، ولا يدركها الطرف على مدة تحديقه؛ فإذا أضرم برأسه قبس ظنه المتأمل نجما، وإذا استدارت عليه قوس السماء كان لها سهما".

وبالقرب من الأهرام صنم على صورة إنسان، تسميه العامة أبو الهول لعظمه. والقبط يزعمون أنه طلسم للرمل الذي هناك، لئلا يغلب على أرض الجيزة.

وأما حائط العجوز

والعجوز هي دلوكا ملكة مصر.

وهذا الحائط من العريش "وهو حد مصر من جهة الشام" إلى أسوان "وهي حد مصر من جهة النوبة"، شاملا للديار المصرية من الجانب الشرقي. وزعمت القبط أن سبب بنائها أن الله عز وجل لما أغرق فرعون وقومه، خافت دلوكا على مصر أن يطمع الملوك فيها. فبنته، وزوجت النساء بالعبيد حتى يكثر النسل والذرية.

وقيل في سبب بنائه: إن دلوكا ولدت ولدا فأخذت لمولده رصدا، فرأت أن التمساح يقتله، فبنت هذا الحائط وقاية له من التمساح. فلما شب الغلام رأى في مولده ذلك، فأحب أن يراه. فصور له من خشب. فلما رآه، هاله منظره واستولى على نفسه الوهم والفزع، فمات.

وأما ملعب أنصنا

فإنه كان مقياسا للنيل. ويقال: إنه من بناء دلوكا. وكان كالطيلسان، وعليه أعمدة بعده بعدد أيام السنة من الصوان الأحمر الماتع، بين العمود والعمود خطوة. وكان النيل يدخل إليه من فوهة فيه عند زيادة النيل. فإذا بلغ الحد الذي يحصل به الري، جلس الملك في مشترف له، ويصعد قوم إلى رؤوس الأعمدة فيتعادون عليها ما بين ذاهب وآت. فمن زلت به قدمه منهم، سقط إلى البركة.

وأما مدينة عين شمس

فهي من المباني التي درست. وكانت مصر فرعون موسى، ومنها خرج بجنوده في طلب موسى وبني إسرائيل؛ وكانت عدتهم ستمائة ألف، ليس فيهم ابن عشرين سنة ولا ابن ستين سنة. واستقل فرعون هذا العدد وقال كما أخبر الله تعالى عنه: "إن هؤلاء لشر ذمة قليلون". وكان بها هيكل الشمس فخرب. والفرس تزعم أن هرسيك بناها.

ويقال: إنه كان قد بقي منها عمودان من حجر صلد، فلكات طول كل عمود منها أربعة وثمانون ذراعاً، على رأس كل عمود صورة إنسان على دابة، وعلى رأسهما شبه الصومعتين من نحاس. فإذا. كان "الليل"، قطر من رأس كل واحد منهما ماء لا يتجاوز نصف العمود الذي هو مركب عليه. والموضع الذي يصل إليه الماء لا يزال أخضر رطبا. وقد وقع العمودان بعد الخمسين وستمائة.

وأما البرابي

وهي بيوت حكمة القبط يقال أنه كان لكل كورة من كور مصر برباة، يجلس فيها كاهن على كرسي من ذهب. ومن أعجب البرابي وأعظمها "برباة إخميم". وهي مبنية بحجر المرمر، طول كل حجر خمسة أذرع في سمك ذراعين. وهي سبعة دهاليز، سقوفها حجارة، طول كل حجر منها ثمانية عشر ذراعا في عرض خمسة أذرع، مدهونة باللازورد وسائر الأصباغ، يخالها الناظر إليها كأنما فرغ الدهان منها. يقال أن كل دهليز منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة. وجدران هذه الدهاليز منقوشة بصور مختلفة الهيئات والمقادير، يقال أنها رموز على علوم القبط، وهي: الكيمياء والسيمياء، والطلمسات، والطب. أودعوها هذه الصور. ويقال أن ذا النون المصري العابد فك منها علم الكيمياء.

وأما حنية اللازورد

وهي بأرض منف. ومنف هذه هي التي تسمى مصر القديمة. يقال إن عقد الحنية أحسن من عقد قنطرة صنجة التي تقدم ذكرها. والحنية معقودة مع حجارة مهندمة، طول كل حجر منها أكثر من خمسة عشر ذراعا. وفيها نقوش وكتابة وطلمسات مموهة باللازورد. وهي من الشرق إلى الغرب، وفي صدرها فضاء فيه بناء مرتفع، عليه بلاطة من الصوان الأسود، مكتوب فيها بالقلم البرباوي ثلاثون سطرا. يقال إنة قبر الذي بنى الحنية، وأنه ديساره: ملك كان بمصر، حكيم. وللقبط عيد يسمى ديساره: وهو عيد هذا الملك ويسمى عيد العنب.

وأما منارة الإسكندرية

فهي مبنية بحجارة مهندمة مضببة بالرصاص، على قنطار من زجاج، والقنطار على ظهر سرطان من نحاس. وفيها نحو ثلاثمائة بيت بعضها فوق بعض، تصعد الدابة بحملها إلى سائر البيوت من داخلها. وللبيوت طاقات ينظر منها إلى البحر. وبين أهل التاريخ خلاف فيمن بناها فزعم بعضهم أنها من بناء

الإسكندر بن قيلبس المقدوني. وزعم آخرون أنها من بناء دلوكا، ملكة مصر. ويقال إن على جانبها الشرقي كتابة، وإنها نقلت إلى اللسان العربي فوجدت بنت هذه القنطرة فرتنا بنت مرتيوس اليونانية لرصد الكواكب.
ويقال: أن طولها كان ألف ذراع وكان في أعلاها تماثيل من نحاس. منها تمثال قد أشار بسبابته اليمنى نحو الشمس: أين ما كانت من الفلك، يدور معها حيثما دارت.
ومنها تمثال وجهه في البحر متى صار العدو منهم على نحو من ليلة، سمع له صوت هائل يعلم به أهل المدينة طروق العدو.
ومنها تمثال كلما مضى من الليل ساعة صوت صوتا مطربا.
ويقال: إنه كان بأعلاه مرآة ترى منها قسطنطينية، وبينهما عرض البحر. كلما جهز الروم جيشا رؤي في المرآة.
وحكى المسعودي في مروج الذهب أن هذه المنارة كانت في وسط الإسكندرية، وأنها تعد من بناء العالم العجيب، بناها بعض البطالسة من ملوك اليونان يقال له الإسكندر، لما كان بينهم وبين الروم من الحروب في البر والبحر فجعلوا هذه المنارة مرقبا، وجعلوا في أعلاها مرآة من الأحجار المشفة، تشاهد فيها مراكب البحر إذا أقبلت من رومية على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها.
ولم تزل كذلك إلى أن ملكها المسلمون، فاحتال ملك الروم على الوليد بن عبد الملك بأن أنفذ أحد خواصه ومعه جماعة إلى بعض ثغور الشام على أنه راغب في الإسلام. فوصل إلى الوليد، وأخرج كنوزاً ودفائن كانت في الشام حملت الوليد على تصديقه فيما يدعيه. ثم قال له: إن تحت المنارة أموالا ودفائن وأسلحة، دفنها الإسكندر فصدقه وجهزه مع جماعة من ثقاته إلى الإسكندرية، فهدم ثلث المنارة وأزال المرآة، ثم فطن الناس أنها مكيدة، فاستشعرذلك فهرب في مركب كانت معدة له. ثم بنى ما هدم بالجص بالآجر. ثم قال المسعودي: وطول المنارة في هذا الوقت "يعني الوقت الذي وضع فيه كتابه، وهو سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة " مائتان وثلاثون ذراعا. وكان طولها قديما نحو من أربعمائة ذراع.
وهي في عصرنا هذا ثلاثة أشكال: فمنها تقدير الثلث مربع مبني بالحجارة، ثم بعد ذلك بناه مثمن الشكل بالآجر والجص نحو ستين ذراعا، وأعلاها مدور الشكل. ويقال أن أحمد بن طولون بنى في أعلاها قبة من الخشب فهدمتها الرياح. فبنى في مكانها مسجدا في الدولة الظاهرية الركنية بيبرس صاحب مصر رحمه الله تعالى. ثم هدم في ذي الحجة اثنتين وسبعمائة بسبب الزلزلة الحادثة. ثم بنى في شهور سنة ثلاث وسبعمائة في دولة السلطان الملك الناصر ولد السلطان الملك المنصور، ثبت الله دولته، وكان المندوب لذلك الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري، نائب السلطنة الشريفة في الغيبة.
وقد وصف الشعراء منارة الإسكندرية.

فمن ذلك ما قاله الوجيه الدروي

وسامية الأرجاء تهدي أخا السرى ضياءً، إذا ما حندس الليل أظلما.

لبست لها بردا من الأنس ضافياً فكان بتذكار الأحبة معلما.

وقد ضللتني من ذراها بقبة ألا حظ فيها من صحابي أنجما.

فخيلت أن البحر تحت غمامة وإن قد خيمت في كبد السما!

وقال أبو الفتح الأغر بن قلاقس:

ومنزل جاوز الجوزاء مرتقيا كأنما فيه للنسرين أوكارُ.

راسى القرارة سامي الفرع في يده للنور والنون أخبار وأخيارُ.

أطلقت فيه عنان القول فاطردت خيل لها في بديع الشعر مضمارُ.

وأما رواق الإسكندرانيين

فهو ملعب كان بالإسكندرية. كانوا حكماء يجتمعون فيه فلا يرى أحد منهم شيئاً دون الآخر، ووجه كل واحد منهم - وإن اختلفت جهاتهم - تلقاء وجه الآخر. وإن عمل أحد منهم شيئا أو تكلم، سمعه الآخر. ونظر القريب والبعيد في سواه. وقد بقيت منه بقايا عمد تكسرت، غير عمود منها يسمى عمود السواري في غاية الطول والغلظ من الحجر الصوان الأحمر

ذكر شيء من عجائب المباني

قال صاحب كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر: ذكر بعض المصنفين لكتب العجائب، إن الفرس تزعم أن أوشهنج بنى بأرض بابل سبع مدائن، جعل في كل مدينة منها أعجوبة ليست في الأخرى فكان في الأولى - التي يكون فيها الملك - مثال أنهار الدنيا كلها. فإذا التوى عليه أحد من أهل مملكته بخراجهم، خرج نهرا من تلك الأنهار الشبيه بنهر تلك الناحية فغرقوا. فإذا أدوا الخراج، سد عليهم من عنده فانسد عنهم.

وفي الثانية حوض فإذا أراد الملك أن يجمع الناس لشراب، أتى من أحب منهم بشراب له خاص فيصبه في الحوض. يفعل ذلك كل إنسان منهم، فيختلط الجميع. ثم تقوم السقاة فتأخذ الأواني ويسقى كل واحد من شرابه الذي جاء به.

وفي الثالثة طبل. فإذا غاب من البلد أحد وأراد أهله أن يعلموا خبره، أحي هو أو ميت ضربوا الطبل فإذا كان حيا صوت، وإن كان ميتا لم يصوت. وفي الرابعة المرآة. فإذا غاب الرجل عن أهله وأرادوا أن يعلموا حاله، نظروا في المرآة فرأوه في الحالة التي هو عليها.

وفي الخامسة إوزة نحاس. فإذا دخل المدينة غريب، صفرت. فيعلمون أن غريباً دخلها. وفي السادسة قاضيان جالسان على الماء. فيجيء المحق والمبطل ليجلسا معهما فيجلس المحق، ويرسب المبطل. وفي السابعة شجرة. لا تظل إلا ساقها. فإذا جلس تحتها واحد أظلته إلى ألف. فإن زاد على الألف واحد، قعدوا كلهم في الشمس.

وكنت قد أنكرت هذه الحكاية وقصدت حذفها وإلغاءها والإضراب عنها، فرأيت ابن الجوزي وضعها في كتابه الذي سماه سلوة الأحزان فأوردتها. وحكي أنه بمدينة قيسارية - لما كانت في أيدي الروم - كنيسة بها مرآة. إذا اتهم رجل إمرأته بزنا، نظر في تلك المرآة، فيرى وجه المتهم فيها. وأن بعض الناس اتهم فرأوه فيها فقتله الملك، فجاء أهله إلى المرآة حمية فكسروها.
وحكى الواقدي في فتوح السند: أن عبد الله العبدي عامل معاوية على السند غزا بلد القيقان، فأصاب منهم غنائم كثيرة، وأن ملك القيقان بعث إليه يطلب منه الفداء وحمل إليه هدايا كان فيها قطعة من مرآة، يذكر أهل العلم أن الله تعالى أنزلها على آدم عليه السلام، لما كثر ولده وانتشروا في الأرض، فكان ينظر فيها فيرى من بعد منهم على الحالة التي هو عليها من خير أو شر، فحملها عبد الله إلى معاوية فبقيت في ذخائر بني أمية إلى أن انتقل الملك عنهم إلى بني العباس، فضاعت فيما فقد من الذخائر.
وقيل: إن بنهاوند حجر يسمى الكيلان، بالقرب منه صخرة من أراد أن يعترف حال غائب أو أبق أو سارق، أتى إلى تلك الصخرة فنام تحتها فيرى في النوم حال ما تعرف به على ما هو عليه.
وعجائب المباني كثيرة، سنذكر إن شاء الله تعالى منها جملة في أخبار ملوك مصر الذين كانوا قبل الطوفان وبعده فتأمله هناك تجده.

الباب الرابع

"فيما وصفت به المعاقل والحصون"
من القسم الخامس من الفن الأول

وهذا الباب قد ترجمت عليه في الفن الثاني الذي يلي هذا الفن فيما يحتاج إليه الملك. وإنما ضممته إلى هذا الفن لمناسبته له وشبهه به، واستثنيته من الفن الثاني واقتصرت فيه على مجرد الترجمة. وبالله التوفيق.
وقد أوسع الفضلاء والأدباء والكتاب والبلغاء القول في هذا المعنى وتواردوا فيه، فاقتصرنا على ما نورده من ذلك، وهو قليل من كثير. فمن ذلك ما قاله بعض الأندلسيين يصف قلعة فتحت من غير حصار: " وهذه القلعة التي انتهينا إلى قرارها، واستولينا على أقطارها، أرحب المدن أمدا للعيون، وأخصبها بلدا إذا أمحلت السنون؛ فروعها فوق الثريا شامخة، وعروقها تحت الثرى راسخة؛ تباهى بأزهارها نجوم السماء، وتناجى بأسرارها أذن الجوزاء؛ وكانت في الزمن الغابر، عتت على عظيم القياصر؛ فنازلها بأكثر من النجوم عددا، وطاولها بأوفى من
البحر مددا؛ فأبت على طاعته كل الإباء، واستعصت على مقارعته أشد استعصاء، ومردت مرود مارد على الزباء؛ فأمكننا الله من ذروتها؛ وأنزل ركابها لنا عن صهوتها" وقال لقاضي

الفاضل عبد الرحيم البيساني رحمه الله يصف آمد من رسالة جاء منها: " وآمد ذكرها بين العالم متعالم، وطالما صادم جانبها من تقادم، فرجع عنها مقدوعة آنفة وإن كان فحلا، وفر عنها فريدا بهمة وإن استصحب خيلا ورجلا؛ ورأى حجرها فقدر أنه لا يفك له حجر، وسوادها فظن أنه لا ينسخه فجر، وحمية أنف أنفتها فاعتقد أنه لا يستجيب لزجر؛ من ملوك كلهم قد طوى صدره على الغليل إلى موردها، ووقف وقفة المحب السائل فلم يُفز بما أمل من سؤال معهدها".
وقال من أخرى يصفها: " وهي العقيلة التي صدر الصدور الأول محلا عن وردها، والطريدة التي حصل منها على راحة يأسه وتعب طردها؛ والمحجبة التي كشف ستورها، ودار لعصمتها كسوار معصمها سورها، وغلت على أنها السوداء على خطابها لأن المهج مهورها؛ ولربما نأى بجانبه الإعراض، ونبا جوهرها عن الأعراض، وطاشت دون أوصافها سهام الأغراض؛ ودرجت الملوك على حسرتها فلم تحسر لها لثاما، وما استطاعت لثغرها ثلما ولا له التثاما".
وقال من أخرى يصف قلعة نجم،وهي من عيون الرسائل، جاء منها: " هي نجم في سحاب وعقاب في عقاب؛ وهامة لها الغمامة عمامة، وأنملت إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة؛ عاقدة حبوةً صالحها الدهر أن لا يحلها بقرعة بادية عصمة صافحها الزمن على أن لا يروعها بخلعة؛ فاكتنفت بها عقارب منجنيقات لم تطبع طبع
حمص في العقارب، وضربتها بحجارة أظهرت فيها العداوة المعلومة في الأقارب؛ فلم يكن غير ثلاثة إلا وقد أثرت فيها الحجارة جدريا بضربها، ولم يصل إلى السابعة إلا والبحر مؤذن بنقبها؛ فاتسع الخرق على الراقع، وسقط سعده عن الطالع، إلى مولد من هو إليها طالع؛ وفتحت الأبراج فكانت أبوابا، وسيرت الجبال فكانت سرابا".
وقال من أخرى في فتح بيت المقدس جاء منها: " زاول المدينة من جانب فإذا هو أودية عميقة. ولجج وعر غريقة؛ وسور قد انعطف عطف السوار، وأبرجه قد نزلت مكان الواسطة من عقر الدار؛ وقدم المنجنيقات التي تتولى عقاب الحصون عصيها وحبالها، وأوتر لهم قسيها التي تضرب ولا تفارق سهامها نصالها؛ فصافحت السور فإذا سهامها في ثنايا شرفاتها سواك، وقدم النصر بشرى من المنجنيق تخلد إخلاده إلى الأرض وتعلو علوة إلى السماك؛ فشج مرابع أبراجها، وأسمع صوت عجيبها، ورفع مثار عجاجها؛ وأسفر النقاب عن الخراب النقاب، وأعاد الحجر إلى خلقته الأولى من التراب؛ ومضع سرد حجارته بأنياب مغولة، وأظهر من صناعته الكثيفة ما يدل على لطافة أنمله وأسمع الصخرة الشريفة أنينه إلى أن كانت ترق لمقتله".
وقال أيضا من أخرى: " فنصبنا عليها المنجنيقات تمطر سماءها نبل الوبال وتملأ أرضها بالنكاية والنكال، وتهد

بساريات حجارته راسيات الجبال؛ وتنزل نوازل الأسواء بالأسوار، وتوسع مجال الدوائر في الديار، وتخطف بخطافاتها أعمار الأغمار؛ وتطير حمامها بكتب الحمام وتديم إغراء سهامها في أهلها بتوفير سهام الإرغام؛ وكشف النقابون نقاب السور المحجوج المحجوب؛ فتهدم بنيانه، وتداعت أركانه، بتظاهر المنجنيقات عليها والنقوب".

ووصف القاضي الفاضل المنجنيق من رسالة فقال: "فسلمت كأنها بنان، ونضنضت كأنها لسان، وأطت كأنها مرنان، واهتزت كأنها جان، وتقومت كأنها سنان، وانعطفت كأنها عنان، وأقدمت كأنها شجاع وأحجمت كأنها

جبان. ورمت رؤوسهم الموقرة من أحجارها بأمثال الرؤوس المحلقة، فأعادتهم إلى الخلقة الأولى مخلقة وغير مخلقة"

ووصف النامي المنجنيق فقال:

وحسن زيادة غدوة السبت نافثاً سماما أراك ابن الأراقم أرقما.

نصبت له في الأرض بيت حديقة تمد لها في الجو كفا ومعصما.

لها أخوات للمنايا كوامن وإن لم يكن ما أضمرته مُكتما.

عذاري، ولكن قد وجدن حواملاً بعرس تراه للجنادل مأتما.

ترى الصخر فيه الصخر وهو نسيبةُ عَدواً بيوم أرضه تمطر السما.

إذا أقعدت جدار قياما رأيتها تنبه قيعاناً من الترب نَوما.

ومما وصفت به المعاقل والحصون نظما.

فمن ذلك قول كعب الأشقري، يصف قلعة:

محلقةٌ دون السماء كأنها غمامة صيفٍ زال عنها سحابها.

ولا يبلغ الأروى شماريخَها العلا، ولا الطير إلا نسرها وعُقابُها.

ولا خوفت بالذنب ولدان أهلها، ولا نبحت إلا النجوم كلابُها.

وقال أبو تمام يصف عَمُّروية:

وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها كسرى وصدت صدودا عن أبي كرب.

بكرٌ، فما افترعتها كف حادثةٍ ولا ترقت إليها همةُ النوبِ.

من عهد إسكندرٍ أو قبل ذاك، فقد شابت نواصي الليالي وهي لم تشب!

وقال الخالديان:

وخلقاء قد تاهت على من يرومها بمرقبها العالي وجانبها الصعبِ.

يزر عليها الجو جيب غمامه ويلبسها عقدا بأنجمه الشهبِ.

إذا ما سرى برق بدت من خلاله كما لاحت العذراء من خلَل الحجبِ.

سموت لها بالرأي يشرق في الدجى ويقطع في الجلى، ويصدع في الهضبِ.

فأبرزتها مهتوكة الجيب بالقنا وغادرتها ملصوقة الخد بالتربِ!

وقالا أيضا في قلعة:

وقلعة عانق العيوق سافلها، وجار منطقة الجوزا أعاليها.
لا تعرف القطر، إذ كان الغمام لها أرضا توطأ قطريه مواشيها.
إذا الغمامة لاحت، خاص ساكنها حياضها قبل أن تهمي عزاليها.
يعد من أنجم الأفلاك مرقبها، لو أنه كان يجري في مجاريها.
على ذرى شامخ وعرٍ: قد امتلأت كبراً به، وهو مملوء بها تيها.
له عقاب: غقاب الجو حائمةٌ من دونها، فهي تخفي في خوافيها.

وقال أبو بكر الخوارزمي:

وبكر تحامتها البعول مخافةً، فقد تركت من كثرة المهر أيمّا.
ممنعة لم يغلط الدهر باسمها، ولم يرها في النوم إلا توهما.
تزل عقاب الجو عن شرفاتها وتبغي إليها الريح مرقي وسلما!
ويسمع في الأفلاك صيحة ديكها فتحسب ديك العرش صاح ترنّما.
عجوز، ترى في صحة الجسم كاعباً ولو أرخت، كانت من الدهر أقدما!
تواري أساسا بالتخوم مؤزرًا، وتبرز رأسا بالنجوم معمما.
تنازعها الأرض السماء وتدَّعي لديها بها حقا لها متهضما.
وتحسبها زهر الكواكب كوكبا هوى خلف شيطان رجيم، فخيما!

الباب الخامس

من القسم الخامس من الفن الأول
"فيما وصفت به القصور والمنازل"

وانبدأ بذكر ما بناه المتوكل من القصور وما أنفق عليها، ثم نذكر ما قيل في وصفها، وما وصفت به المنازل الخالية، وما قيل في حب الوطن.

فأما قصور المتوكل، فهي: الكامل، والجعفري، وبركوانا، والعروس، والبركة، والجوسق، والمختار، والغريب، والبديع، والصبيح، والمليح، والقصر، والبرج، والمتوكلية، والقلاية. حكى المؤرخون أنه أنفق في بنائها مائة ألف دينار وخمسون ألف دينار عيناً، ومائتا ألف ألف وثمانية وخمسون ألف ألف وخمسمائة ألف درهم.

قالوا: وكان البرج من أحسنها. كان فيه صور عظيمة من الذهب والفضة، وبركة عظيمة غشي ظاهرها وباطنها بصفائح الفضة، وجعل عليها شجرة من الذهب فيها طيور تصوت وتصفر سماها

طوبى بلغت النفقة على هذا القصر ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار.
وقد وصفه الشعراء، فمن ذلك قول السرى:
مجلس في فناء دجلة، يرتا حَ إليه الخليع والمستوُرُ.
طائرٌ في الهواء، فالبرق يسرى دون أعلاه والحمامُ يطيرُ.
فإذا الغيم سار، أسبل منه حلل دون جدره وستور.
وإذا غارت الكواكب صبحا، فهو الكواكب الذي لا يغور!
وقال أيضاً:
منزلٌ كالربيع حلت عليه حاليات السحاب عقد النطاق.
يُمتع العين في طرائف حسنٍ تتحامى بها عن الإطراق.
بين ساجٍ كأنه ذائب التبر على مثل ذائب الأوراق.
وقال أيضاً:
والقصر يبسم عن وجه الضحى،فترى وجه الضحى عند ما أبدي له شحبا.
يبيت أعلاه بالجوزاء منتطقاً، ويغتدي برداء الغيم محتجبا!
وقال أبو سعيد الرستمي، يصف داراً بناه الصاحب بن عبَّاد:
وسامية الأعلام تلحظ دونها سنا النجم في آفاقها متضائلاً.
نسخت بها إيوان كسرى بن هرمز، فأصبح في أرض المداين عاطَلا.
فلو أبصرت ذات العماد عمادها، لامست أعاليها حياءً أسافلاَ.
ولو لحظت جنات تدمر حسنها، درت كيف تبني بعدهن المجادلا.
متى ترها خلت السماء سرادقاً عليها وأعلام النجوم تماثلا.
وقال علي بن يوسف الإيادي، يذكر داراً بناها المعز العبيدي بمصر وسماها العروسين :
بنى منظرا يسمى العروسين رفعةً، كأن الثريا عرست في قبابهِ.
إذا الليل أخفاه بحلكة لونه، بدا ضوءه كالبدر تحت سحابهِ.
تمكن من سعد السعود محله، فأضحى ومفتاح الغنى فتح بابهِ.
ولو شاده عزم المعز ورأيه على قدره في ملكه ونصابهِ،
لكان حصى الياقوت والتبر مفرغاً على المسك من أجرِّه وترابهِ.
وقال عبد الجبار بن حمديس الصقلي، يصف داراً بناها المعتمد بن عباد من أبيات:
ويا حبذا دار قضى الله أنها يجدد فيها كل عز ولا يبلى!
وما هي إلا خطة الملك التي يحط إليها كل ذي أمل رحلا.
إذا فتحت أبوابها، خلت أنها تقول بترحيب لداخلها: أهلا.
وقد نقلت صناعها من صفاتهِ إليها أفانينا، فأحسنت النقلا.
فمن صدره رحبا، ومن نوره سناً، ومن صيته فرعا، ومن حلمه أصلا!

فأعلت به في رتبة الملك نادياً، وقل له فوق السماكين أن يعلى.
نسيت به إيوان كسرى، لأنني أراه له مولىً من الحسن لا مثلا.
ترى الشمس فيها ليقةً تستمدها أكفٌ، أقامت من تصاويرها شكلا.
لها حركات أودعت في سكونها، فما تبعت من نقلهن يد رجلا.
ولما عشينا من توقد نورها، تخذنا سناه في نواظرنا كحلا.
وقال أيضاً من قصيدة يصف فيها دارا بناها المنصور ببجاية، جاء منها:
واعمر بقصر الملك ناديك الذي أضحى بمجدك بيته معمورا!
قصرٌ لو انك قد كحلت بنوره أعمى، لعاد على المقام بصيرا.
واشتق من معنى الحياة نسيمه، فيكاد يحدث للعظام نشورا.
فلو أن بالإيوان قوبل حسنه، ما كان شيئاً عنده مذكورا.
نسي الصبيح مع المليح بذكره، وسما ففاق خورنقاً و سديرا.
أعيت مطالعه على الفرس الألى رفعوا البناء وأحكموا التدبيرا.
ومضت على القوم الدهور وما بنوا لملوكهم شبهاً له ونظيرا.
أذكرتنا الفردوس حين أريتنا غرفا رفعت بناءها، وقصورا.
فلكٌ من الأفلاك، إلا أنه حقر البدور فأطلع المنصورا .
أبصرته فرأيت أبدَع منظرا ثم انثنيت بناظري محسورا.
وظننت أني حالم في جنةٍ لما رأيت الملك فيه كبيرا.
وإذا الولائد فتحت أبوابَهَا، جعلت ترحبَ بالعفُاة صَريرا.
عضت على حلقاتهن ضراغمٌ فغرت بها أفواهها تكشيرا.
فكأنها لبدت لتهصر عندها من لم يكن بدخوله مأمورا.
تجري الخواطر مطلقات أعنةٍ فيه، فتكبو عن مداهُ قصورا.
بمرخم الساحات تحسب أنهَ فرش البها وتوشح الكافورا.
ومحصب بالدرَّ تحسب تربه مسكاً تضوع نشره وعبيرا.
يستخلف الإصباح منه إذا انقضى صبحاً على غسق الظلام منيرا.
ضحكت محاسنه إليك كأنما جعلت له زهر النجوم ثغورا.
ومصفح الأبواب تبراً نظروا بالنقش بين شكوله تنظيرا.
تبدو مسامير النضار كما علت فلك النهود من الحسان صدورا.
خلعت عليه غلائلاً ورسيةً شمسٌ ترد الطرف عنه حسيرا.
فإذا نظرت إلى غرائب حسنه، أبصرت روضاً في السماء نضيرا.
وعجبت من خطافي عسجده التي حامت لتبني في ذراه وكورا.

وضعت به صناعه أقلامها، فأرتك كل طريدةٍ تصويرا.
فكأنما للشمس فيه ليقةٌ مشقوا بها التزويق والتشجيرا.
وكأنما فرشوا عليه ملاءةً تركوا مكان وشاحها مقصورا.
يا مالك الملك الذي أضحى له ملك السماء على العُداة نصَيرا.
كم من قصور للملوك تقدمت فاستوجبت بقصورك التأجيرا.
فعمرتها وملكت كل رياسةٍ منها، ودمرت العِدا تدميرا.
وقال عمارة اليمني، يصف دارا بناه فارس الإسلام من أبيات:
فتملَّ دارا شيدتها همةٌ، يغدو العسير بأمرها متيسرا.
فاقت على الإطلاق كل بنيةٍ وسمت بسعدك عزة وتكبرا.
أنشأت فيها للعيون بدائعاً دقت فأذهل حسنها من أبصرا.
فمن الرخام: مسيراً، ومسهماً، ومنمنما، ومدرهما، ومدنرا.
وسقيت من ذوب المضار سقوفها حتى يكاد نضارها أن يقطرا.
لم يبق نوع صامت أو ناطقٌ إلا غدا فيها الجميع مصورا.
فيها حدائق لم تجدها ديمةٌ كلا ولا نبتت على وجه الثرى.
لم يبد فيها الروض إلا مزهرا والنخل والرمان إلا مثمرا.
والطير مذ وقعت على أغصانها وثمارها لم تستطع أن تنفرا.
وبها من الحيوان كل مشبهٍ لبس الحرير العبقري مصورا.
لا تعدم الأبصار بين مروجها ليثا ولا ظبياً بوجرة أعفرا.
أنست نوافر وحشها لسباعها فظبائها لا تتقي أسد الشرى.
وكأن صولتك المخيفة أمنَّت أسرابها أن لا تخاف فتذعرا.
وبها زرافات كأن رقابها في الطول ألويةً تؤم العسكرا.
نوبية المنشا تريك من المها روقاً ومن بزل المهاري مشفرا.
جبلت على الإيقاع من أعجازها فتخالها في التيه تمشي القهقرى!
وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز، يصف قصرا بناه علي بن تميم بن المعز بمصر:
لله، مجلسك المنيف! فبابهَ بموطد فوق السماك مؤسس.
موف على حبك المجرة تلتقي فيه الجواري بالجوار الكنُس.
تتقابل الأنوار في جنباته فالليل فيه كالنهار المشمس.
عطفت حناياه دوين سمائه عطف الأهلة والحواجب والقسي.
واستشرفت عمد الرخام وظُوهرت بأجل من زهر الربيع وأنفس.
فهواؤه من كل قد أهيف، وقراره من كل خدٍّ أملس.
فلك تحير فيه كل منجمٍ وأقر بالتقصير كل مهندس.
فبدا للحظ العين أحسن منظرا وغدا لطيب العيش خير معرس.

فاطلع به قمرا، إذا ما أطلعت شمس الخدور عليك شمس الأكؤس.
فالناس أجمع دون قدرك رتبة والأرض أجمع دون هذا المجلس!
وقال الوزير أبو سليمان بن أبي أمية:
يا دار، آمنك الزما نُ خطوب ونوائبه.
وجرت سعودك بالذي يهوى نزيلك دائبه.
فلنعم مأوى الضيف أن ت إذا تحاموا جانبه.
خطر شأوت الديا ر، فأذعنت لك قاطبة.
وقال أبو صخر القرطبي:
ديارٌ عليها من بشاشة أهلها بقايا، تسر النفس أنساً ومنظرا.
ربوع كساها المزن من خلع الحيا بُرؤُداً، وحلاها من النور جوهرا
وقال الشريف الرضي:
ما زلت أطرق المنازل باللوى حتى نزلت منازل النعمان.
بالحيرة البيضاء حيث تقابلت شم العماد، عريضة الأعطان.
شهدت بفضل الرافعين قبابها. ويبين بالبنيان فضل الباني!
ما ينفع الماضين أن بقيت لهم خطط معمرة بعمرٍ فاني!
وأما ما وصفت به المنازل الخالية:
فمن ذلك ما قاله البحتري يشير إلى الكِرمان الذي بناه كسرى أو أنو شروان من أبيات:
فكأن الكرمان من عدم الأن سِ وإخلائه بنية رمس.
لو تراه، علمت أن الليالي خلعتَ في مأتما بعد عُرس.
وهو ينبيك عن عجائب قومٍ، لا يشاب البيان فيها بلبس.
وإذا ما رأيت صورة أنطاكً ية ارتعت بين روم وفرس.
والمنايا مواثل وأنو شروا ن يزجي الصفوف تحت الدرفس!
وقال أيضا من قصيدة يرثى فيها المتوكل، ويذكر قصره الجعفري:
محل على القاطول أخلق داره، وعادت صروف الدهر جيشاً تعُاورهْ.
كأن الصبا توفي نذورا، إذا انبرت تجر به أذيالها وتباكره.
ورب زمانٍ ناعم تم عهده، ترق حواشيه ويونق ناظره.
تغير حسن الجعفري وأنسه وقوض بادي الجعفري وحاضره.
تحمل عنه ساكنوه فجاءة، فعادت سواءً دوره ومقابره
إذا نحن زرناه، أجد لنا الأسى؛ وقد كان قبل اليوم يبهج زائره.
ولم أنس وحش القصرإذريع سربه وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره.
وإذ صيح فيه بالرحيل فهتكت على عجل أستاره وسرائره.

وأوحشه حتى كأن لم يكن به أنيسٌ ولم تحسن العين مناظره.
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقةً بشاشتها، والملك يشرق زاهره.
ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها وبهجتها والعيش غض مكاسره.
فأين الحجاب الصعب حيث تمنعت بهيبتها أبوابه وستائره؟
وأين عمود الملك في كل نوبة تنوب وناهي الدهر فيه وآمره؟

وقال عمرو ابن أبي ربيعة:

يا دار أمسى دارسا رسمها وحشاً قفاراً ما بها آهل.
قد جرت الريح بها ذيلها واستن في أطلالها الوابل.

وقال شاعر أندلسي:

قلت يوما لدار قوم تفانوا: أين سكانك الكرام لدينا؟
فأجابت: هنا أقاموا قليلا ثم ساروا، ولست أعلم أينا!

وقال عبد الله بن الخياط الأندلسي:

يا دار علوة، قد هيجت لي شجناً وزدتني حزناً! حيُيت من دار!
كم بت فيك على اللذات معتكفاً والليل مدرعٌ ثوبا من القار!
كأنه راهب في المسح ملتحفٌ، شد المجرَّ له وسطاً بزنار!

وقال أبو حامد أحمد الأنطاكي:

إن ربعا عرفته مألوفاً كان للبيض مربعاً ومصيفاً.
غيرت آيه صروف الليالي، وغدا عنه حُسنُه مصروفاً.
ما مررنا عليه إلا وقفنا وأطلنا شوقاً إليه الوقوفا.
ألفاً للبكاء فيه كأني لم أكن فيه للغواني أليفا.
حاسداً للجفون لما أذالت في مغانيه دمعها المذروفا!

وقال الشريف الرضي من أبيات:

ولقد رأيت بدير هندٍ منزلاً ألماً من الضراء والحدثان!
بالي المعالم أطرقت شرفاته إطراق منجذب القرينة عانى.
أمقاصر الغزلان غيرك البلى حتى غدوت مراتع الغزلان!
وملاعب الأنس الجميع طوى الردى منهم فصرت ملاعب الجِنانِ!

وقال أبو الحسن علي القابوسي نثرا:

" قد كان منزله مألف الأضياف، ومأنس الأشراف، ومنتجع الركب، ومقصد الوفد؛ فاستبدل بالأنس وحشه، وبالنضارة غبره، وبالضياء ظلمه؛ واعتاض من تزاحم المواكب، بالأدم النوادب؛ ومن ضجيج النداء والصهيل، عجيج البكاء والعويل".

ومن رسالة لضياء الدين بن الأثير الجزري، جاء منها: "دار لعبت بها أيدي الزمن، وفرت بين الساكن والسكن. كانت مقاصير جنة، فأضحت وهي ملاعب جنة. ولقد عميت أخبار قطانها وعفت آثارها آثار وطانها، حتى شابهت إحداهما في الجفا الأخرى في العفا. وكنت أظن أنها لا تسقى بعدهم بغمام، ولا يرفع عنها جلباب ظلام؛ غير أن السحاب بكاهم وأجرى بها

سوافح دموعه، والليل شق عليهم جيوبه فظهر الصباح من خلال صدوعه".

ومما قيل في حب الأوطان

قال ابن الرومي "وهو أول من بين السبب في حب الوطن":

ولي منزلٌ، آليت أن لا أبيعه وأن لا أرى غيري له الدهر مالكَا!

عهدت به شرخ الشباب ونعمةً كنعمة قوم أصبحوا في ظلاَلكَا.

فقد ألفته النفس حتى كأنه لها جسدٌ، إن غاب غودرت هالَكا.

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا.

إذا ذكروا أوطانهم، ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا!

ذكر شيء مما قيل في الحمَّام

قال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي:

أهلاً ببيت النار من منزلٍ شيد لأبرارٍ وفُجَّار!

يدخله ملتمس لذةً فيدخل الحنة في النار!

وقال أبو عامر بن شهيد الأندلسي:

نعم، أبا عامرٍ بلذته وأعجب لأمرين فيه قد جُمِعا!

نيرانه من زنادكم قدحت وماءه من بنانكم نبعا!

وقال علي بن عطية البلنسي:

رب حمام تلظى كتلظي كل وامق.

ثم أذرت عبراتٌ صوبها بالوجد ناطق.

فغدا مني ومنه عاشق في جوف عاشق!

وقال أبو طالب المأموني، شاعر اليتيمة:

وبيت كأحشاء المحب دخلته ومالي ثياب فيه غير إهابي

أرى محرماً فيه وليس بكعبةٍ فما ساغ إلا فيه خلع ثيابي.

بماء كدمع الصب في حر قلبه إذا آذنت أحشاؤه بذهابِ.

توهمت فيه قطعةً من جهنم ولكنها من غير مس عقابِ.

يثير ضباباً بالبخار مجدلا بدور زجاج في سماءِ قباب!

وقال آخر:

إن حمَّامكَ هذا غير مذمومِ الجوارِ.

ما رأينا قبل هذا جنةً في وسط نارِ!

وأنشدني جمال الدين محمد بن الحكم لنفسه:

قالوا: نراك دخلت حماماً وما حِلف الهوى يلتذ بالأهواءِ.

فأجبتهم: لم تكف أدمع مقلتي حتى بكيت بحمله الأعضاءِ.

الفن الثاني

الإنسان وما يتعلق به

وهذا الفن قد اشتمل على معانٍ مؤنسة للسامع، مشنِّفة للمسامع؛ مرصِّعة لصدور الطروس والدفاتر، جاذبةٍ لنوافر القلوب والخواطر؛ واضحة البيان، معربة عن وصف الإنسان.

فمن تشبيهاتٍ فائقة، وغزليَّاتٍ رائقة؛ وأنسابٍ طاهرة، ووقائع ظاهرة؛ وأمثالٍ امتدّت أطنابها، وتبينت أسبابها؛ وأوابد جعلتها العرب لها عادةً ودليلا، واتخذتها ضلالة وتبديلا؛ ونصبتها أحكاماً ونسكا، وصيرتها عبادة ومداواة فتبوّأت بها من النار دركاً؛ وشيٍ من أخبار الكُهَّان، وزجر عبدة الأوثان؛ وكناياتٍ نقلت الألفاظ إلى معانٍ أبهى من معانيها، وبلغت النفوس بعذوبتها غاية أمانيها؛ وألغازٍ غوّرت بالمعاني وأنجدت، وأشارت إليها بالتأويل حتَّى إذا قربتها من الأفهام أبعدت؛ ومدائح رفعت للممدوح من الفضل مناراً، وأهاجي صيَّرت المهجوَّ من القوم يتوارى؛ ومجون ترتاح إليها عند خلوتها النفوس، ويبتسم عند سماعها ذو الوجه العبوس؛ وشيءٍ مما قيل في الخمر والمعاقرة، وأرباب الطَّرب وذوي المسامرة؛ وتهانٍ نشرت من البشائر ملاء، ورفعت من المخامد لواء؛ وتعازٍ حسرت نقاب الحسرات، وأبرزت مصون العبرات.
وأوردت فيه نبذةً من الزهد والإنابة، وجملةً من الدعوات المستجابة.
وطرّزته بذكر ملك، مدَّ رواق العدل، ونشر لواء الفضل؛ وقام بفروض الجهاد وسننه، وأراع العدوّ في حالتي يقظته ووسنه؛ وعمّ الأولياء بمواصلة برِّه وموالاة نواله، وقهر الأعداء بمراسلة سهامه ومناضلة نصاله؛ وشمل رعاياه بعدله وجوده، وأردف سراياه بجيوشه وجنوده، فهو الملك الذي جمع بين شدّة البأس، ولين النَّدى، وأزال مرارة الإياس، بحلاوة العطا. وما يحتاج إليه لإقامة المملكة: من نائبٍ ناهيك به من نائب!، يكُفُّ بعزمه كفَّ الحوادث ويفُلُّ بحزمه ناب النوائب؛ وينصف الضعيف من القويّ، ويفرّق ببديهته بين المريب والبريّ؛ ويتفقد أحوال الجيوش ويصرف همته إليهم، ويجعل اهتمامه بهم وفكرته فيهم وتعويله عليهم؛ إلى غير ذلك من استكمال عددها، والمطالبة بعرض خيولها وإصلاح عددها؛ وسدِّ ثغور الممالك، وضبط الطرق وتسهيل المسالك؛ وقمع المفسدين، وإرغام الملحدين؛ وبث السَّرايا، وتيسير، الأرزاق والعطايا. ووزيرٍ يشيِّد قواعد ملكه بحسن تدبيره وجميل سداده، ويعمل فكره فيما يستقرّ بسببه نظام الملك على مهاده؛ ويأمر بتحصيل الأموال من جهاتٍ حلَّها، ويقرّ مناصب الدّولة الشريفة في الكفاة من أهلها؛ ويتصفَّح الأقاليم والمعاملات والأعمال، ويستكفي لمباشرتها أمناء النظَّار ومحقِّقي المستوفين وكفاة العمال.
وقائد جيوش إن انتدبه للقاء عدوّ بدر الكتائب، وأنهل من دمائهم السُّمر العوالي وعلا هامهم بالبيض القواضب؛ تتبعه عساكر تنفر قلوبهم عهن الفرار، ويحلّوا من قاتلهم من أعداء الله دار البوار؛ يدَّرعون السابريَّة الذوائل، ويعتقلون السُّمهرية الذَّوابل؛ ويتقلدون المشرفية البواتر؛ ويتنكَّبون القسيّ النواتر، ويمتطون من كل جواد صفا منه أديمه وعيناه وحوافره، واتسع منه جوفه وجبهته ومناخره؛ وطال منه أنفه وعنقه وذراعه،

وقصر منه ظهره وساقه وعسيبه وامتد عند الحضر باعه: فهو من أكرم الأصائل، والمعنيّ بقول القائل:

وقد أغتدي قبل ضوء الصباح ووردِ القطا في الغطاط الحثاث

بصافي الثَّلاث عريض الثلاث قصير الثلاث طويل الثَّلاث

وذكرت ما ورد في فضل الرباط والجهاد، وما أعدّ الله تعالى من الثواب لمن أنفق فيه الطَّوارف والتِّلاد؛ وبذل الكريمين: النفس والمال لحسن المآل ؛ وهجر الحبيبين: الوطن والعيال لبلوغ الآمال.

ومن قاضٍ يحكم بين الناس بالعدل، ويقدّم ذوي النباهة والفضل. ومتولٍّ مظالم يردها على أهلها بقهره وسلطانه، وسطوته وأعوانه. وناظر حسبة يجري الأمور على قواعدها الشرعية، وأوضاعها العرفية وقوانينها المرضية. إلى غير ذلك: من كاتب، ذي رأيٍ صائب، وفهم ثاقب؛ انقادت له المعاني بأسهل زمام، وأعنت صحائفه عن صفحات الحسام:

لو لاحظت عين ابن أوسٍ كتبه ما قال: "إن السيف منها أصدقُ"

وكاتب خراج ضبط بقلمه الأموال، وحرّر بنباهته الغلال؛ وبسط الموازين، ووضع القوانين؛ وفصل بين الخراجيّ والهلالي، وميز ما بين الأعمال والتوالي.

وما لا بدّ للملك منه من خواصَّ جبلت على محبته قلوبهم، وتجافت عن المضاجع في خدمته جنوبهم.

ومن معقلٍ شمخ على الجوزاء بأنفه، واتخذ الثريَّا وشاحاً لعطفه؛ توارى في قرار التخوم أساسه، ولاح للساري ككوكب الظلماء مقباسه. فالأرض تدّعيه: لأنه ثبت على مناكبها، والسماء تنازعها فيه: لأنه تمنطق بكواكبها؛ والجبال تقول مني اتَّخذت أحجاره، والمياه تقول عليّ استقرّ قراره؛ وجفن السحاب يهمع لانحطاطه عن هذه الرتبة، والطير تقول إن لم أبلغه فقد اتّحد به من بيني وبينه نسبه.

وضَّمنت هذا الفن من المنقول ما يسهل تعاطيه على الأفهام، ووضعته على خمسة أقسام.

القسم الأول

اشتقاقه، وتسميته، وتنقلاته، وطبائعه..، ووصفه، وتشبيهه.والغزل، والنَّسب، والهوى، والمحبة، والعشق، والأسباب

وفيه أربعة أبواب

الباب الأوّل من القسم الأوّل من الفن الثاني

اشتقاقه، وتسميته،.. وتنقلاته، وطبائعه، وما يتصل بذلك

فأما اشتقاقه وتسميته، فقد اختلف الناس في ذلك: هل هو من الأنْس الذي هو نقيض الوحشة، أو النَّوْس الذي هو نقيض السكون، أو الإيناس الذي هو بمعنى الإبصار، أو النِّسيان الذي هو نقيض الذِّكْر.
قال الشريف السيد ضياء الدّين أبو السعادات هبة الله المعروف بابن الشجري في أماليه في المجلس التاسع عشر وهو يوم السبت سابع عشر رجب سنة أربع وعشرين وخمسمائة في شرح قول أعشى تغلب:

وكانوا أناساً ينفحون فأصبحوا، وأكثر ما يعطونك النظر الشَّزْرُ

قوله: "وكانوا أُناساً ينفحون" وزن أناس فُعال، وناس منقوص منه عند أكثر النحويين: فوزنه عالٌ. والنقص والإتمام فيه متساويان في كثرة الاستعمال ما دام منكوراً. فإذا دخلت عليه الألف واللام، التزموا فيه الحذف، فقالوا "الناس" ولا يكادون يقولون "الأناس" إلا في الشعر.
كقوله:

إنَّ المنايا يطَّلِعن على الأُناس الآمنينا

وحجة هذا المذهب وقوع الأنس على الناس. فاشتقاقه من الأُنس نقيض الوحشة: لأن بعضهم يأنس إلى بعض. وبه أخذ بعض الشعراء في قوله:

وما سُمِّي الإنسان إلا لأُنْسِه ولا القلب إلا أنه يتقلَّبُ

قال: وذهب الكسائيّ إلى أن "الناس" لغة مفردة، وهو اسم تام وألفه منقلبة عن واو، واستدلَّ بقول العرب في تحقيره نويْس. قال: ولو كان منقوصاً من أناس لردّه التحقير إلى أصله، فقيل "أُنيْس". وقال بعض من وافق الكسائيّ في هذا القول: إنه مأخوذ من النَّوس، مصدر ناس ينوس إذا تحرّك. ومنه قيل لملك من ملوك حمير ذو نُواس: لضفيرتين كانتا تنوسان على عاتقه.
قال الفرّاء: والمذهب الأوّل أشبه، وهو مذهب المشيخة.
وقال أبو عليّ الفارسيّ: أصل الناس الأناس. فحذفت الهمزة التي هي فاء ويدلك على ذلك الإنْسُ والأناسيّ. فأما قولهم في تحقيره نُويس فإن الألف لما صارت ثانية وهي زائدة أشبهت ألف فاعل. يعني أنها أشبهت بكونها ثانية وهي زائدة ألف "ضاربٍ" فقيل نويس، كما قيل ضويرب.
وقال سلمة بن عاصم، وكان من أصحاب الفراء: الأشبه في القياس أن يكون كلٌّ واحد منهما أصلاً بنفسه فأناس من الأنس، وناس من النوس لقولهم في تحقيره نويس كبويب في تحقير باب. هذا ما قاله ابن الشجريّ في أماليه.
وذهب أبو عمرو الشَّيبانيّ: أنه مشتق من الإيناس، الذي هو بمعنى الإبصار؛ وحجته قوله تعالى: "إنِّي آنسْت ناراً" أي أبصرت نارا. وذهب الكوفيون إلى أنه مشتق من النِّسيان، وحجتهم أن أصله إنسيان. فحذفت الياء تخفيفاً وفتحت السين لأن الألف تطلب فتح ما قبلها. ولأن العرب حين صغرته قالت فيه

أُنيْسيان، فزادت الياء. والتصغير يردّ الأشياء إلى أصولها، ولو لم تكن في المكبر لما رُدَّت في المصغّر. وبه أخذ أبو تمام في قوله:

لا تنْسينْ تلك العهود فإنما سُمِّيت إنساناً لأنك ناسي

وأنكر البصريون ذلك، وقالوا: لا حجة فيه، لأن العرب قد صغرت أشياء على غير قياس كما قالوا في تصغير رجل بمعنى راجل رُويْجل، وفي تصغير ليلة لُيَيْلة. وفي تصغير عشيّة عُشَيْشة. وقال ابن عباس: إنما سمي الإنسان إنساناً لأنه عُهد إليه فنسي. وهذا هو الأرجح والله تعالى أعلم.

آدم عليه السلام قال أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب العقد في كتابه يرفعه إلى وهب بن منبِّه إنه قال: قرأت في "التوراة" أن الله عز وجل حين خلق آدم رَكَّب جسده من أربعة أشياء؛ ثم جعلها وراثة في ولده، تنمى في أجسادهم وينمون عليها إلى يوم القيامة. رَطْب، ويابس، وسُخْن، وبارد. قال: وذلك أن الله سبحانه وتعالى خلقه من تراب وماء، وجعل فيه يُبْساً ورطوبة، فيبوسة كل جسد من قبل التراب، ورطوبته من قبل الماء، وحرارته من قبل النفس، وبرودته من قبل الروح. ثم خلق للجسد بعد هذا الخلق الأوّل أربعة أنواع أخر وهي ملاك الجسد وقوامه، لا يقوم الجسد إلا بهنّ، ولا تقوم واحدة منهنّ إلا بالأخرى: المِرّة السوداء، والمرّة الصفراء، والدم الرطب الحارّ، والبلغم البارد. ثم أسكن بعض هذا الخلق في بعض، فجعل مَسْكن اليبوسة في المِرّة السوداء، ومسكن الرطوبة في الدّم، ومسكن البرودة في البلغم، ومسكن الحرارة في المِرّة الصفراء. فأيما جسدٍ اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع وكانت كلُّ واحدة فيه وفقاً لا تزيد ولا تنقص، كملت صحته واعتدل بناؤه. فإن زادت واحدة منهنّ عليهنّ وقهرتْهنّ ومالت بهنّ، دخل على أخواتها السُّقْم من ناحيتها بقدر ما زادت؛ وإن كانت ناقصة عنهنّ، مِلْن بها وعلونها وأدخلن عليها السُّقْم من نواحيهنّ، لغلبتهنّ عليها حتّى تضعف عن طاقتهنّ وتعجز عن مقاومتهنّ. قال وهب: وجعل عقله في دماغه، وشرهه في كُليتيه، وغضبه في كبده، وصرامته في قلبه، ورغبته في رئته، وضحكه في طحاله، وحزنه وفرحه في وجهه. وجعل فيه ثلاثمائة وستين مفصلا.

ويقال: إنما لُقِّب الإنسان بالعالم الصغير، لأنهم مثَّلُوا رأسه بالفلك، ووجهه بالشمس إذ لا قوام للعالم إلا بها كما لا قوام للجسد إلا بالرُّوح، وعقله بالقمر لأنه يزيد وينقص ويذهب ويعود؛ ومثلوا حواسَّه الخمس ببقية الكواكب السيَّارة، وآراءه بالنجوم الثابتة، ودمعه بالمطر، وصوته بالرعد، وضحكه بالبرق، وظهره بالبرّ، وبطنه بالبحر، ولحمه بالأرض، وعظامه بالجبال، وشعره بالنبات، وأعضاءه بالأقاليم، وعروقه بالأنهار، ومغار عروقه
بالعيون.

ومنها: أن فيه ما يشاكل الجمعة، والشهر، والأيام، والسنة. أما أيام الجمعة، فإن بدنه سبعة أجزاء، وهي اللحم، والعظام، والعروق، والأعصاب، والدّم، والجلد، والشعر.
وأما الشهور، فإن لبدنه أثنى عشر جزءا مدبرةً: ستة منها باطنة؛ وهي الدماغ، والقلب، والكبد، والطِّحال، والمعدة، والكُلْيتان؛ وستة ظاهرة، وهي العقل، والحواسُّ الخمس؛ فهذه الاثنا عشر مقابلة لشهور السنة.
وأما الأيام، فإن فيه ثلاثمائة وستين عظما؛ منها ما هو لبنية الجسد مائتان وثمانية وأربعون عظما. والإنسان ينقسم إلى أربعة أنواع: الرأس، واليدان، والبدن، والرجلان، ففي الرأس اثنتان وأربعون عظما؛ وفي اليدين اثنان وثمانون عظما؛ وفي البدن أربعون عظما؛ وفي الرجلين أربعة وثمانون عظما؛ والباقي سُمْسُمانية لسدّ الفروج التي تكون بين العظام. وفيه ثلاثمائة وستون عِرْقا.
وأما فصول السنة: فإن فيه أربعة أخلاط طبْعُها طبعُ الفصول الأربعة، فالدّم كالربيع في حرارته ورطوبته، والمِرّة الصفراء كالصيف في حرّه ويبسه، والمرّة السوداء كالخريف في برده ويبسه، والبلغم كالشتاء في برده ورطوبته. وهذه الأخلاط من أوّل مزاج الأركان التي هي العناصر الأربعة، وهي: النار، والهواء، والماء، والأرض. ترتيب أحواله وتنقل السنّ به إلى أن يتناهى: قال الله تبارك وتعالى: "يا أيُّها النَّاس إنْ كُنْتمْ في رَيْبٍ من البعْث فإنَّا خلقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفةٍ ثُمَّ مِنْ علقةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغةٍ مُخَلَّقةٍ وغيْر مُخَلَّقةٍ لنُبيِّن لكُمْ ونُقرُّ في الأرْحامِ ما نشاءُ إلى أجلٍ مُسَمَّى ثُمَّ نُخْرجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لتبْلُغُوا أشُدَّكُمْ ومِنْكُمْ مَنْ يُتوفَّى ومِنْكم مَنْ يُرَدُّ إلى أرْذل العُمُر لكيْ لا يعْلم مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيئاً".
وقال تعالى: "ولقدْ خلقْنا الإنْسانَ مِنْ سُلالةٍ مِن طينٍ ثُمَّ جَعلْناهُ نُطْفةً في قرارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خلقْنا النُّطْفة علقةً فخلقْنا العلقةَ مُضْغةً فخلقْنا المُضغةَ عظاماً فكسوْنا العظام لحمْاً ثُمَّ أنْشأناهُ خلْقاً آخر فتبارك الله أحْسنُ الْخالقين".
وقال عز وجل: "هُوَ الَّذي خلقكُمْ مِنْ تُرَاب ثم من نطفةٍ ثُمَّ مِنْ علقةٍ ثُمَّ يُخْرجُكُمْ طِفلاً ثُمَّ لتبْلغُوا أشُدَّكُمْ ثُمَّ لتكُونُوا شُيُوخاً ومِنْكُمْ مَنْ يُتوفَّى منْ قبْلُ ولتبْلُغُوا أجلاً مُسمَّى ولعلَّكُمْ تعْقلُون".
وفي الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إنَّ أحدكم يجمع في بطن أُمِّه أربعين يوماً، ثمَّ يكون علقةً مثل ذلك، ثمَّ يكون مضغةً مثل ذلك، ثمَّ يبعث الله تعالى ملكاً فيؤمر بأربع: برزقه وأجله وشقيّ أو سعيد"، الحديث.
وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "وكّل الله بالرحم ملكا: فيقول أيْ رب نطفةٌ! أي ربِّ علقةٌ! أي ربِّ مضغةٌ! فإذا أراد الله أن يقْض خلْقها قال: أيْ ربِّ ذكرٌ أم أنثى؟ أشقيّ أم سعيد؟

فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيُكتب كذلك في بطن أمِّه. خرج ذلك البخاري في صحيحه في باب القدر.
وقال الثعلبيّ في تفسير قوله تعالى "لَتَرْكَبُنَّ طَبقَاً عَنْ طَبَقٍ": "قالت الحكماء: يشتمل الإنسان من كونه نطفة إلى أن يهرم ويموت على سبعة وثلاثين حالا، وسبعة وثلاثين اسما: نُطْفة، ثم علقة، ثم مُضغة، ثم عظماً، ثم خلقاً آخر، ثم جنينا، ثم وليداً، ثم رضيعاً، ثم فطيماً، ثم يافعاً، ثم ناشئاً، ثم مترعرعاً، ثم حزوَّراً، ثم مُراهقاً، ثم مُحْتلماً، ثم بالغاً، ثم أمرد، ثم طارّاً، ثم باقلاً، ثم مُسيطراً، ثم مُصْرخاً، ثم مُخْتطاً، ثم صُمُلاً، ثم مُلحياً، ثم مستريماً، ثم مصعداً، ثم مُجْتمعاً.
وقال غيره:
ما دام الولد في الَّرحم، فهو جنين؛ فإذا ولد، فهو وليد، وما دام لم يسْتتم سبعة أيام، فهو صديغ: لأنه لم يشتدّ صُدغه إلى تمام السبعة؛ ثم ما دام يرْضع، فهو رضيع؛ فإذا قُطع عنه اللبن، فهو فطيم؛ ثم إذا غلُظ وذهبت عنه ترارة الرِّضاعة، فهو جحوش.
قال الهذليّ:
قتلنا مخْلداً وابنيْ خُراق وآخر جحوشاً فوق الفطيم
ثم إذا دبَّ ونما، فهو دارج. فإذا بلغ طُولُه خمسة أشبار، فهو خُماسيّ. فإذا سقطت رواضعه، فهو مثْغور. فإذا نبتت أسنانه بعد السقوط، فهو مُثَّغر ومتَّغر معاً. فإذا تجاوز عشر سنين أو جاوزها، فهو مترعْرع وناشئ. فإذا كاد أن يبلغ الحلم أو بلغه، فهو يافعٌ ومراهق. فإذا احتلم واجتمعت قوّته، فهو حزوّر؛ واسمه في جميع هذه الأحوال التي تقدّم ذكرها غُلام. فإذا احضرَّ شاربه وأخذ عذاره يسيل، قيل فيه قد بقل وجهه. فإذا صار ذا فتاءٍ، فهو فتىً وشارخ. فإذا اجتمعت لحيته وبلغ غاية سبابه، فهو مجتمع. ثم ما دام بين الثلاثين والأربعين، فهو شابٌّ، ثم هو كهْل إلى أن يستوف الستين. ظهور الشيب وعمومه يقال للرجل أوّل ما يظهر به الشيب، قد وخطه الشيب. فإذا زاد، قيل خصَّفه وخوَّصه. فإذا ابيضَّ بعض رأسه، قيل قد أخْلس رأسه، فهو مُخْلس. فإذا غلب بياضه سواده، فهو أغثم. فإذا شمطت مواضع من لحيته، قيل وخزه القتير ولهزه. فإذا كثر فيه الشيب وانتشر، قيل فيه قد تقشّع فيه الشيب.
ويقال أيضاً: شاب الرجل، ثم شمط، ثم شاخ، ثم كبر، ثم توجَّه، ثم دلف، ثم دبَّ، ثم مجَّ، ثم هدج، ثم ثلَّب، ثم الموت.
وقيل: ما السرور؟ قال: إدراك الحقيقة، واستنباط الدَّقيقة. وأما النفس الغضبية، فهمُّ صاحبها منافسة الأكْفاء ومغالبة الأقْران ومكاثرة العشيرة. ومن ذلك ما أجاب به حصين بن المنذر، وقد قيل له: ما السُّرور؟ قال: لواءٌ منشور، والجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير.
وقيل للحسن بن سهل: ما السرور؟ قال: توقيع جائر، وأمر نافذ. وقيل لعبد الله بن الأهتم: ما السرور؟ قال: رفع الأولياء، ووضع الأعداء، وطول البقاء، مع الصحة والنماء. وقيل لزياد: ما

السرور؟ قال: من طال عُمُره، ورأى في عدوّه ما يُسُّره. وقيل لأبي مسلم، صاحب الدعوة: ما السرور؟ قال: ركوب الهمالجة، وقتل الجبابرة.
وقيل له: ما اللذة؟ قال: إقبال الزمان، وعزُّ السلطان. وأما النفس البهيمية، فهمُّ صاحبها طلب الراحة. وانهماك النفس على الشهوة من الطعام والشراب والنكاح.
وعلى هذه الطبيعة البهيمية قسمت الفُرْسُ دهرها كلَّه، فقالوا: يوم المطر للشرب، ويوم الريح للنوم، ويوم الدّجْن للصيد، ويوم الصَّحو للجلوس. قيل: ولما بلغ ابن خالويه ما قسمته الفرس من أيامها قال: ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم! "يعْلَمُون ظَاهراً مِنَ الْحَياة الدُّنْيا وهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غافلُون".
ولكنَّ نبينا صلى الله عليه وسلم جزَّأ نهاره ثلاثة أجزاء: جزءاً لله، وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه؛ ثم جزَّأ جزأه بينه وبين الناس، فكان يستعين بالخاصة على العامة، ويقول: "أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغي. فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع، آمنه الله يوم الفزع الأكبر". قالوا: والطبيعة البهيمية هي أغلب الطبائع على الإنسان: لأخذها بمجامع هواه، وإيثار الراحة وقلة العمل.
ومن ذلك قولهم: الرأى نائم، والهوى يقظان؛ وقولهم: الهوى إلهٌ معبودٌ. ومن ذلك ما أجاب به امرؤ القيس، وقد قيل له: ما السرور؟ فقال: بيضاء رُعْبُوبة، بالطيب مشبوبة، باللحم مكروبة. وكان مفتوناً بالنساء. وقيل لأعشى بكر: ما السرور؟ قال: صهباء صافية، تمزُجُها ساقية، من صوْب غادية. وكان مغرماً بالشراب.
وقيل لطرفة بن العبد: ما السرور؟ قال: مطعم هنيّ، ومشرب رويّ، وملبس دفيّ، ومركب وطيّ. وكان يؤثر الخفض والدَّعة. وهو القائل:

فلولا ثلاثٌ هنّ من عيشة الفتى وعيشك! لم أحْفل متى قام عُوَّدي
فمنهنّ سبقي العاذلات بشربة كُميت متى ما تعل بالماء تزبدِ
وكَرِّي إذا نادى المُضافُ مُحنَّبا كسيد الغضا نبَّهْته المتورِّدِ
وتقصير يوم الدَّجْن، والدَّجْنُ مُعْجب، ببهْكنةٍ تحت الخباء المُعمَّدِ

وسمع هذه الأبيات عمر بن عبد العزيز فقال: وأنا لولا ثلاث لم أحفل متى قام عُوَّدي: لولا أن أعدل في الرعية، وأقسم بالسويَّة، وأنفر في السَّريَّة.
وقال عبد الله بن نهيك، عفا الله تعالى عنه:

فلولا ثلاثٌ هنّ من عيشة الفتى وعيشك، لم أحفل متى قام رامسُ
فمنهن سبْقُ العاذلات بشربة كأنَّ أخاها مطلع الشمس ناعسُ

ومنهنّ تجريد الكواعب كالدُّمى إذا ابتُزَّ عن أكفالهنّ الملابسُ
ومنهن تقريط الجواد عنانه إذا ابتدر الشخص الخفيّ الفوارسُ
وقيل ليزيد بن مزيد: ما السرور؟ فقال: قُبْلة على غفلة: وقيل لُحرقة بنت النعمان: ما كانت لذة أبيك؟ قالت: شرب الجرْيال، ومحادثة الرجال. وقيل للحسن بن هانئ: ما السرور؟ فقال: مجالسة الفتْيان، في بيوت القيان، ومنادمة الإخوان، على قُضب الرَّيْحان؛ ثم أنشد:
قلت بالقُفْص لموسى، ونداماي نيامُ:
يا رضيعي ثدي أمٍّ ليس لي عنه فطامُ!
إنما العيشُ سماعٌ ومُدام وندامُ.
فإذا فاتك هذا، فعلى الدّنيا السلامُ!

الباب الثاني

من القسم الأوّل من الفن الثاني
أعضاء الإنسان وتشبيهها

وما وصف به طيب الريق والنَّكْهة، وحسن الحديث، والنَّعْمة، واعتدال القدود، ووصف مشْي النساء. وهو مرتب على ترتيب بنْية الإنسان في المذكر والمؤنث.
الشَّعر وما قيل فيه
قال الثعالبيّ عن أئمة اللغة: العقيقة، الشعر الذي يولد به الإنسان. الفروة، شعر معظم الرأس. الناصية، شعر مقدّم الرأس. الذُّؤابة، شعر مؤخَّر الرأس. الفرْع، شعر رأس المرأة. الغديرة، شعر ذُؤابتها. الغفر، شعر ساقها.
الدَّبب، شعر وجهها. الوفْرة، ما بلغ شحمة الأذن من الشعر. اللِّمَّة، ما ألمَّ بالمنكب منه. الطُّرَّة، ما غشَّى الجبهة منه. الجُمَّة والغفْرة، ما غطي الرأس منه. الهُدب، شعر أشفار العين. الشارب، شعر الشَّفة العليا. العنْفقة، شعر الشفة السُّفلى. المَسْربة، شعر الصدر. وفي الحديث أنه كان عليه الصلاة والسلام دقيق المسْربة. الشِّعْرة، العانة.
الإسْب، شعر الأست. الزَّبب، شعر بدن الرجل. ويقال بل هو كثرة الشعر في الأذنين. تفصيل أوصافه يقال: شعر جُفال، إذا كان كثيرا. ووحْفٌ، إذا كان متصلا. وكثٌّ، إذا كان كثيراً كثيفاً مجتمعاً. ومُعْلنْكس، ومُعْلنْكك، إذا زادت كثافته. ومُنْسدر، إذا كان منبسطاً. وسبْط، إذا كان مسترْسلاً. ورجْل، إذا كان غير جَعْد ولا سبط. وقططٌ، إذا كان شديد الجُعُودة. ومقْلعطٌّ، إذا زاد على القطط. ومُفلفل، إذا كان نهايةً في الجعودة كشعر الزِّنج. وسُخام، إذا كان حسناً ليِّناً. ومُغْدودن، إذا كان طويلاً ناعماً.
وقال الأصمعيّ: من لم يخفَّ شعره قبل الثلاثين لم يصلع أبداً؛ ومن لم يحمل اللحم قبل الثلاثين لم يحمله أبداً.
وصف به الشّعرُ

قال نصر بن أحمد، عفا الله تعالى عنه:

سلْسل الشَّعْر فوق وجهٍ، فحاكى ظُلْمَةَ الليل فوق ضوْء الصَّباحِ

وقال ابن الروميّ:

وفاحم واردٍ يُقبِّلُ مم شاه إذا اخْتال مُرْسلاً غُدُرهْ
أقبل كاللَّيل من مفارقه منحدراً لا يذُمَّ منحدرهْ
حتَّى تناهى إلى مواطنه يلْثمُ من كلِّ موْطئ عفرهْ
كأنَّهُ عاشقٌ دنا شغفاً حتَّى قضى من حبيبه وطرهْ

وقال فتح الدّين بن عبد الظاهر:

حلَّ ثلاثاً يوم حمَّامه ذوائباً يعْبقُ منها الغوالْ
فقلتُ، والقصدُ ذُؤاباته: يا سهري في ذي اللَّيالِ الطِّوالْ!

وقال آخر:

قد عُلِّق القلب بدبُّوقةٍ وجُنَّ منها فهو مفْتونُ؟
واعجباً للعشق في حُكمه بشعرة قُيِّد مجنونُ!

وقال آخر:

رأيت على قدِّ الحبيب ذُؤابةً فعيْني على تلك الذُّؤابة تهْمعُ
يقول لي الواشون: مالك باكياً؟ فقلت: بعيني شعرةٌ فهي تدْمعُ

وقال آخر:

وشعرةٍ عاينهنا ناظري على قوام مائس الخطْرة
فسال دمعاً وهمي جفنُه، والدمع لاَ شكَّ من الشَّعْرة

وقال آخر:

ولرُبَّ ممشوق القوام تضُمُّه ممشوقةٌ، فتعانقا غُصْنينِ
أرخت ذوائبها وأسبل شعره، فتقابلا قمرين في ليليْنِ

شعور النساء

قال بكر بن النطَّاح:

بيضاءُ تسحب من قيام فرعها وتغيبُ فيه فهو جثْلٌ أسْحمُ
فكأنها فيه نهارٌ ساطعٌ، وكأنه ليلٌ عليها مُظلِمُ

وقال آخر:

نشرتْ عليَّ ذوائباً من شعرها، حذر الكْواشح والعدوِّ المُحْنقِ
فكأنَّني وكأنها وكأنه صُبحانِ باتا تحت ليلٍ مُطبق

وقال عمر بن أبي ربيعة:

سبتْهُ بوحْف في العقاص كأنَّهُ عناقيدُ، دلاَّها من الكّرم قاطِفُ
أسيلات أبدانٍ، دقاقٌ خصورها، وثيرات ما التفَّت عليه الملاحفُ

وقال المتنبي:

ومن كُلَّما جرَّدْتُها من ثيابها، كساها ثياباً غيرها الشَّعرُ الوحْفُ

وقال أيضاً:

دعت خلاخيلها ذوائبها، فجئْن من فرْقها إلى القدمِ

وقال في أخرى:

نشرتْ ثلاث ذوائبٍ من شعرها في ليلةٍ، فأرتْ ليالي أربعاً
واستقبلت قمر السماء بوجهها، فأرتني القمرين في وقتٍ معاً

وقد ألمَّ في ذلك بقول ابن المعتزّ:

سقتْني في ليلٍ شبيهٍ بشعرها شبيهة خدَّيها بغير رقيبِ
فأمْسيْت في ليلَين بالشعر والدُّجى، وشمسيْن من خمْرٍ وخدِّ حبيبِ

وقال ابن المعتزّ:

فلما أن قضت وطراً وهمَّتْ على عجلٍ بأخذٍ للرِّداءِ،
رأتْ شخص الرَّقيب على تدانٍ فأسبلت الظَّلام على الضِّياءِ.
وغاب الصبح منها تحت ليلٍ، وظلَّ الماء يقطر فوق ماءِ.

وقال ابن لنْكك:

هل طالبٌ ثأر من قد أهدرت دمهُ بيضٌ، عليهنّ نذْرٌ قتل من عشقاً؟
من العقائل ما يخطرن عن عُرُضٍ إلاَّ أريْنك في قدٍّ قناً ونقاً.
رواعفٌ بخدودٍ زانها سبجٌ قد زرْفن الحسن في أصداغها حلقاً.
نواشرٌ في الضُّحى من فرعها غسقاً، وفي ظلام الدُّجى من وجهها فلقاً.
أعرن غيد ظباءٍ رُوِّعت غيداً، والورد توريد خدٍّ، والمها حدقاً.

وقال ابن دريد الأزديّ:

غرَّاء لو جلت الخُدود شُعاعها للشَّمْس عند طُلُوعها، لم تُشْرقِ
غُصْن على دعْصٍ تألَّق فوقه قمرٌ تألَّق تحت ليل مُطبقِ
لو قيل للحُسْن: احتكم لم يعْدُها أو قيل: خاطبْ غيرها! لم ينْطقِ
فكأنَّنا من فرعها في مغربٍ، وكأنَّنا من وجهها في مشرقِ

وقال آخر:

جُعودةُ شعرها تحْكي غديرا يُصفِّقه الجنوبُ مع الشَّمالِ

الشيب والخضاب

من المدح والذم

فأما مدح الشيب، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من شاب شيبةً في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة".

وقال ابن أبي شيبة: "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نَتْف الشيب وقال: هو نور المؤمن".

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن أوّل من رأى الشيب إبراهيم الخليل عليه السلام، فقال: يا ربِّ ما هذا؟ فقال له: الوقار، فقال: رب زدْني وقارا".

وتأمل حكيمٌ شيبه فقال: مرحباً بزهرة الحُنْكة ويُمْن الهدى ومقدِّمة العفَّة ولباس التقوى. وقيل: دخل أبو دُلف على المأمون وعنده جارية له، وكان أبو دلف قد ترك الخضاب، فأشار

المأمون إلى الجارية فقالت له: شبْت يا أبا دُلف، إنا لله وإنا إليه راجعون. فسكت عنها أبو دلف، فقال له المأمون: أجبها، فقال:

تهزَّأت إذ رأت شيْبي فقلتُ لها: لا تهزئي من يطُلْ عمرٌ به يشيبِ!
شيبُ الرجال لهم زيْنٌ ومكْرُمةٌ، وشيبُكن لكُنَّ الويل فاكتئبي!
فينا لكُنَّ - وإن شيب بدا - أربٌ، وليس فيكُنَّ بعد الشَّيب من أربِ!

وقال آخر:

أهلاً وسهلاً بالمشيب ومرحباً، أهلاً به من وافدٍ ونزيلِ!
أهْدي الوقار وذاد كلَّ جهالة كانت، وساق إليّ كلَّ جميلِ.
فصحبت في أهل التقى أهل النهى ولقيت بالتعظيم والتبجيلِ.
ورأى لي الشُّبَّان فضل جلالة لما اكتهلت، وكنت غير جليلِ.
فإذا رأوْني مقبلاً، نهضوا معاً: فِعلُ المقرِّ لهيبة التفضيلِ.
إن قلت، كنت مصدقاً في منطقي، ماضي المقالة حاضر التعديلِ.

وقال مسلم بن الوليد:

الشيب كُرهٌ، وكُرهٌ أن يُفارقني اعجب لشيءٍ على البغضاء مودود.

وقال عليّ بن محمد الكوفيّ:

بكى للشَّيب، ثم بكى عليه وكان أعزَّ من فقد الشَّبابِ.
فقلْ للشَّيب: لا تبْرحْ حميداً إذا نادى شبابك بالذهابِ.

وقال العسكريّ:

يودُّ أنَّ شيبه إذ جاء لا ينْصرفُ.
يخْلُفُ ريعان الصِّبا والموت منه خلفُ.

وقال ابن المعتزّ:

قد يشيبُ الفتى، وليس عجيباً أن يُرى النَّوْرُ في القضيب الرَّطيبِ.

وقال أبو تمام:

ولا يؤرِّقْك إيماضُ القتير به فإنَّ ذاك ابتسام الرأي والأدبِ.

وقال أبو الفتح البستي:

يا شيْبتي دُومي ولا تترحَّلي وتيقَّني أنِّي بوصلكِ مُولعُ!
قد كنت أجْزعُ من حُلولك مرةً، فالآن من خوف ارتحالك أجزعُ!

وقال آخر:

فأما المشيب فصُبْحٌ بدا وأما الشباب فليل أفلْ.
سقى الله هذا وهذا معاً فنعم المولَّى ونعم البدلْ!

وقال أبو الفتح كشاجم:

تفكرت في شيب الفتى وشبابه فأيقنْت أن الحقَّ للشَّيب واجبُ.

يصاحبني شرخ الشباب فينقضي، وشيبي لي حتَّى الممات مصاحبُ.

وقال أبو العلاء السرويّ، شاعر اليتيمة:

حيِّ شيباً أتى لغير رحيل، وشباباً مضى لغير إيابِ!
أيُّ شيءٍ يكون أحسن من عا ج مشيبٍ في آبنوس شبابِ؟

وقال أبو عوانة الكاتب:

هزئت إذ رأت مشيبي، وهل غي ر المصابيح زينةٌ للسماءِ؟
وتولت فقلت قولاً بإفصا حٍ لها، لا بالرَّمز والإيماءِ:
إنما الشيب في المفارق كالنُّو ر بدا والسَّواد كالظلماءِ.
لا محيصٌ عن المشيب أو المو ت، فكُنْ للحوباء أو للنمَّاءِ!
إن عمراً عوضت فيه عن المو ت بشيبٍ من أعظم النَّعماءِ!

وقال ابن عبد ربه:

كأنَّ سواد لمته ظلام يُطلُّ من المشيب عليه نُورُ.

وقال أبو عبد الله الأسباطي:

لا يَرُعك المشيبُ، يا ابنة عبد الله، فالشيب زينةٌ ووقارُ!
إنما تحسُنُ الرياض إذا ما ضحكت في ظلالها الأنوارُ.

ذم الشيب

قال قيس بن عاصم رحمة الله عليه: الشيب خطام المنيَّة.

وقال غيره: الشيب نذير الموت.

وقد ورد في بعض التفاسير في قوله تبارك وتعالى "وجاءكم النَّذير". قيل: هو الشيب. وقال أعرابيّ: كنت أُنكر البيضاء، فصرت أُنكر السوداء؛ فيا خيْر مبدول ويا شرّ بدل. وقيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم: عجَّل عليك الشيب يا رسول الله، قال: "شيَّبتني هودٌ وأخواتها". قيل: هي عبس، والمرسلات، والنازعات.

وقيل لعبد الملك بن مروان: عجَّل عليك الشيب يا أمير المؤمنين، قال: شيبني ارتقاء المنابر وتوقُّع اللحن. وقال بعضهم: خرجت إلى ناحية الطَّفاوة، فإذا أنا بامرأة لم أر أجمل منها، فقلت: أيتها المرأة، إن كان لك زوج فبارك الله له فيك، وإلا فأعلميني. قال فقالت: وما تصنع بي؟ وفيّ شيء لا أراك ترتضيه. قلت: وما هو؟ قالت: شيبٌ في رأسي. قال: فثنيت عنان دابتي راجعاً، فصاحت بي: على رسلك، أخبرك بشيْ، فوقفت وقلت: وما هو، يرحمك الله؟ قالت: والله ما بلغت العشرين بعد، وهذا رأسي فكشفت عن عناقيد كالحمم، وقالت: والله ما رأيت برأسي بياضاً قطُّ، ولكن أحببت أن تعلم أنّا نكره منك ما تكره منا، وأنشدت:

أرى شيب الرِّجال من الغواني بموضع شيبهنّ من الرجال!

قال: فرجعت خجلاً، كاسف البال.

قال أبو تمام:

غدا الشيب مختطاً بفوْديّ خطةً سبيل الرَّدى منها إلى النفس مهيعُ.

هو الزُّور يُجْفى، والمعاشر يُجتوى، وذو الإلف يُقلى، والجديد يرقَّعُ.

له منظرٌ في العين أبيض ناصعٌ ولكنه في القلب أسود أسفعُ.

وقال آخر:

تقول لمَّا رأتْ مشيبي بدا، وعندي له انقباضُ:

لا ترجُ عطفاً عليك منِّي، سوّد ما بيننا البياضُ!

وقال آخر:

وقالوا: مشيب المرء فيه وقاره، وما علموا أن المشيب هو العيبُ.

وأيُّ وقارٍ لامرئ عُرِّى الصِّبا، ومن خلفه شيبٌ وقدَّامه شيبُ؟

وقال آخر:

من شاب، قد مات وهو حيٌّ، يمشي على الأرض مشي هالكْ!

لو كان عُمر الفتى حساباً كان له شيبه فذالكْ.

وقال محمود الوراق:

بكيت لقرب الأجلْ، وبعد فوات الأملْ!.

ووافق شيبٌ طرا بعقب شبابٍ رحلْ.

شبابٌ كأن لم يكن وشيبٌ كأن لم يزلْ.

طوى صاحبٌ صاحباً كذاك اختلاف الدُّولْ!

وقال عبيد بن الأبرص:

والشيب شيْنٌ لمن أمسى بساحته! لله درُّ شباب اللِّمة الخالي.

وقال البحتري:

وددت بياض السيف يوم لقيتني مكان بياض الشيب حلَّ بمفرقي.

وقال أبو العتاهية:

عريت عن الشباب، وكان غضّاً، كما يعرى من الورق القضيبُ.

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيبُ!

وقال آخر:

يا حسرتاً أين الشباب الذي على تعدِّيه المشيبُ اعتدى؟

شبْتُ، فما أنْفكَّ من حسرةٍ والشيب في الرأس رسول الرَّدى!

إنَّ مدى العمر قريبٌ فما بقاء نفسي بعد قُرب المدى؟

وقال آخر:

هذا عذارك بالمشيب مُطرَّزُ فقبول عُذْرك في التصابي مُعْوزُ!

ولقد علمت - وما علمت توهُّماً - أن المشيب لهدم عمرك يرْمزُ.

وقال أيضاً:

ألست ترى نجوم الشَّيب لاحت وشيب المرء عنوان الفساد!

وقال أيضاً:

أبلى جديدي هذان الجديدان والشأن في أن هذا الشَّيب ينعاني!
كأنما اعتمَّ رأسي منه بالجبل الر اسي، فأوهنني ثقْلاً وأوهاني.

وقال آخر:

لما رأت وضح المشيب بعارضي صدّت صدود مُجانب متحمِّلِ.
فجعلت أطلب وصلها بتلطّف، والشيب يغمزها بأن لا تفْعلي!

وقال كشاجم:

ضحكت! من شيبةٍ ضحكت لسواد اللِّمة الرجلة
ثم قالت وهي هازئةٌ: جاء هذا الشيب بالعجلة!
قلت: من حُبِّيك، لا كبرٌ، شاب رأسي فانثنت خجلة.
وثنت جفْناً على كحلٍ هي منه الدَّهر مكتحلة.
أكثرت منه تعجُّبها! فهي تجْنيه وتعْجب له.

وقال أبو تمام:

دقةٌ في الحياة تُدعى جلالاً، مثل ما سُمِّي اللَّديغ سليماً.
غُرَّة مُرَّة ألا إنما كن ت أغرّاً أيام كنت بهيماً.

وقال ابن المعتز:

لقد أبغضت نفسي في مشيبي فكيف تُحبُّني الخُودُ الكعابُ؟

وقال أبو هلال العسكريّ:

فلا تعجبا أن يعبْن المشيبا فما عبْن من ذاك إلا معيباً!
إذا كان شيْبي بغيضاً إلى فكيف يكون إليها حبيباً؟

وقال محمد بن أمية:

رأين الغواني الشيب لاح بعارضي، فأعرضْن عنِّي بالخُدود النَّواضرِ.
وكنّ إذا أبصرنني أو سمعن بي، دنوْن فرقَّعْن اللِّوى بالمحاجرِ.

وقال آخر:

قالت، وقد راعها مشيبي: كنت ابن عمّ فصرت عمَّا.
واستهزأتْ بي، فقلت أيضاً: قد كنت بنتاً فصرت أمّاً.

وقال آخر:

تضاحكت لمَّا رأتْ شيبْاً تلالاً غُررُهْ.
قلتُ لها: لا تعجبي أنبيك، عندي خبرُهْ.
هذا غمامٌ للردَّى، ودمع عيني مطرُهْ.

مدح الخضاب

ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "غيِّروا هذا الشيب، وجنِّبُوه السواد". وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يخْضب بالحناء وبالكتم.

وقد مدح الشعراء الخضاب.

فمن ذلك قول عبد الله بن المعتزّ:

وقالوا: النُّصُولُ مشيبٌ جديدْ! فقلت: الخضاب شباب جديدْ!
إساءة هذا بإحسان ذا فإن عاد هذا فهذا يعودْ.

وقال أبو الطيب المتنبي:
وما خضب الناس البياض لأنَّهُ قبيحٌ، ولكن أحسنُ الشَّعْر فاحمُه.

وقال محمود الورّاق:
للضَّيْف أن يُقْرى ويُعْرف حقُّه! والشيب ضيفُك، فاقره بخضابِ.

وقال عبدان الأصبهانيّ:
في مشيبي شماتةٌ لعداتي، وهو ناعٍ منغِّصٌ لحياتي.
ويعيبُ الخضاب قومٌ، وفيه أيّ أُنْسٍ إلى حُضُور وفاتي.
لا ومنْ يعلم السرائر منِّي ما به رُمْتُ خُلَّة الغانياتِ.
إنما رمتُ أن يُغيَّب عني ما ترينيه كلَّ يومٍ مراتي.
وهو ناعٍ إليّ نفْسي، ومن ذا سرَّه أن يرى وجُوه النُّعاتِ؟

وقال ابنُ الروميّ:
يا بياض المشيب سودت وجهي، عند بيض الوجوه سود القرون!
فلعمري، لأُخفينِّك جُهْدي عن عياني وعنِ عيان العيون!
ولعمري، لأمْنعنَّك أن تض حك في رأس آسفٍ محزونِ!
بخضابٍ فيه ابيضاضٌ لوجهي وسوادٌ لوجهك الملعونِ!

وقال آخر:
نهى الشيب الغواني عن وصالي وأوْقع بين أحبابي وبيْني.
فلست بتاركٍ تدبير ذقني إلى أن ينقضي أمدي لحيني.
أُدبِّر لحْيتي ما دمت حيّاً وأعتقُها ولكن بعد عيني.

وقال آخر:
قالوا: فلانٌ لم يشبْ، وأرى المشيب عليه أبطا.
فأجبتهمْ: لولا حدي ث الصَّبْغ لانكشف المغطَّى.

ذم الخضاب

قال محمود الورّاق، رحمه الله:
يا خاضب الشيب الَّذي في كُلِّ ثالثةٍ يعودْ.
إن النُّصول إذا بدا فكأنه شيبٌ جديدْ.
وله بديهة روعةٍ مكروهها أبدا عتيدْ.
فدع المشيب لما أرا د فلنْ بعود لما تُريدْ.

وقال آخر:
تستَّر بالخضاب، وأيّ شيءٍ أدلُّ على المشيب من الخضابِ؟

وقال ابن الروميّ:
قلْ للمسوِّد حين سوّد: هكذا غشُّ الغواني في الهوى إيّاكاً!
كذّب الغواني في سواد عذاره، فكذبْنه في وُدِّهنَّ كذاكاً!

وقال المتنبي:
ومن هوى كلِّ من ليست مموِّهة تركت لون مشيبي غير مخضوبِ.

ومن هوى الصدق في قولي وعادته رغبت عن شعر في الوجه مكذوبِ.

وقال الأمير شهاب الدين بن يغمور عفا الله عنه:

يا صابغ الشَّيب، والأيام تُظهره: هذا الشباب، وحقِّ الله مصنوعُ!

إن الجديد إذا ما كان في خلق يبين للناس أن الثوب مرقوعُ.

ما وصف به الوجه

فمن ذلك ما قيل في المذكر.قال الوجيهيّ:

مستْقبلٌ بالذي يهوى، وإن كثرت منه الإساءة، معذورٌ بما صنعا.

في وجهه شافعٌ يمحو إساءته من القلوب، وجيها حيثما شفعا.

وقال الآخر:

رأيت الهلال على وجهه فلم أدْرِ أيُّهما أنورُ؟

سوى أنَّ ذاك قريب المزارِ وهذا بعيد لمن ينظُر.

وذاك يغيب وذا حاضرٌ فما منْ يغيب كمن يحضُر.

ونفْع الهلال كثيرٌ لنا ونفع الحبيب لنا أكْثرُ.

وقال ابن لنكك:

البدْرُ والشمس المني رة والدُّمى والكوكبُ:

أضْحتْ ضرائر وجهه من حيث يطْلُعُ تغرُبُ.

وكأنّ جمر جوانحي في خدّه يتلهَّبُ.

وكأنّ غُصْن قوامه من ماء دمعي يشربُ.

وصوالجٍ في صُدْغه بسواد قلبي تلْعبُ.

وقال ابن المعدّل:

نظرتُ إلى مَنْ زيَّن الله وجهه، فيا نظرةً كادت على عاشقٍ تقضي!

وكبَّرت عشراً، ثم قلت لصاحبي: متى نزل البدر المنير إلى الأرضِ؟

وقال الخُبْزأرزِّي:

رأيت الهلال ووجه الحبيب فكانا هلاليْن عند النَّظرْ.

فلم أدر من حيرتي فيهما هلال الدُّجى من هلال البشرْ!

فلولا التورّد في الوجنتيْن وما راعني من سواد الشَّعرْ،

لكنت أظنَّ الهلال الحبيب وكنت أظنُّ الحبيب القمرْ!

وقال أبو الشيص:

تخْشع شمس النهار طالعةً حين تراه، ويخشع القمرُ.

تعْرفُه أنه يفوقُهما بالحسن، في عين من له بصرُ.

وقال أبو هلال العسكريّ:

ووجه نشرَّب ماء النعيم، فلو عُصر الحسن منه انعصرْ.

يمُرّ فأمنحه ناظري فينثُرُ ورداً عليه الخفرْ.

تمتعت العين في حسنه، فما حفلت بطلوع القمرْ.

وقال ابن المعتز:

يا مُفرداً بالحسن والشكلِ، من دلّ عينيك على قتلي؟

البدر من شمس الضُّحى نوره، والشمس من وجهك تستملي.

وقال ابن المعدّل يصف عُتْبة:

لعتبة صفحتا قمرٍ يفوق سناهما القمرا.
يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا.

وقال السريّ الرفاء:

قمرٌ تفرّد بالمحاسن كلِّها، فإليه يُنسب كلُّ حسنٍ يوصفُ.
فجبينه صُبْحٌ، وطُرّته دُجىً، وقوامه غصنٌ رطيبٌ أهيفُ.
لله ذاك الوجه! كيف تألَّفت فيه محاسن لم تكن تتألَّفُ؟

وقال آخر:

وفي أربع منِّي حلت منك أربعٌ، فما أنا أدري أيُّها هاج لي كرْبي؟
أوجهك في عيني، أم الرِّيق في فمي، أم النطق في سمعي، أم الحبُّ في قلبي؟

ومثله قول يعقوب الكنديّ:

وفي خمسةٍ منِّي حلتْ منك خمسةٌ: فريقك منها في فمي طيِّب الرَّشْفِ،
ووجهك في عيني، ولمسك في يدي، ونطْقك في سمعي، وعرْفك في أنفي.

وقال أبو نواس:

كأنما الوجه إذ بدا قمرُ مركَّب فوق قامة الغُصُن.
يا ذا الذي أصبح العباد به في فتنةٍ من عظائم الفتن!
أقبلْ بوجه الهوى إليّ، فقد أطلت بالصدّ مُعرضاً حزني!

وقال محمد بن وهب:

نم فقد وكّلت بي الأرقا لا هنا بعد لمن عشقا.
إنما أبقيت من جسدي شبحاً غير الذي خُلقا.
ما لمن تمَّت محاسنه أن يُعادي طرف من رمقا.
لك أن تُبدي لنا حسنا ولنا أن نُعمل الحدقا.

وجه الأنثى

قال ابن سكرة:

في وجه إنسانةٍ كلفت بها أربعةٌ ما اجتمعن في أحدِ.
فالخدُّ وردٌ والصُّدغ غاليةٌ والرِّيق خمرٌ والثغر من بردِ.
لكلِّ جزء من حسنها بدعٌ تودع قلبي ودائع الكمدِ!

وكان مكتوباً على عصابة ورد جارية الماهانيّ:

تمَّتْ! وتمَّ الحسن في وجهها! فكلُّ شيءٍ ما سواها مُحالْ.
للناس في الشهر هلالٌ، ولي في وجهها كلَّ صباحٍ هلالْ!

وقال آخر:

وإذا الدُّرّ زان حُسْن وجوهٍ، كان للدُّرّ حسنُ وجهك زيْنا.
وتزيدين طيِّب الطيب طيباً إن تمسِّيه! أين مثلك أينا؟

وقال آخر:

ليس فيها أن يُقال لها: كملتْ، لو أن ذا كَمُلا.

كلُّ جزءٍ من محاسنها صائر من حسنها مثلا.

وقال عمر بن أبي ربيعة:

وفتاةٍ إن يغبْ بدر الدُّجى، فلنا في وجهها عنه خلفْ.
أجمع الناس على تفضيلها، وهواهمْ في سواها مختلفْ.

وقال الجمانيّ من أبيات:

نرى الشمس والبدر معناهما بها واحداً، وهما معْنيانْ.
إذا طلعتْ وجهها، أشرقا بطلعتها، وهما آفلانْ.

صفاء الوجه ورقَّة البشرة،
فمن ذلك ما قيل مذكراً.

قال أبو نواس:

نظرت إلى وجهه نظرةً فأبصرت وجهي في وجهه.

وقال آخر:

أعدْ نظراً! فما في الخدِّ نبتٌ، حماهُ الله من ريْب المنونِ!
ولكن رقَّ ماء الوجه حتَّى أراك مثال أهداب الجفونِ!

ومثله قول الآخر:

ولما استدارتْ أعين الناس حولهُ تُلاحظُه كيف استقلَّ وسارا،
تمثَّلت الأهداب في ماء وجهه، فظنُّوا خيال الشَّعْر فيه عذارا.

وقال الأرّجانيّ:

ما أنْس، لا أنْسى له موْقفاً، والعيسُ قد ثوَّرهُنَّ الحُداهْ.
لما تجلَّى وجهه طالعاً، وقد ترامت نظراتُ الوشاة.
قابلني حين بدت أدمعي في خدِّه المصقول مثل المراهْ.
يوهم صحبي أنه مُسْعدي بأدمعٍ لم تُذْرها مقلتاهْ.
وإنما قلَّدني منَّةً بدمع عينٍ منَ جُفوني امتراهْ.
ولم تقع في خدِّه قطرة إلاَّ خيالات دموع البكاهْ.

وقال أيضاً:

وأغيد رقَّ ماء الوجه منه، فلو أرخى لثاماً عنه، سالا.
تبين سوادها الأبصارُ فيه، فحيث لحظت منه، حسبت خالا.

ومن ذلك ومما قيل في المؤنث،
قال بشار:

وما ظفرتْ عيني غداة لقيتها بشيْءٍ، سوى أطرافها والمحاجرِ.
بحوراء من حُور الجنان عزيزةٍ، يرى وجهه في وجهها كلُّ ناظرِ.

وقال السريّ الرفاء:

بيضاءُ تنظر من طرْفٍ تقلِّبه: مفرِّقٍ بين أجسادٍ وأرواحِ.
ماء النعيم على ديباجٍ وجنتها يجولُ بين جنى وردٍ وتُفَّاحِ.
رقَّتْ: فلو مُزج الماءُ القراح بها والراحُ، لامتزجت بالماء والراحِ!

وقال الأرّجانيّ من أبيات:

ولمَّا تلاقينا، وللعين عادةٌ تثير وشاةً عند كلِّ لقاءِ،

بدتْ أدمعي في خدِّها من صقاله، فغاروا وظنوا أن بكتْ لبكائي!

ومما قيل في صفرة الوجه، فمن ذلك ما قيل مذكراً.

قال أبو عبادة البحتريّ:

بدتْ صُفرةٌ في وجهه، إنَّ حمدهمْ من الدُّرّ ما اصفرَّت نواحيه في العقْدِ.

وقال آخر:

لم تشنْ وجهه المليح، ولكن جعلتْ ورد وجنتيه بهارا.

وقال الأرّجانيّ وأجاد:

راق ماء الحياة من وجنتيه، فهو مرآةُ أوجه العُشَّاقِ!

ومن ذلك ما قيل في المؤنث، قال سلم الخاسر:

تبدّت فقلت: الشمس عند طلوعها بوجهٍ غنيٍّ اللون عن أثر الورسِ!

فقلتُ لأصحابي، وبي مثلُ ما بهم، على مرْبِةٍ: ما ها هنا مطلع الشمسِ!

وقال أبو تمام:

صفراءُ - صفرة صحة - قد رُكِّبتْ جُثمانها في ثوب سُقم أصفر.

وقال مسعود الأصبهانيّ، شاعر الخريدة:

وقينةٍ قال لها ناقصٌ: كملت، لولا صُفرة اللونِ.

قلتُ: اتَّئد! فالشمسُ مصفرّةٌ، وهي صلاح الأرض في الكونِ!

ومما قيل في السمرة، قال شاعر:

كيف لا أعشق ظبيا سارحاً في ظلِّ ملك.

إنما السُّمرة فيه مزْجُ كافور بمسكِ.

وقال آخر:

يا ذا الذي يُذهب أموالهُ في حبِّ هذا الأسمر الفائق!

ما الذهب الصامت مستكثراً إذهابه في الذهب الناطق!

وقال آخر:

ذهبيُّ اللون! تحسب من وجنتيه النار تُقتدحُ.

خوّفوني من فضيحته! ليته وافى، وأفتضحُ!

ومما قيل في السَّواد (وهو يختص بالمؤنث):

قال الزركشيّ في "دنانير" البرمكية:

أشبهك المسكُ، وأشبهته: قائمةً في لونه قاعدة.

لا شكَّ، إذ لونكما واحدٌ، أنكما من طينةٍ واحدة.

وقال ابن الروميّ:

أكْسبها الحُبَّ أنها صُبغتْ صبغة حبِّ القلوب والحدقِ.

فأقبلتْ نحوها الضمائر وال أبصار، يعبقْن أيَّما عبقِ!

يفترُّ ذاك السواد عن يققٍ في ثغرها كاللآلئ النَّسقِ.

كأنها، والمزاح يُضْحكها، ليلٌ تفرّى دُجاه عن غسقِ.

وقال الصنوبريّ:

يا غُصُنا من سبج رطْبِ، أصبح منك الدرّفي كَرْبِ!

حبُّك من قلبي مكان الذي أشبهته من حبَّة القلبِ.

وقال محمد بن عبد الله السلاميّ، شاعر اليتيمة عفا الله عنه:

يا رُبَّ غانيةٍ بيضاء تصبحني من العتاب كُؤوساً ليس تنْساغُ.
أشتاق طُرّتها أو صُدْغها ومعي من كلِّها طررٌ سود وأصداغُ!
كأننا، لا أتاح الله فُرقتنا! يا كعبة المسك، يا زنْجيَّةً، زاغُ.

وقال آخر:

أحبُّ النساء السُّود من أجل تكتمٍ، ومن أجلها أحببت من كان أسوداً!
فجئني بمثل المسك أطيب نفحةً! وجئني بمثل الليل أطيب مرقداً!

وقال العسكريّ:

صرفت وُدّي إلى السُّودان من هجر، ولا التفتُّ إلى رومٍ ولا خزرِ!
أصبحت أعشق من وجهٍ ومن بدنٍ ما يعشق الناس من عينٍ ومن شعرِ.
فإن حسبت سواد الخدِّ منْقصةً، فانظر إلى سُفعة في وجنة القمر!

وقال بشار وأجاد:

يكون الخال في خدٍّ نقيٍّ فيكسبه الملاحة والجمالا،
ويونقه لأعين مبصريه، فكيف إذا رأيت اللون خالا؟

وقال أبو عليّ بن رشيق:

دعا بك الحسن فاستجيبي باسمك في صبغة وطيبِ.
تيهي على البيض واستطيلي، تيه شبابٍ على مشيبِ!
ولا يرُعْكِ اسوداد لونٍ كمقلة الشادن الرَّبيبِ.
فإنما النُّور عن سواد في أعين الناس والقلوبِ!

وقال آخر:

إن أزهرت ليلاً نجوم السما بيضاً على أسود مرخي الإزارْ.
وأوجب العكس مثالاً لها، فالسُّود في الأرض نجوم النهارْ.

ومما وصف به أثر الجدريّ في الوجه، فمن ذلك قول الناجم:

يا قمراً جدّر لما استوى واكتسب الملح بتلك الكُلُومْ!
أظنُّه غنَّى لشمس الضُّحى فنقَّطته فرحاً بالنُّجومْ.

وقال آخر:

وقالوا: شابه الجدريُّ، فانظرْ إلى وجهٍ به أثر الكُلومِ!
فقلت: ملاحةٌ نُثرت عليه! وما أحسن السماء بلا نجومِ؟

ومثله قول الآخر:

أيُّها العائبون وجهاً مليحاً نثر الحسنُ فيه نبْذ خُدُوشِ!
أيُّ أفقٍ بها بغير نُجوم؟ أيُّ ثوب زها بغير نُقُوشِ؟

وقال أبو زيد القاضي:

غايةُ الحاسد الذي لام فيه أن رأى فوق خدِّه جُدرياً.
إنما وجهه هلالُ تمامٍ، جعلوا برقعاً عليه الثريَّا!

وقال أبو تمام بن رباح:

خدُّك مرآة كلِّ حُسْنٍ، تحسنُ من حُسنها الصِّفاتُ!

مالي أرى فوقه نُجُوماً، قد كُسفتْ وهي نيِّراتُ؟
ومما قيل في الحواجب، فمن محاسنها: الزَّجج، والبلج.
فأما الزَّجج، فدقة الحاجبين وامتدادهما. وأما البلج، فهو أن يكون بينهما فُرجة. والعرب تستحب ذلك.
ومن معايبها: القرن، والزَّبب، والمعط. فالقرن، اتصال الحاجبين، والعرب تكرهه. والزَّبب، كثرة شعرهما.
والمعط، تساقط الشعر عن بعض أجزائهما. ومما وصفت به الحواجب، قال الزاهي:
وأغيد مجدول القوام جبينه سنا القمر البدريّ في الغُصُن الرَّطبِ.
تنكَّب قوس الحاجبين فسهمه لواحظه المرضى، وبرجاسه قلبي!
وقال عبد الله بن أبي الشيص:
حذرت الهوى حتَّى رُميتُ من الهوى بأصردِ سهمٍ من قسيّ الحواجبِ.
وقال محمد بن عبد الرحمن الكوفيّ:
ومستلبٍ عين الغزال وقد تُرى بجبهته عين الغزالة مائلا.
تناول قوس الحاجبين مُفوِّقاً بأسهم ألحاظٍ تشُكُّ المقاتلا.
وقال آخر:
غزاني الهوى في جيشه وجنوده وعبي عليّ الخيل من كلِّ جانب.
بميمنةٍ أعلامها أعين المها وميسرةٍ تقضي بِزُجِّ الحواجبِ.
وقال آخر:
لها حاجبان، الحسن والغنج منهما كأنهما نونان من خطِّ ماشقِ.
العيون ووصفها
فمن محاسنها: الدَّعج، وهو شدّة السَّواد مع سعة المُقْلة. البرج، وهو شدّة سوادها وشدة بياضها. النَّجل، سعتها. الكحل، سواد جفونها من غير كحل. الحور، اتساع سوادها كأعين الظباء.
وقيل: هو سواد العين وشدة بياضها. الوطف، طول أشفارها؛ وفي الحديث أنه كان عليه الصلاة والسلام في أشفاره وطفٌ.
الشُّهْلة، حمرة في سوادها.
ومن معايبها: الحوص، ضيق العين. الخوص، غُؤورها مع الضيق. الشَّتر، انقلاب الجفن. العمش، هو أن العين لا تزال سائلةً رامصةً. الكمش، أن لا تكاد تبصر. الغطش، شبه العمش. الجهر، أن لا تبصر نهاراً. العشا، أن لا تبصر ليلاً. الخزر، أن ينظر بمؤْخر عينه. الغضنُ، أن يكسر عينه حتَّى تتغضَّن جُفونه. القبل، أن يكون كأنه ينظر إلى أنفه. وهو أهون من الحول. الشُّطور، أن تراه ينظر إليك وهو ينظر إلى غيرك. وهو قريب من صفة الأحول. وفيه يقول الشاعر:
حمدتُ إلهي إذ بلاني بحبِّه وبي حولٌ أغنى عن النظر الشَّزرِ.

نظرتُ إليه - والرقيب يظنُّني نظرت إليه - فاسترحتُ من العذرِ.

الشَّوص، أن ينظر بإحدى عينيه ويميل وجهه في شق العين التي ينظر بها. الخفش، صغر العين وضعف البصر. ويقال إنه فساد في العين يضيق له الجفن من غير وجع.

الدَّوش، ضيق العين وفساد البصر. الإطْراق، استرخاء الجفن. الجُحُوظ، خروج المُقْلة وظهورها من الحجاج. البخق، أن يذهب البصر؛ والعين منفتحةٌ. الكمه، أن يولد الإنسان وهو أعمى. البخص، أن يكون فوق العين أو تحتها لحم ناتئ. عوارض العين يقال: حسرتْ عينه، إذا اعتراها كلال من طول النظر. زرَّتْ عينه، إذا توقَّدت من خوف. سدرتْ عينه، إذا لم تكد تبصر. اسمدرّت عينه، إذا لاحت لها سماديرُ؛ وهي ما يتراءى لها من أشباه الذُّباب وغيره. قدعت عينه، إذا ضعفت من الإكباب على النظر. حرجت عينه، إذا حارت.

قال ذو الرمّة: وتخْرجُ العين فيها حين تنْتقبُ

هجمتْ، إذا غارت. ونقْنقتْ، إذا زاد غؤورها؛ وكذلك حجلتْ وهجَّجتْ. ذهبت، إذا رأتْ ذهباً كثيراً فحارت فيه. شخصت، إذا لم تكد تطرف من الحيْرة. كيفية النظر وهيئته إذا نظر الإنسان إلى الشيء بمجامع عينيه، قيل: قد رمقه. فإذا نظر من جانب أذنه، قيل: لحظه. فإذا نظر إليه بعجلة، قيل: لمحه. فإذا رماه ببصره مع حدَّة، قيل: حدجه بطرْفه. وفي الحديث ابن مسعود "حدِّث القوم ما حدجوك بأبصارهم". فإن نظر إليه بشدّة وحدّة، قيل: أرشقه وأسفَّ النظر إليه. وفي حديث الشعبيّ أنه كره أن يُسفَّ الرجلُ إلى أمّه وأخته وابنته. فإن نظر إليه نظر المتعجِّب أو الكاره المبغض، قيل: شفنه وشفن إليه شُفُونا وشفْنا. فإن أعاره لحظ العداوة، قيل: نظر إليه شزراً. فإن نظر إليه بعين المحبة، قيل: نظر إليه نظرة ذي علق. فإن نظر إليه نظرة المستثْبت، قيل: توضَّحه. فإن نظر إليه واضعاً يده على حاجبه مستظلاً بها من الشمس ليستبين المنظور إليه: قيل استكفَّه واستوْضحه واستشرفه. فإن نشر الثوب ورفعه لينظر إلى صفاقته: قيل استشفَّه. فإن نظر إلى الشيء كاللَّحمة ثم خفى عنه، قيل: لاحه لوحةً. قال الشاعر:

وهلْ تنْفعنيِّ لوحةٌ لو ألُوحُها

فإن نظر إلى جميع ما في المكان حتَّى يعرفه، قيل: نفضه نفضاً. فإن نظر في كتاب أو حساب، قيل: تصفَّحه. فإن فتح عينيه لشدة النظر، قيل: حدق. فإن لألأهما، قيل: برَّق. فإن انقلب حُمْلاق عينيه، قيل: حمْلق. فإن غاب سواد عينيه من الفزع، قيل: برق بصره. فإن فتح عين مُفَزَّع أو مهدَّد، قيل: حمَّج. فإن بالغ في فتحها وأحدَّ النظر عند الخوف، قيل: حدَّج. فإن كسر عينه عند النظر، قيل: دنْقش وطرْفش. فإن فتح عينه وجعل لا يطْرف، قيل: شخص. وفي القرآن العزيز: "شَاخِصَةٌ أَبْصَارُهُمْ". فإن أدام النظر مع سكون، قيل: أسْجد. فإن نظر

إلى أُفُقْ الهلال ليراه، قيل تبصَّره. فإن أتبع الشيء بصره، قيل: أتأره بصره. وقد أوسع الشعراء في وصف العيون ووصفوها بالمرض والسَّقْم، وإن كانت صحيحةً. فمن ذلك قول الشاعر:

برَّح السُّقْمُ بي وليس صحيحاً منْ رأت عينه عُيوناً مراضاً.
إنَّ للأعْيُنِ المراض سهاماً صيَّرتْ أنفُس الورى أغْراضاً.
جوهرُ الحُسْن منذ أعراض للقلْ ب ثنى الجسم كلَّه أعراضاً.

وقال جرير:

إنَّ العيون التي في طرفها مرضٌ قتلْننا ثُمَّ لم يُحْيين قتْلانا.
يصرعنْ ذا اللُّبِّ حتَّى لا حراك به وهُنَّ أضعفُ خلْقِ الله أرْكانا.

وقال ذو الرمّة:

وعينان قال الله كُونا فكانتا فعُولين بالألباب ما تفْعل الخمر.

ومما وصفت به العيون على لفظ التذكير، فمن ذلك قول عبد الله بن المعتز:

عليمٌ بما تحت الصُّدور من الهوى سريعٌ بكرِّ اللَّحظ والقلب جازعُ.
ويجرح أحشائي بعينٍ مريضةٍ كما لان مسُّ السيف والسيف قاطعُ.

وقال خالد:

عينه سفَّاكةُ المُهج من دمي في أعظم الحرج.
أسهرتني وهي لاهيةٌ باحورار العين والدَّعج.

وقال الهمْذانيّ:

تعمل الأجفان بالدَّعج عمل الصَّهباء بالمُهَجِ.
قلْ لظبْيٍ تُسْترقُّ له مُهج الأحرار بالدَّعجِ.
أنت والأجفانُ ما لحظتْ من فُتور العين في حرجِ.
كيف أدعو الله أسأله فرجاً ممَّنْ به فرجي؟

وقال خالد:

ومريض طرفٍ ليس يصرف طرفه نحو امرئٍ، إلا رماه بحتفهِ.

قد قلت إذ أبصرته متمايلاً، والرِّدفُ يجذب خصره من خلفه:
يا من يُسلِّم خصره من ردفه، سلِّمْ فُؤاد محِّبه مِنْ طرفهِ!

وقال أبو هفّان:

أخُو دنفٍ رمتْه فأقصدتْهُ سهامٌ من جفونك لا تطيشُ.
قواتل لاقداح سوى احورارٍ بهنَّ، ولا سوى الأهداب ريشُ.

وقال أبو تمام:

يا سقم الجفن من حبيبي، ألبستني حُلَّة السِّقامِ!
كمْ قتلتْ مُقْلتاك ظُلْماً من عاشق القلب مُستهامِ.
يا من بعينيه لي غرامٌ قرَّب من مُهْجتي حمامي!
قد رويتْ من دمي، فحسْبي صوائبُ النَّبْلِ والسِّهامِ!

وقال العسكريّ:

فأرْعى تحت حاشية الدَّياجي شقائق وجنةٍ سُقيتْ مُداماً.

إذا كرَّتْ لواحظ مقلتيه، حسبت قلوبنا مُطرت سهاماً.

وقال ابن المعلم:

سلْ من بعينيه يصولْ: أهي اللِّحاظُ أم النُّصُولْ؟
ما جُرِّدت يوم النَّوى، إلا لتخْتلس العقولْ!
شهرت عيونهم سيو فاً، ما بمضْربها فُلولْ.
تُصْمي بغير جراحةٍ، تفري بغير دمٍ يسيلْ.
ولها بأفئدة الهوى فتْكٌ، وليس لها صليلْ.

وقال آخر:

روحي الفداء لمن أدار بلحظه صهباء في عقْلي لها تأثيرُ!
ومن العجائب أن يدير بلحظه مشمولةً، وإناؤها مكسورُ!

وقال آخر:

القلب بك المسلوب والملسوب والصب بك المعتوب والمتعوب.
يا من طلبت لحاظه سفْك دمي: مهلاً، ضعف الطالب والمطلوب!

وقال أبو تمام:

متطلِّبٌ بصدوده قتلي فرد المحاسن وجهه شُغلي.
ألحاظه في الخلق مُسْرعةٌ فيما تُريد كسرعة النَّبْلِ.

وقال آخر:

ألحاظكم تجرحنا في الحشا، ولحظنا يجرحكم في الخُدودْ.
جرح بجرح، فاجعلوا ذا بذا! فما الّذي أوجب هذا الصُّدودْ؟

وقال آخر:

ومُقْلة شادن أودت بقلبي، كأنَّ السُّقْم لي ولها لباسُ.
يسلُّ اللحظ منها مشْرفيّاً لقتلي، ثم يغمده النُّعاسُ.

وقال ابن الروميّ:

يا عليلاً، جعل الع لَّة مفتاحاً لظلمي!
ليس في الأرض عليلٌ غير جفنيك وجسمي.
بك سُقْمٌ في جفون، سُقْمها أكَّد سُقمي.

وقال تاج الدين بن أيوب:

أسقمني طرْفُك السَّقيم، وقد حكاه منِّي في سُقْمه الجسدُ!
هبَّ نسيمٌ من نحو أرضك لي فزادني في هواك ما أجدُ.
وهاج شوقي، والنار ما برحت عند هبوب الرِّياح تتَّقدُ.

وقال ابن المعتز:

ضعيفةٌ أجفانه، والقلب منه حجرُ!
كأنما ألحاظه من فعْله تعتذرُ.

وصف العيون على لفظ التأنيث
فمن ذلك ما قاله عديّ بن الرقاع:

وكأنَّها بين النِّساء أعارها عينيه أحور من جاذر جاسم.
وسنان أقصده النُّعاسُ فرنَّقتْ في عينه سنةٌ وليس بنائم؟

وقال الناجم:

كاد الغزال يكونها، لكنَّما هو دونها.
والنَّرجس الغضُّ الجن يّ أغضُّ منه جفونها.

من كان يعرف فضلها فعن القياس يصونها.

وقال أبو دلف:

نقتنص الآساد من غيلها، وأعين العين لنا صائدهْ!
ينبو الحسام العضب عنا وقد تكْلُم فينا النظرة القاصدهْ!
تهابنا الأُسْدُ، ونخشى المها: آبدةٌ ما مثلها آبدهْ!

وقال آخر:

لله ما صنعت بنا تلك المحاجر في المعاجرْ!
أمضى وأنفذ في القلو ب من الخناجر في الحناجرْ!

وقال آخر:

ينظرن من خلل السُّجوف كأنَّما يُمْطرن أحشاء الكريم نبالاً!

وقال أبو فراس الحمدانيّ عفا الله تعالى عنه ورحمه:

وبيضٍ بألحاظ العيون كأنما هززن سيوفاً أو سللن خناجرا.
تصدّينَ لي يوماً بمنعرج اللِّوى فغادرن قلبي بالتصبرُّ غادرا.
سفرْن بدوراً، وانتقبْن أهلَّةً، ومسْن غصوناً، والتفتْن جاذرا.
وأطلعْن في الأجياد للدُّرّ أنجماً جُعلْن لحبَّات القلوب ضرائرا.

وقال ابن الروميّ:

نظرت، فأقصدت الفؤاد بطرفها، ثم انثنت عنيِّ، فكدتُ أهيمُ!
ويلاي! إن نظرت وإن هي أعرضتْ: وقع السِّهام ونزعهنّ أليمُ!

وقال أيضاً:

لطرفها وهو مصروفٌ كموقعه في القلب حين يروع القلب موقعُه.
تصُدّ بالطَّرْف لا كالسَّهم تصْرفه عنِّي، ولكنَّه كالسَّهْم تنْزعُه.

وقال الأرّجاني:

نقّبوهنَّ خشية العشَّاق! أو لم تكْف فتنة الأحداق؟
إن في الأعين المراض لشغلاً للمُعنَّى عن الخدود الرِّقاق!
كلُّ ما فات في الليالي المواضي فهو في ذمّة اللَّيالي البواقي.

وقال أيضاً:

سترْن المحاسن إلا العيونا كما يشهد المعرك الدَّارعونا.
سللن سيوفاً ولاقيننا! فلا تسأل اليوم ماذا لقينا.
كسرن الجفون ولولا الرِّضا، بحكمْ الغرام كسرْنا الجُفُونا.
وحسْب الشهيد سُروراً بأن يُعاين حُوراً مع القتل عينا.

وقال أبو نواس:

ضعيفة كرِّ الطَّرف تحسب أنها قريبةُ عهدٍ بالإفاقة من سُقم.

وقال آخر:

يا من تكحَّل طرْفها بالسِّحر لا بالإثمدِ!
نفسي كما عذَّبتها وقتلتها بالإثمْ، دِي!

أدواء العين

فمن ذلك: الغمص، أن لا تزال العين ترْمص. اللَّحح، أسوأ الغمص. اللَّخص، التصاق الجفون. العائر، الرَّمد الشديد. وفيه يقول النابغة:

وبات وباتت له ليلةٌ كليلة ذي العائر الأرمد.

وكذلك الساهك.

الغرْب، ورم في المآقي. السَّبل، أن يكون على بياضها وسوادها شبه غشاء. السَّجا، أن يعسر على الإنسان فتح عينيه إذا انتبه من النوم: الظّفر، ظهور ظفرة وهي جُليدة تغشي العين من تلقاء المآقي.

الطّرْفة، أن يحدث في العين نقطةٌ حمراء. الانتشار، أن يتسع ثقْب الناظر حتَّى يلحق البياض من كل جانب. الحثر، أن يخرج في العين حبٌّ وهو الجرب. القمر، أن يعرض للعين فترة وفساد. يقال: قمرت عينه. مما قيل في أرمد فمن ذلك قول عبد الله بن المعتز وقيل إنها لابن الروميّ، وقيل للناجم:

قالوا: اشتكت عينه! فقلتُ لهم: من كثرة الفتك نالها الوصبُ!

حُمرتُها من دماء من قتلتْ، والدمُ في النَّصْل شاهدٌ عجبُ.

وقال ابن منير الطرابلسيّ:

رنا وفي طرفه احمرارٌ، يغُضُّ من سحر مقلتيْهِ.

وفاض من نرجسيْه ماءٌ، ضرَّجه وردُ وجنتيهِ.

فقلت يا ممرضي بوجهٍ، أظنُّ دائي سرى إليهِ!

هيهاتَ، لا تجحدنّ قتلي! هذا دمي شاهدٌ عليه!

وقال الواثق بالله:

لي حبيبٌ قد طال شوقي إليه، لا أُسَمِّيه من حذاري عليهِ.

لم تكن عينُه لتجحد قتلي، ودمي شاهدٌ على وجنتيْه!

وقال الصوليّ:

يكسرُ لي طرفاً به حُمرةٌ، قد خلط النَّرجس في وِرْدِهْ.

ما احمرت العين، ولكنَّهُ يكْحُلُها من وردتيْ خدِّهْ!

وقال آخر:

قالوا: بدت في عينه حُمرةٌ قد حازها من مردة الخدِّ.

فقلتُ: لم يرْمدْ ولكنه يُصافح النَّرجس بالوردِ!

وقال أبو عبد الله بن الحدّاد الوزير:

يا شاكي الرَّمد الذي بشكاته، قد صار دهري فيه ليلة أرمدا!

الله والإشفاق يعلم أنَّني لو أستطيع فداً، لكنت لك الفدا!

كم من دمٍ سفكتْ جفونك لم تزلْ تُخْفي وتكتم سفْكه حتَّى بدا.

لم يشتمل بدمٍ غرار مهنَّدٍ إلا وقد أهدى النفوس إلى الرَّدى.

وقال أبو الفرج الببغاء:

بنفسي ما يشكوه من راح طرْفهُ ونرجسُه مما دهى حسنه وردُ!

أراقت دمي ظُلماً محاسن وجهه فأضحت وفي عينيه آثاره تبدو!

غدت عينه كالجمر حتَّى كأنما سقى عينه من ماء توريده الخدُّ.
لئن أصبحت رمداء مُقلةُ مالكي، لقد طال ما استشْفتْ به مُقل رُمدُ!

وقال آخر:

قُضب الهند والقنا أخدانُك! والمقادير في الورى أعوانُكْ!
أيُّها ذا الأمير ما رمدت عيْ نك! حاشا لها، ولا أجفانُكْ!
بل حكت فعلك الكريم ليضحي شأنها في العلى سواءً وشأنُك.
فهي تحْمرُّ مثل سيفك في الرَّو ع، وتصفو كما صفا إحسانُك.

وقال آخر وأجاد:

لقد جار ما تشكوه في الحكم واعتدى وأسرف في أفعاله وتمرّدا!
فمن لي بأن لو كنت أعرف حيلةً تصيِّر أجفاني لأجفانك الفدا؟
دهتْ عينك العين التي قد قضى القضا بأنك فيها سوف تُصبح أرمدا.
فمذ بُدِّلتْ من نرجسٍ بشقائقٍ، أعادتْ لُجين الدمع منِّي عسْجدا.
سللْت حُسام اللحظ منها على الورى، وقد كان أحرى أن يُصان ويُغمدا!
فأنت الذي أبليتها بالذي بها، إذا السيف لم يُغمدْ تراكبه الصَّدا.

ومما قيل في أرمد غطى عينيه بشعْريَّة، قول السراج الورّاق:

شعْريَّتي، مُذْ رمدت قد حجبتْ كرفي عنكم، فصرت محبوسا.
الحمد لله! زادني شرفاً: كنت سراجاً فصرْت فانوسا.

وقال آخر:

غطَّى على عينيه شعْريَّةً تُشْعل في القلب لهيب الغرامْ.
كأنَّه البدر بدا نصْفُه، ونصفُه الآخرُ تحت الغمام!

وقال آخر:

لا تحسبوا شعْريَّةً أصبحتْ من رمدٍ في وجهه مُرسلة.
وإنما وجنته كعبة، أستارها من فوقها مُسبلة.

ومن رقعة كتبها أرمد وهو عبد الله بن عثمان الواثقي غفا الله عنه. قال: صادف ورود كتابه رمداً في عيني قد حصرني في الظلمة، وحبسني بين الغم والغُمَّة، وتركني أُدرك بيدي ما كنت أدرك بعيني: كليل سلاح البصر، قصير خطْو النظر. قد ثكلْت مصباح وجهي، وعدمت بعضي، الذي هو آثر عندي من كُلِّي. فالبيض عندي سُود، والقريب منِّي بعيد! قد أحاط الوجع أجفاني، وقبض عن التصُّرف بناني؛ ففراغي شُغل، ونهاري ليل، وطوال الخطا قصار، وقصار أوقاتي طوال. وأنا ضرير وإن

عُددت في البصراء، وأّميّ وإن كنت من جملة الكُتَّاب والقرّاء. قد قصرت العلة خطوتي قلمي وبناني، وقامت بين يدي ولساني. وقد كانت العرب تزاوج بين كلمات، فيقولون: القلّة ذلّة، والوحدة وحشة، والهوى هوان، والأقارب عقارب، والمرض حرض، والرَّمد كمد، والعلة قلّة، والقاعد مُقْعد. والله تعالى أعلم.

ترتيب البكاء

إذا تهيأ الرجل للبكاء، قيل: أجهش. فإذا امتلأت عينه دموعاً، قيل: اغرورقت عينه، وترقرقت. فإذا سالت، قيل: دمعت، وهمعت. فإذا كثُرتْ دموعه، قيل: همت. فإن كان لبكائه صوت، قيل: نحب ونشج. فإذا صاح مع بكائه، قيل: أعول. قال سلم الخاسر:

أتثْني تؤنِّبني في البكاء فأهْلاً بها، وبتأْنيبها!
تقول، وفي قولها حشْمةٌ: أتبْكي بعين تراني بها؟
فقلت: إذا استحسنتْ غيركم، أمرت الدُّموع بتأديبها.

الأنف

الشَّمم، ارتفاع قصبة الأنف مع استواء أعلاها. القنا، طول الأنف، ودقّة أرنبته، وحدبٌ في وسطه. الفطس، تطامن قصبته مع ضخم الأرنبة. الخنس، تأخر الأنف عن الوجه. الدَّلف، شُخوص طرفه مع صغر أرنبته. الخشم، فقدان حاسَّة الشمّ. الخرم، شقٌّ في المنخرين. الخثم، عرض الأنف. يقال ثور أخثم. القعم، اعوجاج في الأنف. قال الشاعر:

ليِّن المنخرين معتدل الما رن لا سائل ولا جعدُ.

الشفاه والفم، الشَّدق..، سعة الشِّدقين.

الصَّجم، ميل في الفم وفيما يليه. الضَّزز، لصوق الحنك الأعلى بالأسفل. الهدل، استرخاء الشفتين وغلظهما. اللَّطع، بياضٌ يعتريهما. القلب، انقلابهما. الجلع، قصرهما عن الانضمام. تقسيم ماء الفم ما دام فيه، فهو ريق، ورضاب. فإذا علك، فهو عصيب. فإذا سال، فهو لُعاب. فإذا رمى به، فهو بزاق، وبصاق.

ترتيب الضحك

التبسُّم أوّل مراتبه، ثم الإهلاس وهو إخفاؤه، ثم الافترار، ثم الانكلال وهما الضحك الحسن، ثم الكتكتة أشدّ منهما، ثم القهقهة والقرقرة والكركرة، ثم الاستغراب، ثم الطَّخْطخة، ثم الإهْزاق والرَّهْزقة، وهو أن يذهب الضحك به كلَّ مذهب. قال كُشاجم:

عذُبتْ في الرَّشْف منه شفةٌ مصُّها أطيب من نيل الأملْ!
وعليها حُمرةٌ في لعسٍ تستعير اللون من صبغ الخجلْ!
هي فيما خلْتُ آثار دمٍ من فؤادي، علّ فيه ونهلْ!

وقال ابن سُكَّرة الهاشميّ:

يا ضاحكاً، يستهلُّ مضْحكه عن برد واضح وعن شنبِ!

أعطيتني قُبلة رشفتُ بها الشَّ هد مشوباً بعبرة العنبِ.
كأنَّني إذ لثمت فاك بها لثمت تُفاحةً من الذهب.

وقال كشاجم:

كأن الشفاه اللعس منها خواتمُ من التِّبرْ مختومُ بهنَّ على دُرّ.

وقال سيف الدّولة بن حمدان، في صباه:

أقبِّلُه على عجلٍ كشُرب الطائر الفزعِ.
رأى ماءً فأطمعه فخاف عواقب الطَّمعِ.
فصادف فُرصة فدنا ولم يلْتد بالجرعِ.

طيب الريق والنَّكْهة

طيب الريق على لفظ التذكير

فمن ذلك قول ابن الروميّ:

أهيف الغُصْن، أهيل الدِّعْصِ لما يقْتسم قدَّه وشاحٌ ومرطُ.
طيِّب طعمه إذا ذُقت فاه، والثُّريَّا في جانب الغرب قُرطُ.

وقال آخر:

يا مانعي طيب المنام، ومانحي ثوب السِّقام، وتاركي كالآل!
عمن أخذت جواز منعي ريقك ال معسول، يا ذا المعْطف العسَّال؟
عن ثغرك النظَّام، أم عن شعرك ال فحام، أم عن طرفك الغزَّال؟

وقال آخر:

أتدرون شمعتنا لم هوتْ؟ لتقبيل ذا الرَّشا الأكحل!
درتْ أن ريقته شُهدةٌ فحنَّتْ إلى إلفها الأوّل.

وقال بشار بن بردْ:

يا أطيب الناس ثغراً غير مختبر إلا شهادة أطراف المساويك!

وقال ابن وكيع البستيّ:

ريقٌ إذا ما ازددت من شُربه ريّاً، ثناني الرِّيُّ ظمآنا.
كالخمر أروى ما يكون الفتى من شُربها أعطش ما كانا.

وقال ابن الروميّ:

يا رُبَّ ريقٍ بات بدرُ الدّجى يمجُّه بين ثناياكا.
يُروي ولا ينهاك عن شربه والماء يُرويك وينهاكا.

وقال أبو الفتح كشاجم:

بلغته الكأسُ فارتعدت طرباً منها إلى فمه.
منعته أن يؤخِّرها في يديه من تحشُّمه.
فحساها ثم أعقبها أرجاً من طيب مبسمه.

وقال آخر:

بقدر الصَّبابة عند المغيبِ، تكون المسرّةُ عند الحضورِ.
وأطيب ما كان بردُ الثغورِ إذا هو صادف حرّ الصُّدور.

طيب الريق على لفظ التأنيث

فمن ذلك قول ابن ميّادة:

كأنَّ على أنيابها المِسْك شابهُ بعيد الكرى من آخر الليل عابقُ.
وما ذُقْته إلا بعيني تفرّساً كما شيم في أعلى السحابة بارقُ.
يضم إليّ الليلُ أذيال حُبِّها كما ضمَّ أردان القميص البنائقُ.

وقال البحتريّ:

كأنَّ على أنيابها بعد هجْعةٍ، إذا ما نُجومُ الليل حان انحدارها،
مُجاجة مسك صُفِّقت بمدامةٍ معتَّقة صهباء، حان اعتصارها.

وقال ذو الرمة:

أسيلةُ مجرى الدّمع هيفاءُ طفلة عروبٌ،كإيماض الغمام ابتسامُها.
كأنّ على فيها، وما ذُقت طعمه، زُجاجة خمر طاب فيها مُدامُها

وقال كشاجم:

البدر لا يُغنيك عنها إذا غابت وتُغنيك عن البدر.
في فمها مسك ومشمولةٌ صرفٌ ومنظومٌ من الدُّرّ.
فالمسك للنكهة، والخمر للرِّ يقة، واللُّؤلؤ للثَّغْر.

وقال الهذليّ:

وما صهباء صافيةٌ شمولٌ، كعين الدّيك مُنجابٌ قذاها،
تُشجُّ بماء ساريةٍ عريض على ظمأ به رصيف صفاها،
بأطيب نكهةً من طعم فيها إذا ما طار عن سنةٍ كراها.

وقال ابن الروميّ:

وما تعتريها آفةٌ بشريَّة من النَّوم إلا أنها تتخثَّرُ.
كذلك أنفاس الرِّياض بسحرةٍ تطيب وأنفاس الأنامِ تغيَّرُ.
وما ذُقته إلا بشمِّ ابتسامها وكم مُخْبرٍ يدنيه للعين منْظرُ.
وغير عجيبٍ طيب أنفاس روضة مُنورة باتت تُراح وتمطرُ.

وقال جميل:

وكأنَّ طارقها على علل الكرى، والنجمُ وهْناً قد دنا لتغوُّر،
يستافُ ريح مُدامةٍ معلولة بذكيِّ مسكٍ أو سحيق العنبر.

وقال الشريف الموسويّ، شاعر اليتيمة:

يا عذْبة الميسم! يُلِّي الجوى بنهلةٍ من ريقك البارد!
أرى غديراً سيِّحاً ماؤه، فهل لذاك الماء من وارد؟
من لي بذاك العسل الذائب ال جاري خلال البرد الجامد؟ طيب عرف النساء

قالوا: من أجود ما قيل في ذلك من قديم الشعر قول الأعشى:

ما روضةٌ من رياض الحزْن مُعشبةٌ خضراء جاد عليها مُسبلٌ هطلُ،
يُضاحك الشمس منها كوكبٌ شرقٌ مؤزِّرٌ بعميم النبت مكتهلُ،
يوماً بأطيب منها نشْر رائحةٍ ولا بأحسن منها إذ دنا الأُصُلُ.

وقول القطاميّ:

وما ريح قاعٍ ذي خُزامى وحولهُ شذا أرجٍ من طيِّب النَّبْت غاربِ،

بأطيب من ميٍّ إذا ما تقلَّبتْ من الليل وسنى جانباً بعد جانبِ.

أخذه ابن المعتز ببعض لفظه وزاد زيادة حسنة، فقال:

وما ريحُ قاعٍ مسَّت النَّدى وروضٍ من الرَّيحان سحَّت سحائبُه،
فجاء سُحيراً بين يومٍ وليلةٍ كما جرَّ من ذيل الغلالة ساحبُه،
بأطيب من أنياب سرَّة موهناً إذا الليل أدجى وارجحنَّت كتائبُه.
إذا رغبت عن جانبٍ من فراشها تضوّع مسكاً أين مالت جوانبُه.

وقال ابن الروميّ:

والعرفُ ندّ ذكيّ، وهي ذاكيةٌ إذا أساء جوار العطر أبدانُ.
نعيمُ كلِّ بهارٍ من مجامرها ويُشمس الليل منها فهو ضحْيانُ.
كأنها، وعُثانُ النَّدّ يشملها، شمسٌ عليها ضباباتٌ وأدجانُ.

وقال ابن الأحنف:

ذكرتك بالرِّيحان لمَّا شممتُه وبالراح لما قابلتْ أوجه الشَّرْبِ.
تذكَّرتُ بالريحان منك روائحاً وبالراح طعماً من مُقبَّلك العذْبِ.

ومن بليغ قول سحيم:

فما زال بُردى طيباً من ثيابها إلى الحول، حتَّى أنهج البُرْدُ باليا.

وأبلغ منه قول الأحنف:

وجد الناس ساطع المسك من دج لة قد أوسع المشارع طيبا.
فهم يُنكرون ذاك وما يد رون أن قد حللت منها قريبا.

وقال آخر:، وأحسن:

جاريةٌ أطيب من طيبها والطِّيب فيها المسكُ والعنْبرُ.
ووجهها أحسن من حليها والحلْيُ فيها الدّرّ والجوهر.

وقال امرؤ القيس:

ألم تر أني كُلَّما جئت طارقاً، وجدْتُ بها طيباً، وإن لم تطيَّب.

وقال آخر:

أتاها بعطر أهلها فتضاحكتْ وقالت: وهل يحتاج عطر إلى عطر؟

وقد بالغوا حتَّى وصفوا طيب المواضع التي وطئها المحبوبُ.

وأوّل من قال ذلك النميري الشاعر في زينب بنت يوسف أخت الحجاج فقال:

تضوّع مسكاً بطنُ نعمان أن مشتْ به زينبٌ في نسْوة خفراتِ.

وقال جميل:

ألا أيُّها الربعُ الذي غيَّر البلى! عفا وخلا، من بعدما كان لا يخلو.
تداءب ريح المسك فيه وإنما به المسكُ أن جرّتْ به ذيلها جُمْلُ.

وقول الآخر:

أرى كلَّ أرض دُست فيها، وإن مضت لها حججٌ، يزداد طيباً تُرابها!

الأسنان

من محاسنها

الشَّنب، وهو رقَّة الأسنان واستواؤها وحُسنها. الرَّتل، حسن تنضيدها واتساقها. التَّفْليج، تفرُّج ما بينها. الشَّتت، تفرّقها من غير تباعد بل في استواء وحسن. يقال: ثغر شتيت، إذا كان مُفلَّجاً حسناً أبيض. الأشرُ، تحزيز في أطراف الثنايا يدل على حداثة السن. الظَّلم، الماء الذي يجري على الأسنان من البريق لا من الرِّيق.

في مقابحها

الرَّوق، طولها. الكسسُ، صغرها. الثَّغلُ، تراكُبُها وزيادة سنٍّ فيها. الشَّغا، اختلاف منابتها. اللَّصصُ، شدّة تقاربها وانضمامها. الليل، إقبالها على باطن الفم. الدَّفق، انصبابها إلى قدّام. الفقمُ، تقدّم سُفْلاها على العليا. القلحُ، صُفرتها. الطَّرامة، خضْرتها. الحفر، ما يلزق بها. الدَّردُ، ذهابها. الهتمُ، انكساها. اللَّطط، سقوطها.

ترتيب الأسنان

وهي: أربع ثنايا، وأربع رباعيات، وأربع أنياب، وأربع ضواحك، وثنْتا عشرة رحاً، وأربعةُ نواجذ.

قال أبو الفتح كشاجم:

عرضْن! فعرَّضْن القلوب من الجوى لأسرع في كيِّ القلوب من الجمر!

كأن الشِّفاه اللُّعْس فيها خواتمٌ من المسك، مختومٌ بهنَّ على دُرِّ.

وقال أيضاً:

كالعُصْن في روضة تميسُ: تصبو إلى حسنها النُّفُوسُ.

ما شهدتْ والنِّساء عُرساً، فشكَّ في أنها عروسُ!

تبْسمُ عن باسم برودٍ تعبقُ من طيبه الكؤوسُ.

يجمع فيه لمجتنيه: مسكٌ، وورد، وخندريسُ.

وقال المتنبي:

ويبْسمن عن دُرٍّ تقلَّدْن مثله كأنَّ التَّراقي وُشِّحتْ بالمباسم.

وقال الصنوبريّ:

تلك الثَّنايا من عقْدها نُظمتْ، بل نُظم العقدُ من ثناياها.

وقال البحتريّ:

ويرْجعُ الليلُ مُبيضّاً إذا ضحكتْ عن أبيضٍ خصلِ السِّمْطيْنِ وضَّاحِ.

وقال ابن الروميّ:

كأنِّي لم أبتْ أسْقى رُضاباً: يموت به ويحيا المُستهامُ!

تُعلِّلُنيه واضحة الثَّنايا، كأنّ لقاءها حولاً لمامُ.

تنفَّسُ كالشَّمول ضُحىً شمالٌ إذا ما فُضَّ عن فمها الختامُ.

وقال النابغة:

تحلو بقادمتي حمامةِ أيكةٍ برداً، أسفَّ لثاته بالإثْمدِ.
كالأُقْحوان غداة غبِّ سمائه جفَّتْ أعاليه، وأسفله ندى.

وقال شقيق بن سليل:

وتبسم عن ألمى اللِّثاتِ، مفلَّج: خليق الثَّنايا بالعذوبة والبردِ.

وقال جميل:

بذي أشرٍ كالأقحوان يرينه ندى الطَّلِّ، إلا أنه هو أملحُ.

وقال السمهريّ:

كأنَّ وميض البرق بيني وبينها، إذا حان من بعض البيوت، ابتسامُها.

وقال آخر:

أحاذرُ في الظلماء أن تستشِفَّني عيون العبارى في وميض المضاحك!

في السِّواك

قول بعض الشعراء:

أقولُ لمسواك الحبيب: لك الهنا، بلثم فمٍ ما ناله ثغرُ عاشقِ!
فقال، وفي أحشائه حُرق الجوى مقالة صبٍّ للديار مُفارقِ:
تذكَّرتُ أوطاني فقلبي كما ترى، أُعلِّلهُ بين العُذيب وبارقِ!

وقال آخر:

نقل الأراك بأن ريقة ثغره من قهوةٍ، مُزجت بماء الكوثر.
قد صحَّ ما نقل الأراكُ لأنه قد جاء يروي عن "صحاح الجوهري".

وقال آخر:

بالله، إن جُزت بوادي الأراكْ وقبلتْ أغصانه اللُّدْنُ فاكْ،
فانبعث إلى المملوك من بعضها فإنَّني والله مالي سواك!

مما قيل في اللسان

من محاسنه

إذا كان الرجل حادّ اللسان قادراً على الكلام، فهو ذرب اللسان، وفتيق اللسان.
فإذا كان جيِّده، فهو لسن. فإذا كان يضعه حيث أراد، فهو ذليق.
فإذا كان فصيحاً بيِّن اللَّهجة، فهو حُذاقيّ.
فإذا كان مع حدّة اللسان بليغاً، فهو مسلاق. فإذا كان لا يعترض لسانه عُقدة، ولا يتحيَّفُ بيانه عُجمة، فهو مصقع. فإذا كان المتكلم عن القوم، فهو مدْرهٌ.

فصل في عيوبه

الرُّتَّة، حُبْسةٌ في لسان الرجل، وعجلة في كلامه. اللُّكنة والحُكْلة، عقدة في اللسان وعُجْمة في البيان. الهتهتة بالتاء والثاء، حكاية التواء اللسان عند الكلام. التَّعتعة بالتاء والثاء، حكايةُ صوت الألكن والعيّ. اللَّثْغة، أن يصيِّر الراء لاماً من كلامه. الفأفأة، أن يتردّد في الفاء. التَّمتمة، أن يتردد في التاء. اللَّفف،

أن يكون في اللسان ثقل وانعقاد. اللَّيغ، أن لا يُبيِّن الكلام. اللَّجْلجة، أن يكون فيه عيّ وإدخال بعض كلامه في بعض. الخنْخنة، أن يتكلم من لدن أنفه. ويقال: هي أن لا يُبيِّن الرجل كلامه فيخنخن في خياشيمه. المقمقة، أن يتكلم من أقصى حلقه.

في ترتيب العيّ

يقال: رجل عِيِيٌّ، ثم حصر، ثم فهٌّ، ثم مفُحْم، ثم لجلاج، ثم أبْكم.

قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: المرء مخبوٌ تحت لسانه.

وقال شاعر:

وما المرء إلاَّ الأصغران: لسانه ومعقوله. والجسم خلقٌ مصوَّرُ.

وقال امرؤ القيس:

وذلك من نبأ جاءني، وخُبِّرته عن أبي الأسْودِ.

ولو عن نثا غيره جاءني، وجرح اللسان كجرح اليد.

النَّثا القبيح من الكلام.

وقال جرير:

لساني وسيفي: صارمان كلاهما! وللسيفُ أشوى وقعةً من لسانيا!

قوله أشوى إذا أخطأ المقتل.

وقال آخر:

وجرح السيف تداموله فيبرى، وجرح الدّهر ما جرح اللسانُ!

حسن الحديث والنغمة

فمن ذلك قول ذي الرمّة:

ولمَّا تلاقينا، جرت من عيوننا دموعٌ كففنا غربها بالأصابعِ.

ونلنا سُقاطا من حديثٍ كأنه جنى النحل ممزوجاً بماء الوقائعِ.

وقال أيضاً:

وإنا ليجري بيننا حين نلتقي حديثٌ له وشيٌ كوشي المطارفِ!

حديثٌ كوقع القطر في المحل يُشتفى به من جوىً في داخل القلب، لاطف.

وقال ابن الروميّ:

ولقد سئمتُ مآربي، فكأنَّ طيِّبها خبيثْ.

إلاَّ الحديث فإنَّهُ مثل اسمه أبداً حديثْ.

وقال بشَّار:

وكأنَّ رجْع حديثها قطع الرياض كُسين زهرا.

وكأنَّ تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا.

وتخالُ ما اشتملت علي ه ثيابها: ذهباً وعطرا.

وقال البحتريّ:

فلمَّا التقينا - والنَّقا موعدٌ لنا - تعجَّب رائي الدُّرّ حُسناً ولاقطه.

فمن لؤلؤٍ تجلوه عند ابتسامها، ومن لؤلؤ عند الحديث تُساقطه!

وقال آخر:

ظللنا نشاوي عند أمِّ محمدٍ بنومٍ، ولم نشرب شراباً ولا خمرا!

إذا صمتت عنَّا، صحونا بصمتها؛ وإن نطقت، هاجت لألبابنا سُكرا.

وقال ابن الروميّ عفا الله عنه:

وحديثُها السِّحر الحلال، لو أنَّه لم يجن قتل العاشق المتحرِّزِ.

إن طال لم يملل، وإن هي أوجزتْ ودَّ المحدِّثُ أنها لم تُوجزِ.

شركُ القلوب، وفتنةٌ ما مثلها للمطمئنِّ، وعقْلةُ المستوفزِ.

وقال القطاميّ:

فهنَّ ينْبذن من قولٍ يُصبن به مواقع الماء من ذي الغُلَّة الصادي.

وقال عليّ بن عطية البلنسيّ:

لَّمتني فخلْت دُرّاً نثيراً، وتأملت عقدها هل تناثر.

فازدهاها جمالها، فأرتني عقد دُرٍّ من التبسُّم آخر!

وقال الوأواء الدّمشقيّ:

وحديثٍ كأنَّه أوبةٌ من مسافرِ.

كان أحلى من الرُّقا د لدي طرف ساهرِ.

بتُّ ألهو بطيبه في رياضٍ زواهرِ:

بين ساقٍ وسامر ومُغنٍّ وزامرِ.

وقال الطائيّ:

مدَّتْ إليك بنانةً أُسروعاً، تشكو الفراق، ومُقلةً ينبوعا.

كادت لعرفان النَّوى ألفاظها من رقَّة الشَّكوى تكون دموعا.

وقال ابن المعتزّ:

وسر أحاديثٍ عذابٍ لو أنَّها جني النحل، لم تمْجُج حلاوتها النحلُ.

ومما قيل في الأذن، الصَّمع، صغرها.

السَّكك، كونها في نهاية الصِّغر. القنف، استرخاؤهما وإقبالهما إلى الوجه. الخطل، غلظهما. في ترتيب الصَّمم

يقال: بأذنه وقرٌ.

فإذا زاد، فهو صممٌ. فإذا زاد، فهو طرشٌ. فإذا زاد حتَّى لا يسمع الرعد، فهو صلخٌ. مما وصف به الصُّدغ،

فمن ذلك قول عبد الله بن المعتزّ:

ريمٌ! يتيه بُحسن صورته، عبث الفتور بلحظ مُقلتهِ.

فكأن عقرب صُدغه وقفتْ، لما دنتْ من نار وجنتهِ.

وقال ابن الروميّ:

أبداً نحن في خلاف: فمنِّي فرط حُبٍّ ومنك لي فرط بُغض.

فبصدْغيْك فوق خطِّ عذارٍ ظلماتٌ، وبعضها فوق بعض.

وقال الصاحب بن عبّاد:

وعهدي بالعقارب حين تشتو تُخفِّف لدغها وتقلُّ ضُرّا.

فما بالُ الشتاء أتى، وهذا عقارب صُدغِه يزددْنَ شرّاً؟

وقال ابن المعتزّ:

أمن سبجٍ في عارضيه صوالجُ مُعطَّفةٌ تُفَّاح خدّيه تضربُ؟
وما ضرَّه نارُ بخدَّيه الهُبت؛ ولكن بها قلب المُحبِّ يُعذَّبُ؟
عناقيدُ صُدغيه بخدَّيه تلتوي وأمواجُ ردفيه بخصريه تقلبُ.
شربت الهوى صرفاً زُلالاً، وإنما لواحظُه تسْقي وقلبي يشْربُ.

وقال الثعالبيّ:

صولجانٍ في يديْ شادنٍ لا يسمعُ العاشقُ أن يذْكُرهْ.
وصولجان المسك في خدِّه متَّخذٌ حبَّة قلبي كُرهْ.

وقال الناشئ الأصغر:

لك صُدْغٌ كأنما نونه ونون كاتبْ.
يلدغُ الناس إذ تعقْ رب لدغ العقاربْ.

وقال الصاحب بن عبّاد:

يا شادناً في وجهه عقْربٌ ما يستجيبُ الدّهر للراقي.
يسلمُ خدَّاه على لدغها، ولدْغها في كبدي باقي!

وقال عمر المطوعيّ:

بنفسي من تمَّتْ محاسنُ وجهه! فما هو إلا البدرُ عند تمامِ.
وأرسل صُدغاً فوق خدٍّ كأنه جناحُ غرابٍ فوق طوق حمامِ.

وقال آخر:

حلَّتْ عقارب صُدغِه في خدِّه قمراً، فجلَّ بها عن التشبيهِ!
ولقد عهدناه يحلُّ ببرْجها فمن العجائب كيف جلَّتْ فيه؟

وقال العماد الأصبهانيّ:

وإذا بدا لك صُدغه في وجهه، أبصرته قمراً بدا في العقرب!

وقال أبو الفتح كُشاجم:

ومنعْن وردَ خدودهنَّ فلم نُطِقْ قطفاً لها لعقارب الأصْداغِ!

وصف الخدود والوجنات
فمن ذلك ما ورد على لفظ التذكير.

قال أبو الفتح كُشاجم:

غداً، وغداً توزُّدُ وجنتيْه لعين محبه يصف الرِّياضا.
على خدّيْهِ ماءٌ عسجديٌّ؛ فلو نظر الرقيب إليه، غاضا.

وقال آخر:

دعوتُ بماء في زُجاج، فجاءني حبيبي به خمراً نظرت له شزرا.
فقال: هو الماء القراح وإنما تجلَّى له خدّي فأوهمك الخمرا!

وقال أبو القاسم عبد الغفار المصريّ، شاعر اليتيمة:

وردُ الخدودِ أرقُّ من ورد الرِّياضِ وأنعمُ.
هذا تنشَّقُهُ الأنُو فُ، وذا يقبِّلُهُ الفمُ.
فإذا عدلت، فأفضلُ ال وردين وردٌ يُلثمُ.

وقال أيضاً ويروى للوأواء الدمشقيّ:

لا تظلموا الناس ولا تطلبوا بثارى اليوم أذى مُسلمِ!

ويا لقومي دونكم شادناً معتدل القامة والمبسمِ!
فإن أبى إلا جحود الهوى واكتتم الأمر ولم يُعلمِ،
قولوا له يكشف عن خدِّه؛ فإن فيه نُقطاً من دمي.

وقال ابن الروميّ:

وغزالٍ ترى على وجنتيه قطر سهميه من دماء القلوبِ.
لهف نفسي لتلك من وجناتٍ وردها ورد شارقٍ مهضوبِ!
أنْهلت صبغ نفسها ثم عُلَّتْ من دماء القتلى بغير ذُنوبِ.
جرحته العيون فاقتصَّ منها بجوىً في القلوب دامي النَّدوبِ.

وقال أيضاً:

يا وجنتيْه اللتين من بهج في صُدغيه اللذين من دعجِ!
ما حمرةٌ فيكما: أمن خجلٍ، أم صبغة الله، أم دمُ المُهجِ؟

وقال أبو الفتح البستيّ:

ومُهفهفٍ غنجِ الشمائل أزْعجتْ قلبي محاسن وجهه إزعاجا.
درت الطبيعة أن فاحم شعره ليلٌ فأذكت وجنتيه سراجا.

وقال عبد الله بن المعتزّ:

يا من يجودُ بموعدٍ من لحظه ويصُدّ حين أقول: أين الموعدُ؟
ويظلُّ صبَّاغُ الحياء بخدِّه تعباً: يصفر تارة ويُورِّدُ.

وقال الراضي بالله:

يصفرُّ وجهي إذا تأمَّلني خوفاً، ويحمرُّ خدُّه خجلا.
حتَّى كأنَّ الذي بوجنته من ماء وجهي إليه قد نُقلا.

وقال الخُبْزأرزّي:

صلْ بخدِّي خدَّيك، تلق عجيباً من معانٍ يجارُ فيها الضميرُ.
فبخدَّيْك للرَّبيع رياضٌ، وبخدِّي للدَّموع غديرُ.

وقال أيضاً:

أظهر الكبرياء من فرط زهوٍ، فتلقَّيتُهُ بذُلِّ الخضوعِ.
وحباني ربيع خدّيه بالور دِ فأمطرْته سحاب الدُّموعِ.

وقال الصنوبريّ:

رقَّ، فلو كُلِّفته أعيُنُنا أن يرشح الخمر خدُّهُ، رشحا.

وقال المفجّع:

ظبْيٌ إذا عقرب أصداغه، رأيت ما لا يُحسن العقربُ.
تُفاح خدّيْهِ له نضْرةٌ كأنَّه من دمعتي يشربُ.

وقال آخر:

ومُبيحُ أسرار القُلو ب بوجنتيه وحاجبيهِ.
جمع الإله له المحا سن ثم أفرغها عليهِ.
وكأنَّ مرآتين عُلِّ قتا بصفْحة عارضيهِ.
وكأنَّ ورد الجُلَّن ار مضعَّف في وجنتيهِ.

وقال عليّ بن عطيّة البلنسيّ في غلام جُرح خدّه:

وأحوى رمى عن قسيّ الحوْ سهاماً يفوِّقُهنّ النظرْ.
يقولون: وجنته قُسِّمت ورسم محاسنه قد دثرْ.
وما شقَّ وجنته عابثاً ولكنَّها آيةٌ للبشرْ.
جلاها لنا الله كيما نرى بها كيف كان انشقاق القمرْ.

وصفها على لفظ التأنيث
فمن ذلك قول عبد الله بن المعتزّ:
نُجْلُ العيون، سواحر اللحظاتِ هيَّجْن منك سواكن الحركاتِ.
أقبلْن يرمين الجمار تنسُّكاً، فجعلن قلبكَ موضع الجمراتِ.
فكأنهنّ غصون بانٍ ناعمٍ يحملْن تُفاحاً على الوجناتِ.
وقال ابن الروميّ:
تشرع الألحاظ في وجنتها فتلاقيّ الرِّيّ من مشربِها.
فهي حسب العين من نزهتها، وهي حسب الأذن من مطربِها.
وقال ديك الجنّ:
بأبي الثلاثُ الآنسا تُ الرائقاتُ الغانياتْ!
أقبلْن، والأصداغ في وجناتهنَّ معقرباتْ!
ألفاظُهنَّ مؤنَّثا تٌ والجفون مُذكَّراتْ!
حتَّى إذا عاينته نّ وللأمور مسبِّباتْ،
جمَّشتهنَّ، وقلت: طي ب عناقكُنَّ هو الحياةْ!
فخجلن حتَّى خلتُ أ نّ خدودهنَّ معصفراتْ.
مما وصفت به الخيلان
فمن ذلك ما ورد على لفظ التذكير.
قال بعض الشعراء:
في الساعد الأيمن خالٌ له مثل السُّويداء على القلبِ.
كأنه من سبجٍ فاحمٍ مركَّب من لؤلؤ رطبِ.
وقال ابن منير الطرابلسي:
لاح لنا عاطلاً، فصيغ له مناطقٌ من مراشق المُقلِ.
حياة روحي وفي لواحظهِ حتفي بين النَّشاطِ والكسلِ.
ما خاله من فتيت عنبر صُد غيه ولا قطر صبغة الكحلِ.
لكن سويداء قلب عاشقهِ طفت على نار وردة الخجلِ.
وقال أيضاً:
أنكرت مُقلته سفك دمي، وعلى وجنته فاعترفتْ.
لا تخالوا خاله في خدِّه قطرةً من صبغ جفنٍ نطفتْ.
تلك من نار فؤادي جذوةٌ فيه ساخت وانطفتْ ثم طفتْ!
وقال آخر:
لا تخال الخال يعلو خدَّهُ نقط مسك ذاب من طرَّتهِ.
ذاك قلبي سُلبتْ حبَّتُهُ فاستوت خالاً على وجنتهِ.
وقال ابن منير:
كأنَّ خدّيه ديناران قد وزنا وحرّر الصَّيْرفيُّ الوزن واحتاطا.
فخفَّ إحداهما عن وزن صاحبهِ، فحطَّ فوق الذي قد خفَّ قيراطا.
وقال آخر:
أضحى ليوسف في الجمال خليفةً، يخشاه كلُّ العالمين إذا بدا.
عرِّجْ معي وانظر إليه لكيْ ترى في خدّه علم الخلافة أسودا.
وقال آخر:

كم قلت للنفس: اذهبي، فحبُّه المشهور من مذهبي!
مُهفهف القدِّ له شامةٌ من عنبرٍ في خدّه المُذْهبِ.
آيسني التوبة من حبِّه طلوعه شمساً من المغربِ!

وقال آخر:

ومهفهفٍ من شعره وجبينهِ يغدو الورى في ظلمةٍ وضياءِ.
لا تنكروا الخال الذي في خدِّه كلُّ الشقيق بنقطةٍ سوداءِ.

وقال آخر:

لهيب الخدّ حين رأته عيني هوى قلبي عليه كالفراشِ.
فأحرقه فصار عليه خالاً؛ وها أثر الدُّخان على الحواشي!

وقال آخر:

بدا على خدّه خالٌ يزيِّنه، فزادني شغفاً منه إلى شغفي،
كأنَّ حبَّة قلبي عند رُؤيته طارت فقلت لها: في الخدِّ منه قفي!

وقال آخر:

خيلانُ خدِّك ردّت صحيح قلبي مريضا.
في العين سودٌ، ولكن ما زلن في القلب بيضا.

وقال آخر:

خدُّك مرآة كلِّ حُسنٍ يحسن من حسنها الصِّفاتُ.
مالي أرى فوقه نُجوماً قد كُسفتْ وهي نيِّراتُ؟

وقال آخر:

حجَّتْ إلى وجهك أبصارنا طائفةً، يا كعبة الحسن!
تمسح خالاً منك في وجنةٍ كالحجر الأسود في الركْن.

وقال الأسعد بن بليطة:

سكران لا أدري - وقد وافى بنا - أمن الملاحة أم من الجريالِ.
تتنفَّسُ الصَّهباء في لهواته كتنفُّس الرِّيْحان في الآصالِ.
وكأنما الخيلان في وجناتِه ساعات هجر في ليال وصالِ.

وصفه على لفظ التأنيث

فمن ذلك قول أبي الفتح كُشاجم:

فديتُ زائرةً في العيد واصلةً لمستهامٍ بها للوصل منتظر.
فلم يزلْ خدُّها رُكْنا أُلُوذُ به، والخال في صحْنه يُغني عن الحجرِ.

وقال العباس بن الأحنف:

محجوبةٍ في الخدر عن كلِّ ناظر، ولو برزتْ، ما ضلَّ بالليل من يسري.
بخالٍ بذاك الخدّ أحسن منظراً من النُّقطة السَّوداء في وضح البدرِ.

مما قيل في العذار

فمن ذلك ما ورد فيه على سبيل المدح

قال ماني الموسوس عفا الله عنه ورحمه:

وما غاضتْ محاسنه؛ ولكنْ بماء الحُسن أورق عارضاهُ.
سمعت به فهمت إليه شوقاً! فكيف لك التصبُّرُ، لو تراه؟

وقال أبو فراس:

من أين للرشاء الغرير الأحور في الخدّ مثل عذاره المنحدِّرِ؟
يا من يلوم على هواه سفاهةً! أنظر إلى تلك السوالف، تَعْذُرِ.
قمرٌ كأنَّ بعارضيه كليهما مسكٌ تساقط فوق وردٍ أحمرِ.
وقال ابن المعدّل:
سالت مسايل عارضي ه بنفسجاً في وردِهْ.
فكأنَّهُ من حُسنه عبث الربيع بخدِّه.
وقال الخباز البلدي:
وعارضٍ مثل دارة البدرِ دار بوجهٍ كليلة القدرِ.
فلو تراه وحسن منظره، شهدت أنَّ الجمال للشَّعْرِ.
وقال ابن المعتزّ:
وتكاد الشمس تُشْبهُهُ ويكاد البدر يحكيه.
كيف لا يخضرُّ عارضه، ومياه الحُسن تسقيه؟
وقال محمد بن وهب:
صدُودُك في الورى هتك استتاري، وساعده البكاء على إشتهاري.
ولم أخلع عذاري فيك إلاَّ لما عانيت من حُسن العذارِ.
وكم أبصرت من حُسنٍ، ولكن عليك من الورى وقع اختياري.
وقال أبو الفرج الوأواء:
وشمسٌ بأعلاه ولبلان أُسْبلا بخدّيْه، إلا أنَّها ليس تغْرُبُ.
ولمَّا حوى نصف الدّجى نصف خدّه تحيرَّ حتّى ما درى أين يذهبُ.
وقال الخبزأرُزّي:
انظر إلى الغُنْج يجري في لواحظه، وانظر إلى دعج في طرفه الساجي!
وانظر إلى شعراتٍ فوق عارضه كأنهنَّ نمالٌ سرن في العاجِ!
وقال أيضاً:
وجهٌ تكامل حُسنه لما تطرَّفه عذارهْ.
والسيفُ أحسنُ ما ترى ما كان مُخْضراً غرارُهْ.
وقال الأمير سيف الدّين المشدّ:
ولائمٍ في عذار بدرٍ لم أستطع عن هواه ميلا.
فقلت، والدّمع في جفوني لفرط وجدي تسيل سيلا:
ضللتُ في خدِّه نهارا! كيف رشادي، وصار ليلا؟
وقال أيضاً:
ولمَّا أن بدا في الخدّ شعْرٌ توقَّف عند منتصف العذارِ.
فقلت للائمي فيه: تعجَّبْ لنصف الليل في نصف النهارِ!
وقال أيضاً:
ومهفهفٍ يحمي ورود رضابِه بصوارمٍ سُلَّتْ من الأجفانِ.
كتب العِذارُ بليقةٍ مسْكيَّةٍ في خدّه سطراً من الرَّيحانِ.
وقال أيضاً:
يقول العواذلُ لمَّا بدا على خدِّه شعرٌ زائرُ:

ذوي وردُ خدّيه، قلت: اقصروا فنرجس ألحاظه وافرُ!

وقال آخر:

وقالوا: تسلَّى فقد شانه عذارُ أراحك من صدِّه.
فقلت: وهمتم، ولكنَّني خلعْتُ العذار على خدّه.

وقال آخر:

بروحي وقلبي ذلك العارض الذي غدا مسكه فوق السَّوالف سائلا.
درى خدُّه أنِّي أُجنُّ من الهوى، فأظهر لي الجنون سلاسلا!

وقال آخر:

أصبحت مأسوراً بغنج لحاظه ومقيّداً من صُدغه بسلاسلِ.
حتَّى بدا سيفُ العذار مجرّداً فخشيت منه، فقلت هذا قاتلي!

وقال آخر:

قالت: اسودَّ عارضاك بشعرٍ، وبه تقْبُح الوجوه الحسانُ!
قلت: أشعلت في فؤادي ناراً، فعلى عارضيَّ منه دُخانُ!

وقال آخر:

قلت، وقد أبصرته مُقبلاً وقد بدا الشَّعر على الخدِّ:
صُعود ذا النمل على خدّه يشهد أن الزِّيق من شهدِ.

ومثله قول الآخر:

قالوا: التحى، فاصبُ إلى غيره! قلت لهم: لست إذاً أسْلو!
لو لم يكنْ من عسلٍ ريقُه، ما دبَّ في عارضه النمّلُ.

وقال آخر:

عذارُه أحسسُ ما فيه، تيهُهُ من أحسن التَّيهِ.
في فمه الشَّهْد، فلا تعجبوا إن دبَّ نملُ بعذاريهِ.

وقال آخر:

أصلى بنار الخدِّ عنبر خاله فغدا العذارُ دخانّ ذاك العنبرِ.

وقال آخر وقد تقدّم إيراده في صفاء الخدّ:

أعدْ نظراً، فما في الخدّ نبْتٌ حماه الله من ريب المنونِ!
ولكن رقَّ ماء الوجه حتَّى أراك مثال أهداب الجفونِ.

ومثله قول الآخر وقد تقدّم إيراده:

ولمَّا استدارتْ أعين الناس حولهُ تُلاحظه كيف استقلَّ وسارا،
تمثَّلت الأهداب في ماء وجهه فظنُّوا خيال الشَّعْر فيه عذارا.

وقال الحاجريّ:

وما اخضرَّ ذاك الخدُّ نبْتاً، وإنما لكثرة ما شُقَّت عليه المرائِرُ.

وقال آخر:

يا لائمي في حُبِّ ذي عارضٍ، ما البلدُ المُخْصبُ كالماحلِ!
يموجُ ماء الحسنِ في وجههِ فيقْذفُ العنْبر في الساحلِ.

وقال آخر:

ولمَّا بدا خطُّ العذار بوجهه كظُلمة ليل في ضياء نهار،
تغلغل في قلبي هواه فلم أزلْ خليع عذار في جديدِ عذار.

وقال آخر:

قالوا: التحى، فامتحتْ بالشَّعر بهجتُه! فقلت: لولا الدُّجى لم يحسن القمرُ.
من كان منتظراً للصبر عنه به، فإنَّني لغرامي كنت أنتظرُ.
خطَّتْ يدُ الحسن منه فوق وجنته: هذي محاسنُ، يا أهل الهوى، أُخرُ!

وقال آخر:

وقلت: الشَّعر يُسليني هواه! ولم أعلم بأنَّ الشَّعْر حيني.
فظلت لشقوتي أفدي وأحمي سواد عذاره بسواد عيني.

وقال محمد بن عبد الله السلامي، شاعر اليتيمة:

عذارك جادتْ عليه الرِّيا ضُ بأجْفانها وبآماقها.
وطال غرام الغواني به فقد طرّزتْه بأحداقها.

وقال ابن سُكَّرة الهاشميّ:

وغزالٍ لولا نميمةُ شعر ذكَّرتْه، لقلت: إحدى الجواري.
شاربٌ أشرب الصَّبابة قلبي، وعذارٌ خلعْتُ فيه عذاري.

وقال آخر:

قالوا: التحى وستسلو عنه، قلت لهم: هل يحسن الروض ما لم يطلُع الزَّهرُ؟
هل التحى طرفه الساجي، فأَهْجرهَ؟ وهل تزحزح عن ألحاظه الحور؟

وقال أبو الفتح كشاجم:

من عذيري من عذارى قمرٍ، عرّض القلب لأسباب التلفْ؟
زيد حُسناً وضياءً بهما، فهو الآن كبدرٍ في سدفْ.
خمَّشا خدّيه ثم انعطفا، آه ما أحسن ذاك المنعطفْ!
علم الشَّعر الذي عاجله أنه جار عليه، فوقفْ.
فهو في وقفته معترفٌ بالتناهي في التعدِّي والسَّرفْ.

وقال آخر:

لا تعتقدوا ما لاح في وجنتهِ شعراً، غلطاً! ما ذاك من شيمتهِ!
بل ساكن ماء الحسن قد حرَّكه موجٌ قذف العنبر في حافتهِ.

وقال عبد الله بن سارة الإشبيليّ:

ومُعذِّرٍ رقَّت حواشي حُسنهِ، فقلوبنا حذراً عليه رقاقُ.
لم يُكس عارضه السواد، وإنما نفضتْ عليه صباغها الأحداقُ.

وقال أبو بكر الدانيّ، شاعر الذخيرة:

بدا على خدِّه عذارٌ في مثله يُعذر الكئيبُ.
وليس ذاك العذارُ شَعْراً، لكنَّما سرُّه غريبُ.
لمَّا أراق الدّماء ظلماً، بدت على خدّه الذّنوبُ.

وقال عبد الجليل الأندلسيّ:

ومُعذِّرين كأنما بخدودهم طرُقُ العيون ومنهجُ الأوداجِ.
وكأنما صقلوا الجمال فأظهروا مشى النِّمال على مُتُون العاجِ.

ومما وصف به العذار

على طريق الذمّ، فمن ذلك ما قاله الوزير أبو المغيرة ابن حزم، عندما عُرضت عليه رسالة بديع الزمان في الغلام الذي خطب إليه وُدّه بعد أن عذَّر، قال: "ورد كتابك ينشد ضالة ودِّنا، ويرقع خلق عهدنا؛ ويطلب ما أفاءته جريرتك إلينا، وذهبت به جنايتك علينا؛ أيام غصنك ناضر، وبدرك زاهر؛ لا نجد رسولاً إليك، غير لحظة تخْرِق حجاب الدّموع، أو زفرةٍ تُقيم مُنْآد الضُّلوع؛ فإن رُمْنا شكوى ينفُث بها مصْدورنا، ويستريح إليها مهجورنا؛ لقينا دونها أمنع سدّ، وأقبح كفٍّ وصدّ، وأقدح ردّ."
وفي فصل منها: "حتَّى إذا طفئتْ تلك النِّيران، وانتصف لنا منك الزمان؛ بشعراتٍ أغشت هلالك كسوفاً، وقلبت ديباجك صوفاً؛ وأعادت نهارك ليلاً، وناحت عليك تلهُّفاً وويلاً؛ وأطار حمامك غرابك، وحجب ضياءك ضبابك؛ فصار عُرسك مأتماً، وعاد وصلك محرّماً، قال القائل:

وبتَّ مُداماً تُسرُّ النزيف فأصبحت تُجرع خلاً ثقيفا.
وصرت حجازاً جديب المحلِّ، وقد كنت للطالب الخصب ريفا.

أقبلت تتسلَّل إلينا لواذاً، وتطلب منا عياذاً؛ قد أنساك ذُلَّ العزل عزَّ الولاية، وأولاك طمعاً نسياننا تلك الجناية؛ أيام ترشقنا سهام ألحاظك رشقا، وتقتلنا سيوف ألفاظك عشقاً؛ وتميس غصناً، فتثير حزناً؛ وتطلع شمسنا، فتفتِّت نفساً.
فالآن نلقاك بدمع قد جفّ، ووجد قد كفّ؛ وعزاء قد أبَّد، وصبر قد أغار وأنْجد؛ وننظر منك إلى روض قد صوّح، وسارٍ قد أصبح؛ وأعجم قد أفصح، ومُبهمٍ قد صرّح. فلا شكَّ قد رُفع الغطاء، ولا إفك قد برح الخفاء، ولا لَوم قد وقع الجزاء. وهلاَّ ذكرت المثل الممتهن "الصيف ضيَّعت اللبن!" ونسيت من أحرقت قلبه صدّا، وأقلقت جنبه ردّا؛ وملأت جوانحه ناراً، وتركت نومه غراراً؛ أن يوفيك قرضاً، ويجازيك حتَّى ترضى؛ حين نُكِّس علمك، وعثرت قدمك؛ وضاقت طُرقك، وأظلم أفقك؛ وهوى نجمك، وخاب قدحك؛ وفُلَّ سيفك، وحُطَّ رُمحك؛ فاطو ثوب وصلك فلا حاجة لنا إلى لباسه، وازو طارق شخصك فلا رغبة لنا في إيناسه؛ فما يشتهي اليوم زيارة رمس، من زهد فيه أمس.
قال:

حانت منيتُه فاسودَّ عارضُهُ، كما تُسوّد بعد الميِّتِ الدارُ.
يا من نعته إلى الإخوان لحيته، أدبرت، والناس إقبال وإدبارُ!
فيا لدهرٍ مضى ما كان أحسنهُ! إذ أنت ممتنعٌ والشَّرْطُ دينارُ.
أيام وجهك مصقولٌ عوارضه، وللرياض على خدّيك أنوارُ!

وقال عليّ بن نصر الكاتب تعزيةً لمن طلعت لحيته:
لكل حادثة يفجع بها الدهر - أحسن الله معونتك - حدّ من القلق والالتياع، ومبلغ من التحرّق والارتياع؛ تستوجب فنّاً من التعزية، وتستحق نصيباً من العظة والتسلية؛ والاختصار فيها لما قرب خطبه وشانه، والإكثار لما جلّ محلّه ومكانه. ومُصابُك هذا - أعانك الله - في بياض عارضك لما اسودّ، كمُصابك في سواده إذا

ابيضّ؛ والألم ببياض روضه جميماً، نظير الألم به يوم يعود هشيماً. فليس أحد يدفع عظيم النازل بك، ولا يستصغر جسيم الطارق لك؛ وإن كان ما يتعقبه من المشيب أقذى للعيون. التفتت عنك النواظر، وكانت ملتفتة إليك، ووقفت عنك الخواطر، وكانت موقوفة عليك؛ وصيَّرك قذى الأجفان وكنت جلاها، وجعلك كُرْبة النفوس وكنت هواها؛ وأبدلك من أنس التقبيل، وحشة التنقل؛ وعوّضك من رقة الترفرف، وكلفة التأفّف؛ فتبارك الله الذي صرف عنك الأبصار، ونقَّل فيك الأطوار! فعويلاً دائماً وبكاء! وعزاء عن الذكر الجميل عزاء! فلكل أجل كتاب، وعلى كل جائحة ثواب.

ولقد استوفيت أمد الصبا والصبابة، واستنبت الحسرة عليها والكآبة. فرزيَّتُك راسية والرزايا سوائر، ومصيبتك ثابتة والمصائب عوائر. "إنا لله وإنا إليه راجعون".

ثم لا حيلة، فإنها الأيام التي لا تثبت على حاله، ولا تعرف غير التنقل والاستحالة! فأجرك الله في وجه نضب ماؤه، وذهب رواؤه ومات حياؤه! وفي ضيعة استأجم برُّها، واستدغل نورها؛ وأسبع طريقها، واتسعت تنوفتُها! وفي جاه كان عامراً فخرب، ودخل كان وافراً فذهب، وتذكار كان واصلاً إلى القلوب فحُجب! فأصبحت مسبوق السكّيت، وظللت حياً وأنت الميت؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله من محنٍ دُفعت إليها، ولم تُعن بحال عليها.

وقد يشغل الإنسان عن نوائبه المشاركون فيها، ويسلّيه عنها المساهمون في معنى معانيها؛ وأنت من بين هذه المنزلة لا شريك لك، فإنهم يعتاضون عنها ولست بمعتاض، ويركضون للعيش ولست بركّاض. والدهر يطوي محاسنك طيَّ السجلِّ كتابه، وينشر مقابحك نشر اليماني أثوابه. ويملّ الطرف رؤيتك فلا يُفيق عليك جفناً، ويمجُّ السمع ذكرك فلا يجد عنده أذناً.

ومنها: وقد جعلت رُقعتي هذه جامعةً بين البكاء عليك والأنين، وناظمةً بين العزاء والتأبين. لها حلاوة النثر، وعليها طلاوة الشعر. نتجتْها قريحةٌ عليك، ونسجتها خواطر خاطرت إليك؛ تخفِّف غرامك والناس مشاغيل بتثقيله، وتكرم مكانك والإجماع واقع على تهوينه. فإن عرفت لي ذاك، وإلا عرفه الصِّندق؛ وإن شكرنه، وإلا شكره الحق. والسلام عليك من أسير لا يخلص بالفدية، وقتيل بسيف السِّبال واللحية."

وقال الصنوبريّ:

ما بدت شعرةٌ بخدِّك إلاَّ قلتُ في ناظريَّ أو في فؤادي.
أنت بدرٌ جنى الخسوفُ عليه ظلمةً، لا أرى لها من نفاذِ.
فاسوداد العذار بعد ابيضاضٍ كابيضاض العذار بعد اسوادِ.

وقال آخر:

أصبح نحساً - وكان سعداً - من كان مِوْلىً فصار عبدا.
بكى على حُسنه زماناً لما رأى الشَّعْر قد تبدّى.
لو نبت الشَّعْرُ في وصالهِ، لعاد ذاك الوصالُ صدّا!

وقال الخبزأرزي:

بدا الشَّعْرُ في وجهه، فانتقمْ لعاشقه منه لمَّا ظلمْ.
وما سلَّط الله نبْت اللِّحى على المُرْدِ إلاَّ زوال النِّعمْ.
توحَّشت العين في وجهه، وحق لها وحشةٌ في الظَّلمْ.
إذا اسودّ فاضلُ قرطاسه، فما ظنُّه بمجاري القلمْ؟
ولم يعْلُ في خدِّه كالدُّخا ن إلاَّ وأسفله كالحممْ.

وقال التَّنُوخيّ:

قلتُ لأصحابي، وقد مرّ بي مُنتقباً بعد الصِّبا بالظُّلمِ:
بالله، يا أهل ودادي! قفوا كي تُبصروا كيف زوال النِّعَمِ!

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسيّ في ملتحٍ:

ما للعذارِ، وكان وجهك قبلةً، قد خطَّ فيه من الدُّجى محرابا.
وإذا الشَّباب - وكان ليس بخاشع - قد خرّ فيه راكعاً، وأنابا.

وقال أيضاً:

وافى بأوّله صحيفة صفحةٍ جعل العذارُ بها يسيل مدادا.
متجهِّماً ثكل الشَّباب كأنما لبس العذار على الشَّباب حدادا.

وقال عمر المطوعيّ، من شعراء اليتيمة:

غدا - منذ التحى - ليلاً بهيماً، وكان كأنَّه القمر المنيرُ.
فقد كتب السَّواد بعارضيه لمن يقرا: "وجاءكمُ النَّذيرُ".

وقال عبد الجليل الأندلسيّ، من شعراء الذخيرة:

وأمرد يستهيم بكل وادٍ وينصب للحشا خدّاً صليبا.
دعوت دعاء مظلوم عليه، وكان الله مستمعاً مُجيبا.
فطوّقه الزمان بما جناه، وعلَّق من عذاريْه الذُّنوبا.

مما قيل في العُنُق

يقال:الجيد، طولها - التَّلع، إشرافها - الهنع، تطامنها - الغلب، غلظها - البتع، شدّتها – الصَّعر، ميلها - الوقص، قصرها - الخضع، خضوعها - الحدل، عوجها.

وقال دعبل:

أتاح لك الهوى بيض حانٌ سلبنك بالعيون وبالنُّحُورِ.
نظرْتَ إلى النحور فكدت تقضي فأولى لو نظرت إلى الخُصُورِ.

وقال قيس بن الخطيم:

وجيدٍ كجيد الرِّيم صافٍ يزينه توقُّدُ ياقوتٍ وفضْلُ زبرْجدِ.
كأنَّ الثريَّا فوق ثُغرة نحرها توقُّدُ في الظَّلماء أيَّ توقُّدِ.

مما قيل في اليد

إذا باشرت ما يعلق بها

يقال: من اللحم غمرة، ومن الشحم زهمة، ومن السمن نسمة، ومن الزُّبد وضرة، ومن الجُبن نشمة، ومن اللبن مذقة، ومن البيض زهكة، ومن المسك صمرة، ومن الزيت قنمة، ومن الخمر عتكة، ومن الخل خمطة، ومن العسل ونحوه لزجة، ومن الطيب عطرة، ومن الغالية عبقة، ومن الزعفران ردعة، ومن العنبر لطخة، ومن الخلوق ضمخة، ومن الحنَّاء قنئة، ومن الدّم ضرجة، ومن الماء بللة، ومن الطين لثقة وردغة، ومن البرد صردة، ومن التراب كئبة وغضرة، ومن القار حلكة، ومن الفحم حممة، ومن

المداد طرسة، ومن الحديد سهكة، ومن الفضة سبكة، ومن الذهب نضرة، ومن النار شعلة، ومن الرياحين فوحة، ومن البقل زهرة، ومن الفاكهة الرطبة لزقة، ومن البابسة فكهة، ومن العمل مجلة ونفطة، ومن الخشونة شثنة وثفنة، ومن الشوك مشطة وشظية، ومن الحطب حزمة، ومن الرمح كعبة، ومن الصولجان لعبة، ومن الجود سبطة، ومن العظية منحة، ومن البخل جعدة، ومن المنع لحزة، ومن العدم تربة، ومن الرزّ زنخة، ومن الصابون حفرة، ومن الفرصاد قانية، ومن الرجيع قثمة، ومن كل القاذورات قذرة، ومن الوسخ درنة.

مما مدحت به اليد

قال مؤيد الدّين الطُّغرائي:

ويدٍ تُمدُّ المال راحتها أبداً، ويغمر ظهرها القُبلُ.
إن ضنَّ غيثٌ أو خبا قمرُ فجبينه ويمينه البدلُ.

وقال عبد المؤمن بن هبة الله الأصبهانيّ:

قالوا: بدتْ عارضةٌ - لا بدتْ! - في كفِّ ذاك السيِّد الأوحدِ.
راحته راحة من يجتدي، وكفُّه كفُّ الذي يعتدي.
فلا أصابت يده آفةٌ! فكم يدٍ عندي لتلك اليدِ.

وقال ابن دريد:

يا من يقبِّلُ كفَّ مُمخرقٍ، هذا ابن يحيى ليس بالمخراقِ!
قبِّلْ أنامله، فلسْن أناملاً؛ لكنهنَّ مفاتح الأرزاقِ!

وقال ابراهيم بن العباس بن محمد:

لفضل بن سهلٍ يدٌ تقاصر عنها المثلْ.
فباطنُها للنَّدى، وظاهرها للقُبلْ.
وبسطتُها للغنى، وسطوتُها للأجلْ.

وقال ابن الروميّ:

فامدُدْ إليّ يداً تعوّد بطنها بذل النَّوالِ، وظهرها التقبيلا.

وقال أبو ناس:

يا قمراً، أبرزه مأتمٌ ينذُب شجواً بين أتراب!
يبكي فُيذْري الدُّرَّ من نرجس، ويلطم الورد بعنَّاب.

وقال الناشي:

منْ كفِّ جاريةٍ كأنَّ بنانها من فضَّةٍ قد طُرِّفت عُنَّابا.
وكأنّ يُمناها إذا نطقتْ بها تُلْقى على يدها الشِّمال حسابا.

وقال الراضي بالله:

قالوا: الرَّحيل! فأنْشبت أظفارها في خدِّها، وقد اعتلقن خضابا.
فاخضرَّ تحت بنانها فكأنَّها غرست بأرض بنفسجٍ عُنابا.

وقال ابن كيغلغ:

لمَّا اعتنقنا للوداع وأعربت عبراتنا عنَّا بدمع ناطقِ،
فرَّقْن بين معاجرٍ ومحاجرٍ، وجمعن بين بنفسج وشقائقِ.

وقال كشاجم:

فما أنْسها، لا أنسَ منها إشارةً بسبَّابة اليُمنى إلى خاتم الفمِ!

وأعلنت بالشكوى إليها فأومأت حذاراً من الواشين أن لا تكلّمِ.
فلم أرَ شكلاً واقعاً فوق شكله كعُنَّابةٍ تُومى بها فوق عنْدمِ.

مما قيل في النهود

يقال: ثُنْدُوة الرّجل، ثدي المرأة، خِلف الناقة، ضرع الشاة والبقرة، طُبْيُ الكلبة.

قال ابن الروميّ:

صدورٌ فوقهنَّ حقاق عاجٍ، وحلْيٌ زانه حُسن اتساقِ!
يقول الناظرون إذا رأوها: أهذا الحلْيُ من هذي الحقاقِ؟
وما تلك الحقاق سوى ثُديٍّ قدرن من الحقاق على وفاقِ.
نواهدُ لا يُعدُّ لهنَّ عيْبٌ سوى منع المُحبِّ من العناقِ.

وهو مأخوذ من قول بعض الأعراب:

أبت الرَّوادف والثُّديُّ لقُمْصها مسَّ البطون، وأن تمسَّ ظهورا.

وقال محمد بن مبادر:

ولها ثديان ما عدوا من حقاق العاج أن كعبا.
قسمت نصفين دعص نقاً وقضيباً لان، فاضطربا.

وقال عبد الله بن أبي السَّمط بن مروان:

كأنَّ الثَّديّ إذا ما بدت وزان العقود بهنَّ النُّحورا،
حقاقٌ من العاج مكنونةٌ يسعن من الدّرِّ شيئاً كثيرا.

وقال عليّ بن الجهم:

كنت مُشتاقاً وما يحجزني عنك إلا حاجزٌ يمنعني.
شاخصٌ في الصدر، غضبانٌ على قبب البطن وطيِّ العُكنْ.
يملأ الكفَّ ولا يفْضله، وإذا أثْنيته لا ينثني.

وقال ابن الروميّ:

مُلقماتٌ أطفالهْنَّ ثُديّاً ناهداتٍ كأحسن الرُّمانِ.
مُفعماتٌ كأنها حافلاتٌ وهي صفر من درّة الألبانِ.

وقال ابن المعتزّ:

قبيحٌ بمثلك أن تهجري، وأقبح من ذاك أن تُهجري.
أقاتلتي بفتور الجفون ورُمَّانتين على منبرِ،
كحقين من لُبِّ كافورةٍ برأسيهما نُقطتا عنبرِ!

مما قيل في البطن

يقال:

الدّحل، عظمه - الحبن، خروجه - الثَّجل، استرخاؤه - القمل، ضخمه - الصُّمُور، لطافته - العجر، البجر، شُخُوصه - التَّخرْخر، اضطرابه.

قال محمد بن مبادر:

والبطنُ ذو عُنكةٍ لطيفٌ صفْرٌ وشاحاه جائلانِ.
أشرف من فوقه عليه ثديان ميلان ناهدانِ.

مما قيل في الأرداف والخصور

فمن ذلك ما ورد على لفظ التذكير.

فمنه قول عبد الله بن طاهر:

صبٌّ كئيبٌ يشتكيك الهوى كما اشتكى خصرك من رِدفكا.
لسانه عن وصف أسقامهِ أكلُّ منه عن مدى وصفكا.

وقال ابن أبي البغل:

كأنَّه في اعتداله غُصُن وفي السَّراويل منه أمواجُ.
إذا مشى كالقضيب جاذبُه ردفٌ له كالكثيب رجاجُ.
ويعلم الله أنَّني رجُل إليه مذ قد كبرتُ محتاجُ.

وأنشد أبو بكر دُرَيْد عفا الله عنه ورحمه:

قد قلتُ لمَّا مرّ يخطرُ ماشياً والردف بِجْذب خصره من خلفهِ.
يا من يُسلِّم خصره من ردفه سلِّم فُؤاد محبِّه من طرفهِ.

وقال السريّ الرفَّاء:

ضعفت معاقد خصره وعهوده فكأنَّ عقد الخصر عقد وفائه.

وقال المتنبي:

وخصْر تثبتُ الأبصار فيه كأنَّ عليه من حدقٍ نطاقا.

وقال السريّ الرفَّاء:

أحاطت عيون الناظرين بخصره فهنّ له دون النِّطاق نطاقُ.

وقال الأمير سيف الدّين المشدّ:

وأهيف القدِّ بتُّ أشكو له تلافي وما تلافي.
فلان عطفاً ودقَّ خصراً وإنما ردفه تجافى.

وقال أبو نواس:

ليِّن القدِّ لذيذُ المُعتنقْ يشبه البدر إذا البدر اتَّسقْ.
مثقل الردف إذا ولّى حكى مُوثقاً في القيد يمشي في زلقْ.
وإذا أقبل كادت أعينٌ نحوه تجرح فيه بالحدقْ.

وقال آخر وأجاد:

أيامن نصفه غُصنُ يميل ونصفُه كفلُ.
صفاتك في تبايُنها فمُنفصلٌ ومُتَّصلُ.
فنصفُك موجُ عاصفةٍ ونصفك شاربٌ ثملُ.

وصفها على لفظ التأنيث

فمنه قول أبي عُبادة البُحتريّ:

كأنَّهن وقد قاربن في نظري ضدّين في الحسن تثقيلاً وإخْطافا.
رددن ما خفَّفتْ عنه الخصور إلى ما في المآزر فاستثقلن أرْدافا.

وقال آخر:

لها ردفٌ تعلق في لطيف فذاك الرِّدف لي ولها ظلومُ.
يعذِّبني إذا فكّرت فيه ويُتعبها إذا قصدت تقومُ.

وقال مؤمل وأفرط:

من رأى مثل حبَّتي تُشْبه البدر إذ بدا.
تدخلُ اليوم ثم تدْ خُلُ أردافها غدا.

وقال أبو هلال:

تمْشي بأردافٍ أبين قعُودها بين النِّساء كما أبين قيامها.

وقال عليّ بن عطية البلنسي:

وإنْسيَّةٍ زارتْ من اللَّيْل مضْجعي فعانقت غُصن البان منها إلى الفجر.
أسائلها أين الوشاحُ؟ وقد سرتْ مُعطَّلةً منه، معطَّرة النَّشْر.
فقلت: وأومت، للسِّوار نقلته إلى معصمي لما تقلقل في خصري.

وقال الطائيّ:

من الهيف لو أنَّ الخلاخل صُيِّرت لها وُشُحاً عليها الخلاخلُ.

وقال إسحاق الموصليّ:

ظباءٌ كاليعافيرِ كُنُوسٌ في المقاصيرِ.
وأدبرن بأعْجَازٍ كأوساط الزنَّانيرِ.

وقال عمر بن أبي ربيعة:

يتقابلن كالبدور على الأغْ صان في مُثقل من الأردافِ.
بخصورٍ تحكي خُصُور الزناني ر ضعافٍ هممن بالانقصافِ.

وقال آخر:

عظُمتْ روادفُها فآذتْ خصرها ووشاحها قلقٌ كقلب المغرم.

وقال آخر:

آخرها مُتْعبٌ لأوّلها فبعضها جائرٌ على بعضِ.

وقال آخر:

تمشي فتُثقلُها روادفها فكأنَّها تمشي إلى خلف.

وقال البجليّ:

إن العزيز عليّ خصرك إنه بالردف حُمِّل منك ما لا يُحملُ.
فخذي له جسمي مكان وشاحه إن العليل بشكله يتعلَّلُ.

ومما قيل في السُّوق

فمن ذلك قول الأمير سيف الدّين المشدّ:

ساقٍ تجلَّى كأنَّه قمرُ، يحمل شمساً، أفديه من ساقِ!
شمَّر عن ساقه غلائله، فقلت: مهلاً، واكفف عن الباقي!
لمَّا رآني، وقد فُتنتُ به من فرط وجدي وعُظْم أشواقي،
غنَّى وكأسُ المُدامِ في يده: قامت حروب الهوى على ساقِ.

وقال عروة:

فقمن بطيئاً مشْيهنَّ تأوّدا على قصبٍ قد ضاق عنه خلاخلهْ.
كما هزَّت الميزان ريحٌ فحَّركتْ أعاليه منه وارجحنَّتْ أسافلهْ.

وقال كُثيِّر عزَّة:

ويجعلن الخلاخل حين تلوى بأسوقهنَّ في قصبٍ خدال.

وقال كشاجم:

قلت: وقد أبصرتها حاسراً عن ساقها فاضل سربالها:
لو لم تكن من بردٍ ساقها، لاحترقت من نار خلخالها.

وله أيضاً:

وإذا لبسن خلاخلاً، كذَّبْن أسماء الخلاخل.

مما وصفت به القدود

فمن ذلك قول أبي فراس الحمدانيّ:

غلامٌ فوق ما أصفُ كأنَّ قوامه ألفُ.

إذا ما مال يُرعبُني: أخاف عليه ينقصفُ.
وأشفق من تأوّدُه: أخاف يُذيبه التَّرفُ.

وقال الخُبْزأرزِّيّ:

أهيف يحكي بقدِّه الألفا يخسر من لم يُكن به كلفا.
أحسن من بهجة الخلافة والأم ن لمن قد يُحاذر التَّلفا.
لو أبصر الوجه منه مُنهزمٌ يطلبه ألفُ فارسٍ، وقفا.

وقال ماني:

أتمنَّى الذي إذا أنا أومأ تُ إليه بطرف عيني، تجنَّى.
أهيفٌ كالقضيب لو أنَّ ريحاً حرَّكت هدب ثوبه، لتثنَّى!

وقال آخر:

أيا سائلي عن قدِّ محبوبي الَّذي كلفتُ به وجداً وهمتُ غراما.
أبى قصر الأغصان ثُمَّ رأى القنا طوالاً، فأضحى بين ذاك قواما.

وقال آخر، وهو محمد بن التلمساني:

يا مُخجلاً بقوامه أغصانِ بنات اللِّوى!
ما أنت عنْدي والقضي ب اللَّدْنُ في حدٍّ سوى!
هذاك حرَّكه الهوا ء وأنت حرَّكت الهوى!

وقال آخر:

يا غُصناً راح الصِّبا يثنيه، لا ريح الصِّبا!
ما إن بدا للعين إلا ارتاح قلبي وصبا.
ولا انثنى يخطر إلا ازداد قلبي وصبا.

وقال آخر، وهو كشاجم:

معتلٌ من كلِّ أعطافه، مُستحسن القامة والملتفتْ.
لو قيست الدّنيا ولذَّاتها بساعةٍ من وصله، ما وفتْ.
سُلِّطت الألحاظُ منه على قلبي، فلو أودت به ما اشتفتْ.
واستعذبت روحي هواه فلا تصحو ولا تسلو، ولو أتْلفتْ.

مما قيل في العناق

فمن ذلك ما ورد على لفظ التذكير:

فمنه قول الحسين بن الضحاك:

ومُوشَّح، نازعت فضل وشاحه وكسوته من ساعديَّ وشاحا.
بات الغيور يشُقُّ جلدة خدِّه وأمال أعطافاً عليّ ملاحا.

وقال آخر:

بتُّ وبدرُ الدُّجى نديمي وهو مواتٍ بلا امتناعِ.
فقلت للحاسدين لمَّا أشرقت الشمس بالشُّعاعِ:
القلبُ والطِّرْف منزلاه وهو إلى الآن في الذِّراعِ.

وقال ابن المعتزّ:

ما أقصر الليل على الراقدِ! وأهون السُّقْم على العائدِ!
يفديك ما أبقيت من مُهجتي، لست لما أوليت بالجاحدِ.
كأنَّني عانقت ريحانةً تنفَّست في ليلها الباردِ.
فلو ترانا في قميص الدُّجى، حسبتنا في جسدٍ واحدِ.

وقال أبو هلال في نحو ذلك:

ونحن في نظم الهوى واحدٌ كأنَّنا عقدانِ في نحرِ.

وقال ابن الصولي:

طال عمر الليل عندي إذ تولَّعت بصدِّ.
يا ظلوماً نقض العه د ولم يُوفِ بعهدِ!
أنسيت الوصل إذ بت نا على مرقدِ وردِ.
واعتنقنا كوشاح وانتظمنا نظم عقدِ.
وتعطَّفْنا كغصني ن، فقدّانا كقدِّ.

وقال ابن عبد كان الكاتب:

وكلانا مُرتدٍ صاحبه كارتداء السَّيْف في يوم الوغى.
بخدودٍ شافياتٍ من جوىً وشفاهٍ مُرويات من ظما.
نتساقى الريق فيما بيننا: زقَّ أُمَّات القطا زُغب القطا.

وقال عليّ بن الجهم:

سقى الله ليلاً ضمنا بعد فُرقة، وأدنى فؤاداً من فؤادٍ مُعذَّبِ!
فبتنا جميعاً: لو تُراق زُجاجةٌ من الخمر فيما بيننا، لم تسرَّبِ.

وقال الخبزأرزّيّ:

طوّقته طوق العناق بساعدي، وجعلت كفِّي للِّثامِ وشاحا.
هذا هو الفوز العظيم فخلِّنا، مُتعانقين فما نُريد براحا!

وقال صالح بن يونس:

لي سيِّدٌ ما مثله سيِّدُ، تصدّت الحمَّى له فاشتكى.
عانقته عند موافاته، والأفق بالليل قد احلولكا.
فجاءت الحمَّى كعادتها، فلم تجد ما بيننا مسلكا

وقال الحسين بن عليّ بن بشر الكاتب

ضممته ضمَّ مُفرط الضَّمِّ، لا كأبٍ مُشفقٍ ولا أُمِّ
ولم نزل، والظلام حارسنا، جسمين مستودعين في جسمِ
ألثمه في الدُّجى، وبرْقُ ثنا ياه يُريني مواضع اللُّثْمِ
ثُمَّ افترقنا عند الصباح وقد أثَّرت فيه كهيئة الختمِ

وقال أبو عبد الله الحامديّ

سقاني وحيّاني وبات معانقي! فيا عطف معشوقٍ على ذُلِّ عاشقِ!
ويا ليلةً، باتت سواعدنا بها تدور على الأعناق دور المخانقِ!
نبُثُّ من الشَّكوى حديثاً كأنَّه قلائد درٍّ في نُحور العواتقِ.

مما ورد على لفظ التأنيث

فمن ذلك قول أبي إسحاق الصابي:

هيفاء تحكي قضيباً قد جمَّشتْه الرِّياحُ.
تفترُّ عن سمط دُرٍّ عليه مسْكٌ وراحُ.
جرَّدتُها واعتنقنا: كلٌّ لكلٍّ وشاحُ!
باتت، وكلّ مصونٍ لي من حماها مُباحُ.
في ليلةٍ لم يعبها في الدّهر إلا الصَّباحُ.

وقال أيضاً:

أقول وقد جرَّدُتها من ثيابها وعانقْتها كالبدر في ليلة التِّمِّ:

لئن آلمت صدري بشدّة ضمِّها، لقد جبرت قلبي وإن أوهنت عظمي!

وقال أبو الفضل الأصبهانيّ:

يا ليلةً قُرنت لنا فيها المآرب بالنجاحْ.
بتنا برغم وشاتنا متعانقين إلى الصَّباحْ.
متمازجين كأنَّنا روحان من ماء وراحْ.
ظنَّ الوشاة لفرط ضمِّ ي أنني بعض الوشاحْ!

وصف مشي النساء

يقال: تهالكت المرأة، إذا انفتلت في مشيتها. تأوَّدتْ، إذا اختالت في تثنٍّ وتكسُّر. بدحت وتبدَّحت، إذا أحسنت مشيتها. تهزَّعت تهزعاً، إذا اضطربت في مشيتها. قرصعت قرصعةً، وهي المشية القبيحة؛ وكذلك مثعت مثْعاً. وقال الأعشى:

غراء، فرعاء، مصقولٌ عوارضها تمشي الهوينى كما يمشي الوجى الوحلُ.
كأنَّ مشيتها من بيت جارتها مرُّ السحابةِ: لا ريث ولا عجلُ.

وقال آخر:

يمشين مشي قطا البطاح تأوُّداً، قب البطون، رواجح الأكفالِ.

وقال ابن عائشة من أبيات:

فكأنَّهنّ إذا أردن خُطاً يقلعن أرجلهنَّ من وحلِ.

وقال أبو الفتح كشاجم:

وتهتزُّ في مشيتها مثل ما تهزُّ الصَّبا غُصناً ناعما.
وتأمُر بالأمر فيه الذي كرهت فأرضى به راغما.

وقال آخر:

شبَّهت مشيتها بمشية ظافرٍ يختال بين أسنَّةٍ وسيوفِ.
صلفٍ تباهت نفسه في نفسه، لما انثنى بسنانه المرعُوفِ.

وقال آخر:

تمشي الهوينى إذا مشت فُضلاً مشي النَّزيف المخمور في صعد.
تظلُّ من زور بيت جارتها واضعةً كفَّها على الكبد.

وقال المنخَّل اليشكريّ:

ولقد دخلت على القنا ة الخدر في اليوم المطيرْ.
فدفعتها فتدافعت مشي القطاة إلى الغديرْ.
ولمستُها فتنفَّست كتنفس الظَّبي البهيرْ.

وقال عمر بن أبي ربيعة:

أبصرتها ليلةً، ونسوتها يمشين بين المقام والحجرِ.
يرفلن في الرَّيط والمروط كما تمشي الهوينى سواكن البقرِ.

وقال ابن مُقبل:

يهزُزن للمشي أوصالاً منَّعمةً هزَّ الجنوب صُحىً عيدان يبرينا.
أو كاهتزاز رديني تداوله أيدي التِّجار فزادوا متنه لينا.

يمشين هيل النَّقا مالت جوانبه ينهال حيناً وينهال الثَّرى حينا.

وقال أشجع السلميّ:

وماجت كموج الماء بين ثيابها يميل بها شطرٌ ويعدلها شطرُ.
إذا وصفت ما فوق مجرى وشاحها غلائلها ردَّت شهادتها الأزرُ.

وقال العباس بن الأحنف:

شمسٌ مقدّرةٌ في خلق جاريةٍ كأنما كشحها طيُّ الطَّواميرِ.
كأنها حين تمشي في وصائفها تخطو على البيض أو خضر القواريرِ!

انتهى الغرض في وصف الأعضاء، وما شاكلها واتصل بها.
فلنذكر إن شاء الله تعالى ما جاء فيما قدّمناه من الأمثال.
أمثال ذكر فيها الإنسان
يقال:
شديدٌ على الإنسان ما لم يعوَّد. وما عُلِّم الإنسان إلا ليعلما.
الناس من جهة التمثيل أكفاء. الناس أخيافٌ وشتَّى في الشيم.
الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم. وما الناس إلا هالكٌ وابن هالك.

والناس أولاد علاَّتٍ فمن علموا أن قد أقلَّ فمهجورٌ ومحقورُ.

وقال آخر:

الناس أكيس من أن يحسدوا رجلاً حتَّى يروا عنده آثار إحسان.

ويقال:
المرء أعلم بشأنه. المرء مع من أحبّ. دعِ امرأً وما اختار. كلٌّ امرئٍ في شأنه ساع. كلّ امرئٍ مصبَّحٌ في أهله.
كلّ امرئٍ من شجو صاحبه خلو. المرء يعجز لا محالة. المرء توَّاقٌ إلى ما لم ينلْ. المرء يجمع، والزمان يفرِّقُ.
ويقال: الرِّجال بالأموال. تُقطَّع أعناق الرجال المطامع. ولكلِّ دهرٍ دولةٌ ورجالٌ. أمثال في ذكر النفس يقال: النفس مولعةٌ بحبِّ العاجل. النفس أعلم من أخوك النافع. أكذب النفس إذا حدّثتها. ما عاتب الرجل اللبيب كنفسه.
الجود بالنفس أقصى غاية الجود. نفس عصامٍ سوَّدت عصاما.

أعضاء الإنسان في الأمثال الظاهرة والباطنة
الرأس والشعر
من نجا برأسه فقد ربح. رماه بأقحاف رأسه. أي بالدواهي.
اختلفت رؤوسها فرتعت. كلّ رأسٍ به صداع.
ويقال:
أدقُّ من الشَّعر. أهون من الشَّعر الساقط. ذكر الوجه وجه المحرِّش أقبح. أي وجه مبلغ القبيح أقبح من وجه قائله. في وجه مالكٍ تُعرف إمرته. قبل البكاء كان وجهك عابساً.

قال أبو تمام:

وما أُبالي، وخير القول أصدقه، حقنت لي ماء وجهي أم حقنت دمي.

وقال ابن الروميّ:

وقلَّ من ضمنت خيراً طويَّته إلا وفي وجهه للخير عنوانُ.

له مُحيّاً جميلٌ يُستدلُّ به على جميلٍ، وللبطنان ظهرانُ.

وقال آخر:

صلابة الوجه صلاح الفتى ورقَّة الوجه من الخُرقة.

من ذكر العين

يقال:

أسرع من طرف العين. أسرع من لمح البصر. العين ترجمان القلب. شاهد البغض اللحظ. رُبَّ عينٍ أنمُّ من لسان. ليس لما قرّت به العين ثمن. نظرةٌ من ذي علقٍ. عينٌ عرفت فذرفت. لحظة أصدق من لفظه. ليس لعينٍ ما رأت، ولكن لكفٍّ ما أخذت. لا تطلب أثراً بعد عين. من أطاع طَرفه، أصاب حتفه. وأيُّ عارٍ على عين بلا حور. والدّمع قد يعلن ما في الصدور.

ومن الأبيات:

وعين الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ؛ ولكنَّ عين السُّخط تُبدي المساويا.

وقال الأمير أبو الفضل الميكالي:

كم والدٍ يحرم أولاده وخيره يحظى به الأبعدُ.

كالعين لا تنظر ما حولها، ولحظُها يُدرك ما يبعدُ.

ذكر الأنف

أنفك منك وإن كان أجدع. يضرب في القريب السوء. شفيتُ نفسي وجدعت أنفي. لأمرٍ مَّا جُدع قصيرٌ أنفه.

كلُّ شيءٍ أخطأ الأنف جلل. لُدغتُ حيث لا يضع الراقي أنفه. يضرب للأمر الذي لا دواء له. رُبَّ حامٍ لأنفه وهو جادعه. يضرب لمن أنف من الشيء فتوقعه الأنفة في أشدَّ منه. مات حتف أنفه. جدع الحلال أنف الغيرة. قاله رسول الله، صلى الله عليه وسلم. أنفٌ في السماء، واستٌ في الماء!

ذكر الفم، واللسان، والأسنان

كل جانٍ يده إلى فيه. حدّثني، فاه إلى فيّ. فلان خفيف الشفة. أي قليلَ المسألة. سكت ألفاً، ونطق خلفاً. قرع سنّ النادم. كدمت في غير مكدم. أي طلبت غير مطلب. وجرح الدهر ما جرح اللِّسان. وجرح اللسان كجرح اليد.

ذكر الأذن

جاء فلانٌ ناشراً أذنيه. لبست على ذلك أُذُنيّ. أساء سمعاً فأساء إجابةً. كلامه يدخل في الأذن بلا إذن. جعلت ذلك دبر أُذُني.

ذكر العنق
حسبُك من القلادة ما أحاط بالعنق. أذلَّ الحرص أعناق الرجال.
وقال أبو الفتح البستيّ:
فكم دقَّت وشقَّت واسترقَّت فضُول العيش أعناق الرِّجالِ.

ذكر اليد
أهدى من اليد إلى الفم. ألزم من اليمين للشمال. يداك أوكتا، وفوك نفخ. اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى. آثر لديه من يمين يديه. ذهبوا أيدي سبا. أي متفرّقين. بالساعد تبطش الكفُّ. على يدي دار الحديث. إذا كان خبيراً بالأمر. هو على حبل ذراعه. أي موافق له. تربت يداه. دعاء عليه بالفقر. ما تبلُّ إحدى يديه الأخرى. للبخيل. تركه على أنقى من الراحة. فلان يُقلِّب كفَّيه. سُقط في يديه. للنادم. أعطاه عن ظهر يدٍ. أي ابتدأه لا عن مكافأة. ما سدّ فقرك مثل ذات يدك.

(البقية في الملف التالي)